پيرل باك

مأساة أم

دار الحرف العربي

بيرل باك

مأساة أم

إعداد وتقديم وتحليل

الدكتور رحاب عكاوي

دار الحرف العربي

اسم الكتاب :
ماساة أم

المؤلف :
بيرل باك – كاتبة اميركية

اعداد و تقديم و تحليل :
الدكتور رحاب عكاوي

الناشر :
دار الحرف العربي
للطباعة و النشر و التوزيع

زقاق البلاط –بناية فخر الدين
شارع خليل سركيس
تلفون و فاكس : 009611/361045
بيروت – لبنان
E-mail:
Dar_al_haref_alarabi@yahoo.com
DarAlHarefAlArabi@gmail.com
www.dar-alharef-alarabi-lb@jimdo.com

الطبعة :
الاولى 2012
الخطوط :
علي عاصي

الحقوق :
© جميع الحقوق محفوظة للناشر

الترقيم الدولي :
ISBN: 978-9953-542-39-3
اسم الكتاب بالاصل :
The Mother

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الطبعة الأولى
١٤٣٣ هـ - ٢٠١٢

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع
ص. ب: ١١٣/٦٤٨٠
فاكس: ٠٠٩٦١١/٣٦١٠٤٥
بيروت - لبنان

طبع في لبنان Printed In Lebanon

پيرل باك

١٨٩٢ - ١٩٧٣

روائية أميركية طبقت شهرتها الآفاق شرقاً وغرباً بما أبدعته من روايات تتناول الحياة في الصين. والكثير من أعمالها أسهم في المزيد من التفاهم والتقارب بين شعوب آسيا والغرب، إذ كرّست معظم حياتها لإقامة جسر بين عالمي الغرب والشرق، بهدف أن يعرف أبناؤهما بعضهم بعضاً على نحو أفضل. حصلت على جائزة «پوليتزر عام ١٩٣٢»، وعلى ميدالية وليم دين هولز عام ١٩٣٥، التي منحتها الأكاديمية الأميركية للفنون والآداب لأروع الأعمال الروائية الأميركية التي صدرت في الفترة من ١٩٣٠ إلى ١٩٣٥، ثم حصلت على جائزة نوبل في الآداب عام ١٩٣٨.

تجدر الإشارة إلى أن معظم القراء، بل وكثير من نقاد الأدب والمؤرخين يعتقدون أن پيرل باك حصلت على جائزة نوبل من أجل روايتها «الأرض الطيبة» وقد جانبَهم جميعاً الصواب في ذلك الاعتقاد الذي لا أساس له من الحقيقة، كما يقول الدكتور غبريال وهبة، في التعريف بالمؤلفة، مستشهداً بما جاء في تقرير اللجنة التي منحتها الجائزة: «من أجل الوصف والتصوير الملحمي لحياة الفلاحين الصينيين وروائع كتبها المتعلقة بسير حياة الأشخاص». ثم ها هي الروائية السويدية «سيلما لاغرليف»، التي كانت أول امرأة تفوز بجائزة نوبل في الآداب والتي حصلت عليها عام ١٩٠٩، وشاركت كعضو في لجنة نوبل، قد صرحت بأنها أعطت صوتها لصالح پيرل باك بسبب تفوقها المتميّز في كتابها عن سيرة حياة والدها. ولا شك أن في ذلك إشارة إلى كتابي پيرل باك وينطبق عليهما وهما «المنفية» وهو دراسة عن حياة والدتها و«الملاك المناضل»، الذي تصوّر فيه حياة والدها، وهذان الكتابان ضمّهما مجلد واحد نُشر عام ١٩٣٧.

پيرل باك في عام ١٩٣٢

ولدت «پيرل سيدينستريكر» في السادس والعشرين من شهر حزيران/ يونيو عام ١٨٩٢ في منزل الأسرة في «هيلزبورو» بولاية وست ڤيرجينيا، حينما كان والداها «أبسالوم» و«كارولين» سيدينستريكر في إجازة من عملهما كمبشرين في إرسالية دينية بالصين. وعلى الرغم من أن «پيرل» ولدت في الولايات المتحدة فإنها انتقلت إلى الصين مع والديها وهي لمّا تزل طفلة لا يتجاوز عمرها الأشهر الخمسة. هناك نشأت، حيث قضت باكورة سنواتها ذات الأثر الكبير في تكوينها. وقد شكلت الصين عقل الطفلة وخيالها ودمغتها بطابع لا

يمّحي، فالصين عالم غريب، عالم من السقوف العتيقة الطراز المكسوة بالقرميد، والمعابد البوذية، وتماثيل عجيبة لآلهة غير معروفة تبعث خشية في النفوس، واحتفالات الأعياد، والمهرجانات الفريدة الغنية بالألوان، النابضة بالحيوية. كما أن هناك أجناساً متباينة من الناس لا حصر لها تمتد من المتسولين المعدمين إلى الشخصيات المسنّة من ذوي الوقار والهيبة، إلى اللصوص وقطّاع الطرق الهمج البعيدين عن المدنية في التلال القريبة، والذين كثيراً ما يهاجمون المدن والقرى الصغيرة.

كان والدا پيرل يأنفان على الدوام من تعقيدات الإرساليات الدينية المتحفظة المنفّرة التي يعملان في حقلها، ففضّلا أن يعيشا وأن يعملا بين أبناء الصين من عامة الشعب. وهكذا ترعرعت الطفلة على مقربة من هؤلاء الوطنيين، فألفتهم، وحملت لهم في قلبها مودة وصداقة حميمة. وكانت تتحدث الصينية، وتلعب مع الأطفال الصينيين، وتزورهم في بيوتهم، وتستمع إلى حكاياتهم وآرائهم، وعرفت مشاعرهم ووجهات نظرهم وأفكارهم.

استحوذت القصص والحكايات على ذهن الفتاة الصغيرة، وهي تعترف بأنها كانت فضولية أزعجت كل شخص بما تطرحه من أسئلة تكون عميقة أحياناً، تتسم بحب الاطلاع على شؤون الآخرين الخاصة. إن قصة عن أي شخص، في مكان قريب أو بعيد، تأسرها وتثير اهتمامها، إلاّ أنها كانت مولعة بوجه خاص بحياة من حولها من الناس. وهي تتذكر أنها كانت تستمع ساعات طويلة إلى شخص يتحدث إليها، ولاحظت أن الصينيين كانوا لا يكتمون ما يتصل بحيواتهم الخاصة حين يتناقشون بشأنها، بل إنهم يتحدثون عنها بالتفصيل.

يذكر أن پيرل سيدينستريكر استمعت في صغرها إلى سلسلة لا نهاية لها من القصص التي روتها لها حاضنتها ومربيتها العجوز. وأعلنت پيرل فيما بعد أن تلك القصص كانت تمثل أول تأثير أدبي ترك بصماته على أعمالها. وكانت تلك الحاضنة الصينية مولعة بوجه خاص بأن تروي الأساطير البوذية والطاوية. وقد أثارت هذه الأساطير اهتمام الطفلة الأميركية لما فيها من خيال جامح، وتحليق وانطلاق، وحركات سريعة، وهروب، مثلما جاء في قصة عن الخناجر العجيبة التي يمكن أن يتناقص حجمها وأن تصغر إلى درجة يمكن معها إخفاؤها في أذن شخص أو في زاوية عينه، ولكن عند الإمساك بها لخوض معركة أو للدفاع عن النفس تزداد طولاً وقوة.

هذا عن الأساطير البوذية وتأثيرها في الفتاة، أما بالنسبة إلى الطاوية فيعتبر الحكيم «لاوتسو» منشئاً لها، وتشمل أفكار وتعاليم وفلسفة ذلك الحكيم الصيني الذي عاش في القرن السادس قبل الميلاد، وكان مرجع أتباعه في ذلك كتابه «تاوتيه تشينغ». ويحتل دين الطاوية المنزلة نفسها مع الكونفوشيوسية والبوذية، وتتصف الطاوية باتجاه إيجابي نشط نحو الإيمان بالقوى الخفية الغامضة، وبإمكان إخضاعها لسيطرة البشر بالسحر، واتجاه إلى ما وراء الطبيعة أو الميتافيزيقا. وكانت قصص الأساطير الطاوية، التي ترويها المربية الصينية لپيرل، تتضمّن الشياطين، والجن، والأرواح الخيالية الفانتازية التي تعيش في الأشجار والصخور، والتنانين التي تركب الرياح والعواصف.

أضف إلى الحكايات والقصص العجيبة التي كانت ترويها الحاضنة سمعت پيرل باك من

والدها قصصاً نادرة فريدة ومثيرة. فقد كان أبسالوم سيدينستريكر، بحكم مهنته كمبشّر في إرسالية دينية، يقوم برحلات إلى المناطق النائية المنعزلة في الصين، كما مرّ بتجارب ومخاطر مثيرة نادرة، وعلى الرغم من أنه بطبيعته كان كتوماً متحفّظاً، إلاّ أنه عند عودته كان يروي بعض مخاطراته، وما مرّ به من تجارب وخبرات، ما ترك تأثيراً عميقاً في ابنته الصغيرة.

ثم إنّ والدة پيرل كانت بطبيعتها راوية بارعة في سرد الأخبار والقصص، تحب الغناء والاشتراك في الحفلات العامة. وكانت تحن في أفكارها إلى وطنها، في أميركا، فبصّرت ابنتها بالكثير عن حياتها كفتاة في «وست ڤيرجينيا» حيث كانت الحياة هناك مختلفة تماماً عن الحياة التي عرفتها پيرل، فها هي تخبرها عن الحرب الأهلية الأميركية، وما حاق بأسرتها في هذه الحرب. إنها تتحدث كثيراً عن أقاربها والأسرة وأسلافها. كانت تنشد الأغاني، وتتلو أشعار القصائد لتسلية أطفالها، كما حاولت أن تزرع في نفوسهم حب الطبيعة والهواء الطلق في الخلاء. والشيء الذي لا يُنسى أيضاً تلك الاستعدادات التي كانت تجري للاحتفال بعيد الميلاد وما يحيط به من مباهج ومسرات.

وكانت هناك أيضاً قصص وآراء ووجهات نظر من دول أخرى. فطبيب العائلة كان من أبناء الهند، وكان هو وزوجته يجيدان التحدث باللغة الإنكليزية. وهكذا أمطرت الصغيرة پيرل الطبيب وزوجته بوابل من الأسئلة عن طفولتهما، وعن تعليمهما المدرسي، وعن الحياة في الهند بوجه عام، لذلك كله أصبحت على إدراك ووعي مبكرين بسحر وفتنة الهند.

وصادقت پيرل كذلك سيدة يابانية تقيم إلى جوارهم، فكانت تزورها كثيراً، حيث كانت على معرفة واسعة بأناس من بورما، وسيام، وإندونيسيا، وغيرها من الدول القريبة من الصين. وقد أسعد هؤلاء الأفراد، الذين يقيمون في الصين، أن يتحدثوا عن أوطانهم. ولا شك أن هذه الصداقات قد أمدّت پيرل بثروة من القصص والتجارب والخبرات التي ساعدت على تطوير ملكة وخيال طفلة يقظة نشطة فطِنة.. ليس هذا فحسب بل إنها زوّدتها أيضاً بمادة ضخمة لرواياتها وقصصها القصيرة.

كانت «پيرل سيدينستريكر» قد عزمت، منذ طفولتها، على أن تصبح كاتبة وروائية، تقول: «إن المرء يشتاق إلى أن يعمل ما يحبه، وأنا قبل كل شيء أحببت سماع القصص عن الناس. وأخشى أنني كنت طفلة مزعجة، يدفعني الفضول دائماً إلى حب الاطلاع على شؤون الناس، ولماذا كانوا كما وجدتهم». لقد شعرت، حتى وهي طفلة، بدافع قوي لكتابة الروايات. وهي تعترف بأن الهواجس قد انتابتها تجاه ذلك، واستحوذت عليها هذه الفكرة واستبدّت بها، وتسلم بأنها لن تذوق طعم السعادة أبداً ما لم تداوم على الكتابة.

وبالإضافة إلى استماعها طويلاً إلى قصص مختلف الناس في أمكنة شتى، فإن پيرل كانت ولوعة بالقراءة دون انقطاع، وتنفق ما تحصل عليه من نقود في شراء الكتب. ونظراً لندرة كتب الأطفال في الصين، فقد انحصرت معظم قراءاتها في الروايات، وكانت في غالبيتها إنكليزية، لقلة الأميركية التي يصعب الحصول عليها. وأكثر قراءاتها في صغرها كانت تتضمّن الأعمال الكاملة أو نصف الكاملة لـ«شكسپير» والسير «والتر سكوت» و«وليم ثاكري» و«جورج إليوت» و«تشارلز ديكنز». وقد بدأت في قراءة «أوليڤر

تويست» حين كانت في السابعة من عمرها. وهي تتذكر أنها كانت تقرأ جميع روايات ديكنز مرة على الأقل في العام، وتعيد قراءتها سنوياً على مدى فترة تقرب من عشرة أعوام. لقد أسعدها ديكنز وأثّر فيها، الأمر الذي دعاها إلى كتابة مقالة حماسية تعبّر عن إعجابها بقلمه وقوة مخيلته.

تكلّمت پيرل اللغة الصينية قبل أن تتكلم الإنكليزية، ولكنها سرعان ما تمكّنت من القراءة والكتابة بالإنكليزية أكثر من الصينية، فقد تلقّت من والدتها دروساً مكثفة في اللغة، وكانت الأم تصرّ على أن تؤدي ابنتها العديد من التمارين، وتناقشها وتراجعها معها، وتؤكد أهمية استعمال لغة إنكليزية صحيحة دقيقة. ونشرت كثيراً من الكتابات التي كانت تتدرّب عليها پيرل في شبابها في القسم المخصص للأطفال في جريدة «شانغهاي ميركوري» التي كانت تطبع بالإنكليزية. وظلت تسهم بما تكتبه بضع سنوات، وكانت توقعها باسم «المبتدئة». ومن ثم ثابرت السيدة الوالدة على تشجيع ابنتها على التعبير عن أفكارها فيما تكتبه. ولا شك أن هذا الإصرار على التدريب، على الأساسيات، قد آتى أُكُله في تنمية الإحساس بالكلمة، والقدرة على التعبير عن الأفكار بطريقة جلية قوية وأسلوب واضح سلس متميّز.

وزيادة على التدريب الذي تلقته في اللغة الإنكليزية فإن الفتاة الصغيرة تعلّمت على يد السيد «كونج»، وهو مدرس خصوصي خريج مؤسسة كونفوشيوسية، سبق أن قدمت له منحة للدراسة فيها، علّم پيرل قراءة وكتابة اللغة الصينية. ليس هذا فحسب، بل إنه علّمها أيضاً الكثير من مبادئ وقواعد السلوك ومعتقدات الكونفوشيوسية، ودرست عليه التاريخ الصيني، وتنبّهت إلى الأمبريالية والاستعمار الغربي واستغلاله لموارد الشرق الأقصى. وهي لا تنسى أبداً مناقشاته وما درّسه لها عن ثورة «البوكسر».. تلك الجمعية السرية التي حاولت عام ١٩٠٠ طرد الأجانب من الصين، وحمل المتنصّرين الصينيين على الارتداد عن المسيحية، والتي كان من أثرها ما فعلته بأسرة پيرل، إذ اضطرت في وقت سابق إلى الهروب هي ووالدتها وشقيقتها إلى ساحل البحر للنجاة بجلودهن، وقد نصح السيد كونج تلميذته المشمولة برعايته وكل الأجانب من الجنس الأبيض أن يلوذوا بالفرارمن الصين نفسها لإنقاذ أرواحهم.

بعد وفاة المدرّس السيد كونج عام ١٩٠٥ تعلمت پيرل في إحدى مدارس الإرساليات، ثم سافرت إلى شانغهاي لتلتحق هناك بمدرسة الآنسة «جوويل». ومن منظور أدبي كان أثمن شيء في السنة التي قضتها پيرل في هذه المدرسة هي الخبرات التي عرفتها في جميع الأعمال الاجتماعية التي كانت تؤديها مديرة المدرسة، وأولها تلك الزيارات إلى مؤسسة للإماء اللواتي هربن من قسوة معاملة من يملكوهن.

ولمّا كانت پيرل تتحدث الصينية بطلاقة فقد أجرت كثيراً من اللقاءات والحوارات الطويلة مع أولئك التعيسات، وعرفت منهنّ خلفياتهن وتجاربهنّ وخبراتهنّ. وفي محاولة لزيادة وتعضيد مشاعر پيرل الدينية وتقويتها، ولكي ترى ضرورة القيام بأعمال حسنة صالحة، كانت الآنسة «جوويل» كثيراً ما تصحبها معها إلى مؤسسة تؤوي نساء بيضاوات فقيرات منبوذات، وكانت غالبيتهن من بائعات الهوى. وفي ذلك الوقت كانت پيرل في

طور المراهقة، فأخذت على عاتقها تعليم النزيلات الحياكة وقراءة الكتب والقصص لهن، وأدت غير ذلك من الأعمال الخيرية. ولكنها حين ذهبت لزيارة والديها في عطلة الربيع، وتحدثت عن إسهاماتها في تلك الأعمال التي تقوم بها الآنسة «جوويل» رفضت أمها السماح لها بالعودة. وإذا افترضنا أن السنة التي أمضتها پيرل في مدرسة الآنسة «جوويل» لم تتح لها مزيداً من التعلّم من الكتب، فإنها دون ريب وسعت وعمقت خبراتها وتجاربها الإنسانية، ومنحتها المزيد من التعرّف على العالم الكبير.

هذه الخلفية العريضة والتدريب التربوي المتنوّع أثبتا فائدتهما حين سافرت پيرل عام ١٩١٠ إلى أميركا لتلتحق بكلية «راندولف ماكون» النسائية بولاية ڤرجينيا، وهناك كانت تكتب قصصاً في المجلات والصحف التي تصدرها الكلية، كما أسهمت في كتابة مسرحية تُمثَّل في الفصل، وفازت بجائزتين أدبيتين في عام التخرج، كانت إحداهما عن أفضل قصة قصيرة تكتبها طالبة في الكلية المذكورة، وكانت الثانية عن أحسن قصيدة.

وسرعان ما أدركت پيرل خلفيتها الصينية ووعتها تماماً حين لفتت أنظار زميلاتها اللواتي كنّ ينظرن إليها بفضول، واعتبرنها غريبة الأطوار. وبهدف أن تصبح جزءاً من المجموع رأت پيرل أن تفصِل إلى درجة ما بين عالميْها، ولذلك بدأت تلبس وتتحدث بمزيد من الأسلوب الغربي. وحين أتمت سنتها الأولى هناك كان انتماؤها إلى عالم جديد قد اكتمل نوعاً ما، ومع ذلك فقد سجلت أنها لم تكن مرتاحة ومتحررة من القلق تماماً في السنوات التي أمضتها في كلية ماكون، ولكنها أصبحت في نهاية المطاف في مكان الصدارة بين طالبات صفها.

كان من أصعب الأمور لديها التكيُّف مع أقارب والديها، الذين كانت كثيراً ما تزورهم في العطلات. لقد أصبحت مولعة بمنطقة جبال آليجيني التي يقطنون فيها، غير أن طفولتها والتعليم الذي تلقّته في الشرق الأقصى حال بينها وبين أن تصبح جزءاً متكاملاً من حياتهم، ورغم ذلك، فإنها بينما كانت تشعر أحياناً أن الشدّ والتوتر الشرقي والغربي في خلفيتها منقسمان، فإنها أصبحت تدرك أن تلك التوترات كانت في الحقيقة مشدودة ومرتبطة معاً بشكل دائم في عقلها وفؤادها.

بعد أن حصلت على بكالوريوس في الآداب من كلية «راندولف ماكون» عام ١٩١٤ دُعيت إلى العمل فيها كمدرسة مساعدة في قسم علم النفس والفلسفة، وقد قبلت هذه الوظيفة بعض الوقت، غير أن مرض أمها الخطير جعلها تعود إلى الصين قبل نهاية عام ١٩١٤. كان والداها قد أنجبا سبعة أولاد لم يعش منهم إلى طور المراهقة سوى ثلاثة فقط. شقيقها الذي يكبرها بعشر سنوات سافر ليدرس في الولايات المتحدة حيث استقرّ هناك نهائياً. ولما كانت شقيقتها غريس تصغرها بسبع سنوا ت، ونظراً لانشغال الأب في أعماله الخاصة بإرساليته، كان لزاماً على پيرل أن تعود إلى الصين للاعتناء بوالدتها المريضة. وقد أخذت على عاتقها رعايتها، وقامت أيضاً بتدريس اللغة الإنكليزية لطلبة السنة النهائية في المدرسة العالية. وفي أوقات فراغها واصلت دراسة الكتابة الصينية بشكل متعمّق ومكثّف. وحين استردّت والدتها عافيتها جعلتها ترأس جلسات اللقاءات التي كانت تعقد مع النساء الصينيات لمناقشة مشاكلهن والاستماع إلى وجهات نظرهن. وأخيراً أتاح لها شفاء أمها

فرصة تكريس وقتها كله لمزيد من الدراسة إلى جانب القيام بالتدريس.

بعد ثلاث سنوات من عودتها إلى الصين تزوجت پيرل من الدكتور جون لوسينغ باك، وهو خبير زراعي أميركي جاء أصلاً من ولاية نيويورك، وكانت هيئة الإرساليات البروتستانتية قد عيّنته لتعليم الصينيين طرق الزراعة الأميركية. وذهبت پيرل وزوجها ليعيشا في «نانهسوتشو» في إقليم «آنهواي» في شمالي الصين. وهناك اطّلعت بعمق على أحوال الفلاحين الصينيين وطرق الزراعة التي يتبعونها، وكفاحهم مع الجفاف والقحط والمجاعة، وأساليب نشاطهم المعتاد يوماً بيوم من أجل البقاء. وكانت تصحب زوجها في رحلاته العديدة إلى الريف، وبينما كان هو يناقش الرجال في طرق الزراعة وأساليبها التقنية، كانت پيرل تختلط بالنساء والأطفال وتلاحظ نمط عيشهم.

في هاتيك المنطقة الواقعة شمالي الصين لم تكن سوى قلة من الجنس الأبيض يعيشون، وكانت هي أول امرأة بيضاء تقع عليها أنظار معظم السكان في ذاك المكان. كانت تستمتع بزيارة هؤلاء الناس وتغريهم بالمشاركة في الحوار الطويل معهم لكي تعلم الكثير عن حياتهم. وقد فتنتها تلك الأسر الريفية التي كانت تعمل في الزراعة على نحو بالغ المشقة لقاء قدر ضئيل من المال. ولمّا كان زوجها على معرفة واسعة بشؤون الزراعة فقد أمكنها أن تستقي معلومات مباشرة ودقيقة من ملاحظاتها الذاتية، وممّا درسه زوجها وتخصّص فيه. وقد رأت «پيرل باك» في هؤلاء الناس الذين يعملون في الزراعة، في شمالي الصين، أنهم يمثلون الصينيين الأكثر أصالة والتصاقاً بالأرض في السراء والضّراء، والضحك والبكاء، من المهد إلى اللحد. وهي تقول إن زيارتها للأسر الريفية أصبحت وسيلتها الخاصة وراء البحث عن الحقيقة، وإنها وجدت بينهم الإنسان الأكثر قرباً من الكائن البشري. ومنذ ذلك الحين تسلّل إلى أعماقها وانتشر في جوانحها حب ثابت صامد مخلص للفلاح الصيني الذي غرس حبها له في كل كيانها، وارتحل معها إلى عالم أعمالها الأدبية.

في «نانهسوتشو» مكثت پيرل باك خمسة أعوام، ثم رحلت مع زوجها جنوباً إلى «نانجينغ» حيث حصل الزوج على وظيفة مدرس في جامعتها لتدريس طرق الزراعة، في حين وافقت پيرل على تدريس الأدب الإنكليزي في الجامعة ذاتها. وكان هذا بداية لفترة تقرب من عشر سنوات، قامت پيرل في خلالها بالتدريس، ليس في جامعة «نانجينغ» فقط بل في الجامعة الشرقية الجنوبية أيضاً، وفي جامعة «تشونغ يانغ».

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٢١ ماتت كارولين سيدينستريكر والدة پيرل، وعقب موتها بدأت ابنتها تكتب سيرة حياتها كزوجة مبشّر في إرسالية دينية، وكان ما كتبته تذكاراً لأسرتها. وقد أنجزت مخطوطها الذي وُضع جانباً طوال سنوات عديدة، وكانت تلك السيرة الذاتية في الواقع أول كتاب للمؤلفة، وعلى الرغم من أنه قد تمت مراجعته وإيضاحه والإضافة إليه فيما بعد، وبالتفصيل، فإنه لم يطبع إلاّ في عام ١٩٣٦.

كانت حياتها في «نانجينغ» مختلفة تماماً عن الحياة الريفية في شمالي الصين، فقد بدأت الأفكار الحديثة تتغلغل الآن في العادات والتقاليد الصينية القديمة وطرق المعيشة، وكان كثير من الشباب الصينيين قلقين، والثورة تتأجج في صدورهم، وكان طلبة الجامعات على وجه التخصيص في حالة ارتباك وحيرة، فقد تربوا في ظل نظام محافظ ومجتمع أبوي

يتميّز بسلطة الأب المطلقة على أفراد الأسرة، وهم الآن يواجهون أفكاراً متحررة، وأساليب تفكير حديثة. وكانت الثورة السياسية والاجتماعية تحلّق في الأجواء، وظهرت المناداة بالشيوعية،وشعر هؤلاء الطلاب بوقوعهم بين فكّين: أسلوب الحياة القديمة والأفكار التقدمية الحديثة. ومن ثم تطلّع الكثيرون منهم إلى الغرب سعياً وراء التنوير،ومع ذلك فقد وجدوا تناقضاً وعدم ترابط منطقي وفساداً، ولاحظوا أن المثالية الغربية كثيراً ما كانت تخالف التطبيق العملي في البلاد الغربية.

حياة پيرل باك في الصين كانت حياة آسرة فاتنة فجّرت فيها مواهبها، فبذلت جهداً كبيراً في كتابة سيرة حياة والدتها، كما عزمت على تسجيل بعض انطباعاتها عن دولة كانت تعاني آلام مخاض التغيير، وأرسلت أولى مقالاتها عن هذا الموضوع إلى مجلة «أتلانتيك» الشهرية التي نشرتها في عدد كانون الثاني/ يناير ١٩٢٣، وكانت بعنوان «في الصين أيضاً». وقد ناقشت في هذه المقالة بعض الممارسات الجديدة من مثل: انتشار تدخين اللفائف شعبيّاً، نمو الاختلاط الاجتماعي الودّي بين الجنسين والصداقة بينهما، الرقص الأميركي، والتمرّد على سلطة الآباء. وكانت مشكلة الزواج في تلك الفترة شديدة التعقيد مثيرة للحيرة، ففي الأزمنة السابقة كان الآباء يختارون للابن الزوجة التي ستشاركه الحياة الزوجية، وكذلك يختارون لابنتهم الزوج الذي سيبني بها، ويتولى هؤلاء الآباء أيضاً إعداد مراسم الزفاف أمّا الآن فإن معظم الشباب الصيني يطالب بحق اتخاذ قرار الزواج على النمط الغربي.

استمرت پيرل في الكتابة عن ممارسات معاصرة، كما بدأت تظهر لها مقالات ضافية في «فورم» و«نايشن» وغيرهما من المجلات. وفي هذه الأثناء كانت قد بدأت تكتب أيضاً قصصاً قصيرة وتخطط لروايتها الأولى. وكانت تواظب على القراءة بنهم، ليس في الأدب الصيني التقليدي فقط بل أدب الكتّاب الغربيين أيضاً، مثل الروائيين الفرنسيين «إميل زولا» و«مارسيل بروست» والروائي والقصّاص الأميركي «إرنست همنغواي»، والكاتب الأميركي «هنري دايڤيد ثورو» المتأثّر بتولتسوي وغاندي، كما حازت أعمال الروائي الأميركي «ثيودور درايزر» على إعجابها. وقد ذكرت پيرل أنها قبل أن تبلغ العشرين من عمرها كان الروائي الإنكليزي «تشارلز ديكنز» كاتبها المفضل، قالت عنه: «لقد فتح عيني على الناس وعلّمني حب مختلف أصناف البشر». لكنها بعد العشرين أصبح «ثيودور درايزر» على رأس الكتّاب الذين تختار أعمالهم، ثم تبعه الروائي الأميركي «سينكلير لويس»، وكانت پيرل مولعة بما تبوح به الشخصيات، وما يتكشّف للعيان، خصوصاً إذا كان مثيراً للدهشة على نحو مباغت.كما نظرت بعين التقدير والإجلال إلى «درايزر» و«لويس» والروائية الأميركية «إيلين غلاسغو» لمقدرتهم على تحليل الشخصية الأميركية.

وإلى جانب الكتابة والمطالعة على نطاق واسع، في خلال تلك الفترة، واصلت پيرل نشاطها بكل طاقاتها في مسيرة حياتها المتعددة الوجوه بكل جهد ومثابرة، ودون كلل أو ملل، تلك التي أصبحت من الصفات الأساسية التي تتسم بها حياتها، مع احتفاظها بموقعها كمدرّسة جامعية في الأدب الإنكليزي، مع نهوضها بأعباء واجباتها المنزلية، وقد أرهقتها كثيراً حالة طفلتها الأولى «كارول» التي كانت تنذر بعلامات تثير الهلع، تشير إلى تخلّفها

عقلياً، فحملتها وسافرت بها إلى الولايات المتحدة لتتلقى العلاج، ومع ذلك فقد اكتشفت أن طفلتها ستبقى معاقة دائماً.

وفي سبيل تحويل انتباهها عن هذه المأساة سجّلت نفسها في جامعة «كورنيل» للحصول على درجة الماجستير في الأدب الإنكليزي. وكان زوجها يدرّس هناك أيضاً، فغابا عن الصين مدة عام، وفي السنة التالية أنجزت رسالتها عن كتّاب المقالة الإنكليز في القرن التاسع عشر، ونالت درجة الماجستير عام ١٩٢٦.

في أثناء وجودها في «كورنيل» عانت ضائقة مالية، فعزمت على الاشتراك في المنافسة من أجل الفوز بالجائزة الكبرى التي رصدتها الجامعة، وقدرها مائتا دولار، تُمنح لأفضل مقال عن موضوع دولي هام. وقد حاول أستاذها أن يثنيها عن عزمها، ناصحاً إياها بأنه لاحظ أن تلك الجائزة تمنح عادة لطالب في قسم التاريخ.ولكنها دخلت المنافسة وفازت بالجائزة، وكان موضوع مقالها «الصين والغرب».. وهكذا التقى عالما الغرب والشرق، بما يحملان من مغزى ودلالة، في حياتها مرة أخرى.

وفي عام ١٩٣٣ استقالت پيرل باك من هيئة الإرساليات الدينية التبشيرية بعد أن نشرت مقالاً نقدياً عن المرسلين التبشيريين. وفي عام ١٩٣٥ طُلّقت من جون باك. وفي العام نفسه تزوجت «ريتشارد جون والش» رئيس شركة «جون داي» للطباعة والنشر، ورئيس تحرير مجلة «آسيا»، وأقام الاثنان فيما بعد في الولايات المتحدة. وقد استمرّت هذه الزيجة حتى وفاة الزوج عام ١٩٦٠.

في عام ١٩٣٦ اختيرت پيرل عضواً في المعهد القومي للفنون والآداب. وامتدّ تعاطفها نحو الجميع، خصوصاً الأطفال والبؤساء الذين لا عون لهم. وبعد الحرب العالمية الثانية أنشأت مع زوجها عام ١٩٤٩ «بيت الترحيب» وكالة لتبنّي الأطفال غير الشرعيين من أصل أميركي - آسيوي.

وفي عام ١٩٦٤ أنشأت مؤسسة «پيرل سيدينستريكر باك» لرعاية الأطفال الأميركيين الذين بقوا فيما وراء البحار. وفي عام ١٩٦٧ تبرعت لهذه المؤسسة بمعظم ما كسبته من أموال، والذي تجاوز سبعة ملايين دولار. كما عملت على إنشاء مدارس مهنيّة للمعوّقين. ومن أجل مجهوداتها الإنسانية مُنحت جائزة الإخاء من مؤتمر المسيحيين واليهود، وجائزة «ويزلي» لما أدته من خدمات جلى للإنسانية، وأكثر من اثنتي عشرة درجة من درجات الشرف من الكليات والجامعات الأميركية.

توفيت پيرل سيدينستريكر باك في ٦ آذار/ مارس عام ١٩٧٣ إثر إصابتها بالسرطان الرئوي في مدينة دامبي بڤرمونت في الولايات المتحدة الأميركية، ودفنت في مزرعة غرين هيل في پركاسي ببنسلڤانيا، في قبر صممته هي بنفسها، والذي حُفر اسمها «پيرل سيدينستريكر» على شاهده بالأحرف الصينية.

أعمالها الروائية

رياح الشرق..رياح الغرب ١٩٣٠، الأرض الطيبة ١٩٣١، الأبناء ١٩٣٢، مأساة أم ١٩٣٤، بيت منقسم ١٩٣٥، بيت من الطين وهي ثلاثية تتضمن الأرض الطيبة والأبناء وبيت منقسم في مجلد واحد ١٩٣٦، هذا القلب المتكبر ١٩٣٨، الوطني ١٩٣٩، آلهة

آخرون (أسطورة أميركية) ١٩٤٠، بذرة التنين ١٩٤٢، سماء الصين ١٩٤٢، الوعد ١٩٤٣، انطلاق الصين ١٩٤٥، صورة زواج ١٩٤٥، أحد أبناء المدن ١٩٤٥ (باسمها المستعار جون سيدغيز)، جناح الحريم ١٩٤٦، الزوجة الغاضبة ١٩٤٧ (باسمها المستعار أيضاً) نبات الفاوانيا ١٩٤٨، الأبناء ١٩٤٩، الحب المديد ١٩٤٩ (باسمها المستعار) رجال الله ١٩٥١، الزهرة الخفية ١٩٥٢، الموكب المتألق ١٩٥٢ (باسمها المستعار)، تعالي يا حبيبتي ١٩٥٣، أصوات في البيت ١٩٥٣ (باسمها المستعار)، امرأة أمبراطورية ١٩٥٦ (عن آخر أمبراطورة صينية)، رسالة من بكين ١٩٥٧، فلتأمر الصباح ١٩٥٩، الشيطان لا ينام أبداً ١٩٦٢، القصب الحي ١٩٦٢، موت في القلعة ١٩٦٥، الوقت ظهراً ١٩٦٧، العام الجديد ١٩٦٨، بنات السيدة ليانغ الثلاث ١٩٦٩، الماندالا ١٩٧٠، رمز الكون عند البوذيين ١٩٧١، الآلهة باقية ١٩٧٢، كلهم يلتحفون السماء ١٩٧٣، قوس القزح ١٩٧٤ (نشرت بعد وفاتها).

مأساة أم

مأساة أم ، إذاً، رواية من ضمن ثلاثية هي «الأرض الطيبة» و«الأبناء» و«مأساة أم»، وكلّها كُتبت بقلم پيرل باك. أما العنوان فيشير إلى الشخصية الرئيسية في هذه الرواية والتي هي الأم.

نُشرت «الأم» والتي أسميناها «مأساة أم» لأول مرة في عام ١٩٣٤، وقد صدرت هذه الطبعة التي بين أيدينا في عام ١٩٩٣ عن منشورات «مويربيل» في ولاية رود آيلند ـ ويكفيلد بلندن.

أسلوب الرواية النثري بسيط ومتين جداً، وتتمّ عملية السرد باستخدام ضمير الغائب (هو، هي، الأم، الابن، الابنة، الجدة)، فالشخصيات ليس لديها أسماء، ولكننا نقرأ: الأم، الأب ، الابن الأكبر، الابن الأصغر، والابنة العمياء. إنها رواية تقع أحداثها في مكان ما في ريف الصين قبل اندلاع الثورة، حيث المزارعون الفقراء كانوا لا يزالون يعملون طيلة النهار في الحقول لدفع الضرائب الفادحة ولا يبقى لهم من محاصيلهم إلاّ النزر اليسير الذي يمكنهم الاحتفاظ به.

إنها رواية مؤثرة جدّاً صيغت بأسلوب جزل جذاب وبسيط. الشخصيات اختيرت بطريقة بارزة، وبساطة السرد هي ما جعل الرواية والشخصيات عاطفية جدّاً. والروائية پيرل باك لديها الموهبة لجعل الشخصية تكون وتشعر وتتمثّل بعدة شخصيات صينية بعاداتها وتقاليدها من دون أن تبدو غريبة.

والرواية تجعلك تبكي أحياناً، على سبيل المثال عندما ترى الأم ابنها الأصغر يُعدم ولم يكن بوسعها أن تفعل شيئاً له. وجزء آخر من الرواية أشدّ تأثيراً هو عندما تموت ابنة الأم العمياء التي كانت زوّجتها من مزارع أبله (كونها عمياء) والتي تعرّضت للضرب والإهانة على يد هذا المزارع وأسرته.

الشخصيات الرئيسية هي الأم الصينية وابناها وابنتها والأب وأمه. الأم تعمل في الحقول مع زوجها.. تعمل بكدّ وجدّ..ولكن الزوج كان من النوع الذي يمضي وقته بين المنزل والحقل والنزل حيث يلعب القمار. إنه شاب وسيم يحب أن يرتاد الحانة دون القيام بأي عمل أحياناً.. يرتدي ثياباً نظيفة ولا يعيش حياة المزارعين الصعبة.. تجذبه أضواء المدينة القريبة إلى حدّ كبير. وفي يوم بعد أن حاكت له الأم بذلة جديدة زرقاء اختفى بسرعة

كالبرق ولم يعد إلى القرية مرة ثانية.

عاشت الأم وقتاً عصيباً، حيث عملت على إخفاء حقيقة أن زوجها هجرها.. وكانت تذهب كل عام إلى المدينة وتطلب من كاتب «مجهول» أن يرسل إليها رسالة باسم زوجها على عنوانها في القرية. وهكذا كل عام تصل إلى الأم رسالة من الأب، فتكون رافعة رأسها أمام الجميع: زوجها يراسلها ويبعث إليها بالنقود وسيعود قريباً! لكنّ الحقيقة أن الأب لم يكن يفكر في العودة أبداً.

كانت الأم لا تزال شابة صحيحة الجسم قوية. وفي يوم من الأيام تعرّفت على وكيل مالك الأرض الذي أغواها بالذهب وأقام علاقة معها، ومن هذه العلاقة، في معبد الآلهة، حدث حمل. ولكن حملها هنا كان من الممكن أن يثير فضيحة كبيرة، نظراً إلى أن زوجها كان بعيداً عن المنزل. لهذا قررت أن تسقط حملها سرّاً، وقد أجهضت فعلاً بمساعدة من زوجة ابن العم الطيبة التي كتمت السرّ في قلبها. هذا الإجهاض أصابها بالضعف فلم تعد المرأة التي كانت عليها.

كانت على شجار دائم مع ابنها الأكبر. وبالرغم من أن هذا الابن كان الوحيد الذي يعمل بجهد في الأرض، فإنّ الأم لم تكن مهتمة به ولا توليه العطف الذي كانت توليه لابنها الأصغر. كان الابن الأكبر يقوم بكل الأعمال الشاقة ولا يدع أمه تقوم بأي عمل، ومع ذلك بقيت الأم على حبها لابنها الأصغر لأنه كان يشبه أباه.. وهي كانت لا تزال تحب هذا الأب وتتمنى عودته. والحق أن الابن الأكبر كان صموتاً، ولم تكن الأم تعرف ما يدور في رأسه، حتى أنها اعتقدت أن ليس لديه رغبات أو أمنيات، وأنه كان مجرد مزارع فقط.

من ناحية أخرى، كان الابن الأصغر شاباً وسيماً يعشق ملاذ الحياة تماماً مثل أبيه. وكانت الأم تحمي دائماً هذا الابن من فورات ابنها الأكبر. كان رأي الابن الأكبر أنّ أخاه كسول ونادراً ما يقوم بما يتوجّب عليه من عمل في الحقل. وكثيراً ما كانا يتشاجران، وأحياناً كان الابن الأكبر يرفع يده ليضرب أخاه، فترمي الأم بنفسها عند قدميه طالبة منه أن يترك الصغير وشأنه. ولمّا شعرت الأم بالذنب لهذه المحبة تجاه الابن الأصغر، طلبت من صديقة لها أن تجد لابنها الأكبر زوجة.

وفي يوم، بعد شجار بين ولديها قرّرالابن الأصغر أن يرحل ليعيش في المدينة، وهناك انضمّ إلى مجموعة من الثوار كانت تنظم نفسها في المدن وتزداد قوة. هناك تعلّم القراءة والكتابة وأصبح ناشطاً من نشطاء الثورة. وجاء مساء يوم إلى المنزل سرّاً وطلب من أمه أن تخبئ له صرة. ظنت الأم أنه سارق، أو أنه شارك في نهب المارة، أو أنه طلب إليها إخفاء بعض جلود الغنم كما زعم. والحقيقة أنه عندما أخبرت الأم ابنها الأكبر بما جرى، فتحت الصرة ووجدت فيها الكثير من الكتب.. كتب أظهرت الشيطان ذاته خلال الحرب. ثم وردت الأخبار من الجيران بأنهم رأوا ابنها هذا مقيّداً ومُساقاً مع آخرين إلى ساحة الإعدام.

ظنت الأم أنها إذا رشت الحراس كان باستطاعتها إنقاذه.. ولكن الجريمة نكراء في نظر السلطة..ولم يكن أي مبلغ ينفع في إطلاق سراحه.

شهدت الأم إعدام ابنها الأصغر بعينيها. وبكت.. بكت كثيراً. ولم يجف دمعها إلاّ حين جاء إليها ابنها الأكبر بعد أيام يزفّ إليها بشرى ولادة حفيدها.

1

في مطبخ كوخ سقفه مغطًّى بالتبن، بجوار الموقد الترابي، كانت الأم جالسة على مقعد من الخيزران تغذي بالعشب الفوّهة حيث تتأجّج النار تحت قدر معدنية، وكانت تحرك غصناً مرة أو قبضة من أوراق الشجر مرة أخرى، أو تدفع إلى داخل الموقد بعض الأعشاب اليابسة التي كانت جمعتها في الخريف الفائت من على سفح الجبل. وكانت عجوز اشتعل رأسها شيباً قد زحفت إلى زاوية من زوايا المطبخ، أقرب ما تكون من النار، ولبثت في مكانها متدثّرة برداء أحمر قانٍ سميك فضفاض ذي كمين واسعين. كانت نصف عمياء، فقد أقفل مرض خبيث جفنيها إقفالاً يكاد يكون تاماً، لكنها كانت لا تزال ترى أشياء كثيرة من خلال الفرجتين الصغيرتين. كانت ترقب ارتفاع اللهب الذي يتوهّج تحت أصابع الأم القوية الماهرة، وكانت تقول لها بصفير عذب يخرج من فم أدرد بلا أسنان:

ـ حذارِ، اقتصدي حين تغذين النار، لم يبقَ لدينا سوى حمل واحد ـ أم تُرى هما حملان؟ ـ يقتضي الانتظار طويلاً قبل أن ينبت العشب ويصبح صالحاً للقطع، وها أنا قد رددت إلى أرذل العمر، عاجزة، ولا شك، عن جمع عشبة واحدة، عجوز لا تصلح لشيء البتة، وينبغي لها أن تموت.

كانت تردّد تلك الكلمات الأخيرة مرات عديدة في النهار، وتنتظر في كل مرة جواب كنتها على كلامها:

ـ لا تقولي هذا يا أمنا الكبيرة! ماذا كان يمكن أن نفعل لو لم تكوني هنا لمراقبة الباب حين نكون نحن في الحقول، ولمنع الصغيرين من السقوط في المستنقع.

كانت العجوز تسعل عالياً، وتقول بصوت مخنوق في أثناء نوبة سعالها:

ـ هذا صحيح، إني لا أزال قادرة على هذا، إن من الخير أن يبقى أحد أمام عتبة الباب في هذه الأيام العصيبة، حيث يشاهد اللصوص وقطّاع الطرق في كل مكان، لكنهم إذا ما اقتربوا من دارنا فأي صراخ سأطلق، يا ابنتي! لم تكن الحال في ماضي أيامي على ما هي عليه الآن! إذ كنا نترك المعزق(*) خارجاً طيلة الليلة وكنا نلقاه في مكانه عند الفجر، كما كنا نربط الدابة في حلقة أمام الباب في فصل الصيف وكنا نجدها في صباح الغد في مكانها.

ولم تكن الكنّة، رغم ضحكتها الصغيرة وصرخة التعجُّب اللبقة: «حقاً! أكان الأمر كذلك يا أمي الكبيرة؟» تصغي إلى تلك الثرثرة التي لا تكاد تنتهي. وفيما كان صوت العجوز الصافر يستمر في الكلام، كانت المرأة الشابة تفكر في وقود النار، هل ستدوم حتى آخر الربيع حين ستجد فسحة من الوقت لتأخذ سكينها وتقطع بعض الأغصان من الأشجار وتجمع الأعشاب؟ ومع هذا، فإلى جوار فسحة الدار خلف الباب، بقي كدسان اثنان من القش تحت سقف يقيهما الأمطار والثلوج، لكن ثمنها أعلى من أن يتمكن من حرقه سوى سكان المدن، فستحمله هي أو سيحمله زوجها إلى المدينة على عصا طويلة في حزمة كبيرة، وسيتقاضيان لقاءه المال الحلال، ففي تلك البيوت فقط يمكن إشعال النار بتبن ثمين.

كانت مسترسلة في خواطرها، مستمرة في دفع العشب قليلاً قليلاً إلى الموقد. وكان ظل النار يضيء وجهها العريض الصلب بشفتيه الممتلئتين، بلونه البرونزي من أثر الريح والشمس. وكانت العينان السوداوان تلمعان، عينان صافيتان جداً، مغروستان باستواء تحت الحاجبين. لم يكن ذلك الوجه جميلاً، إلاّ أنه كان يسطع طيبة وشهوة، وكان من ينظر إليه لا يعدم أن يفكر ويقول: «هذه امرأة جامحة، لا بد أن

(*) المِعْزَق: الآلة من حديد ونحوه ممّا يحفر به. وهو المِذراة أيضاً.

تكون زوجة وأماً رؤوماً، ورؤوفاً بالعجوز المسكينة التي تسكن معها».

كانت العجوز لا تكفّ عن الكلام، إذ إنها كانت تقضي نهارها، منذ الصباح حتى المساء، وحدها مع الطفلين، فابنها وكنتها يعملان في الأرض، وعندما يهبط الليل كانت تعتقد أن لديها أشياء كثيرة يجب أن ترويها لكنّتها الودود. وكانت نوبات السعال التي يسببها دخان الموقد تقطع عليها حبل الاسترسال:

ـ أنا أقول على الدوام إن الرجل عندما يكون جائعاً، ولا سيما عندما يكون شاباً متين البنية مثل ابني، فلا شيء يساوي بيضة مع الرز المسلوق.

كان صوتها يرتفع كي يطغى على شكوك الطفلين المتعلّقين على كتفي أمهما المنحنية على النار.

كانت المرأة الشابة، بوجهها الساكن المطمئن، تتابع عملها بهدوء، وكانت تبدو كأنها لا تسمع دمدمة الطفل الصغير وأخته الصغرى، كانت تظنّ أنها قد تأخرت، ففي الربيع ثمة أعمال في الحقول لا تنتهي، كانت تود لو أنها أنهت بذر الخط الأخير من خطوط الفاصولياء. يجب انتهاز الأيام الدافئة والليالي العذبة المرطّبة بالأنداء. ففي تلك الليلة عينها بدأت الحياة تنبجس في قلوب الحبوب اليابسة. كانت الأم تشعر بغبطة عندما تفكّر أنه في الظلام، في أعماق الأرض الدافئة الرطبة، هزة خفية في الحقل بأسره. كان زوجها مستمراً في عمله، وكانت قدماه الحافيتان تنطبعان على تربة خط المحراث. كانت قد تركته عندما ناداها صوت الطفلين، وأسرعت في العودة.

كان صغيراها ينتظرانها عند باب المطبخ. كانا جائعين باكيين. كان الطفل يصرخ دون انقطاع على وتيرة واحدة، جاف الدمع، وكانت البنت تبكي وتعض قبضة يدها. وكانت المرأة العجوز قد حاولت دون جدوى أن تسلّيهما، فتركتهما وشأنهما وجلست تصغي إليهما بأمان. توجهت الأم نحو الفرن بسرعة، دون أن تقول كلمة، وفي طريقها

انحنت لتتناول كومة من وقود، وبدا أن تلك الحركة كفّت الطفلين، فسكت الصبي الصغير ولحق بأمه يجري بكل عزم سنواته الخمس، وكانت أخته، التي لم تسلخ الثالثة من عمرها بعد، تلحق به قدر ما تستطيع.

كان الحساء يغلي في القدر وسحب الأبخرة تحرك الغطاء الخشبي. كانت العجوز تتنشّق بقوة وتمضغ ريقها بفمها الفارغ. وتحت القدر كانت النار تتّقد ويعس دخانها لينتشر في الحجرة الضيقة. وارتدّت الأم لتُبعد البنت، لكن الدخان الكثيف كان قد بلغ الطفلة التي راحت تصرخ وهي تفرك عينيها بقبضتيها المتسختين. ورفعت الأم الطفلة بحركة حازمة وحطتها خارجاً وهي تقول:

ـ ابقي هنا يا ابنتي! إن الدخان يضرّ بك وأنت تعودين وتحشرين رأسك فيه.

كانت المرأة العجوز تعير أذناً كلما تكلّمت كنتها، فكلامها كان يوفّر لها فرصة لتسترسل في موضوع جديد، واستأنفت تقول:

ـ أجل، إني أتصوّر لو أني لم أغذّ النار بالوقود طيلة تلك الأعوام المديدة لكان بصري خيراً مما هو عليه اليوم، الدخان ذهب بنظري، الدخان...

كانت الأم لا تعيرها انتباهاً، كانت لا تسمع إلاّ صراخ الطفلة المستلقية على الأرض، على بطنها، والتي كانت تفرك عينيها وتحاول فتحهما. كانت عيناها منتفختين ومحمرتين دائماً، ومع ذلك فحين كانت الأم تُسأل: «أليست عينا ابنتك مريضتين»؟.. كانت تجيب: ذلك لأنها تصرّ بعناد على أن تقربهما من الدخان الملتهب عندما أوقد النار في الفرن.

ولكن بكاء طفليها ما عاد يقلقها كما في السابق. كانت مشاغلها كثيرة. وكانت الولادات تترى على فترات متقاربة. في البدء كانت لا تحتمل سماع بكاء ابنها البكر، وكان يخيل إليها عندئذ أن الأم يجب أن

تجد دائماً الوقت لتسري عن صغيرها، فكانت تترك أي عمل لتعطيه حلمة الثدي، وكان بعلها يغضب لتقطيعها العمل المتواتر:

ـ هل ستستمرين إذاً في ترك عبء العمل كله على ظهري؟ أنت بدأت الحمل والولادة..وهل يجب عليّ أن أتحمّل رؤيتك، خلال العشرين عاماً القادمة، ترضعين ولداً بعد آخر؟ أنت لست امرأة رجل ثري كي تسمحي لنفسك أن تحملي وأن تضعي وأن تغذي أطفالك فحسب، وهذا كل عملك، وأن تستأجري أجراء!

وأجابته الأم باللهجة عينها، إذ كانا كلاهما شابّين، الغاضبة والمندفعة؛ وصاحت:

ـ أليس لي أن أُثاب على أتعابي؟ هل تعمل أنت حاملاً عبئاً طوال عدة أشهر كما أعمل أنا؟ هل تتحمل أنت مثلي آلام المخاض؟ أنت.. إنك تستريح عندما تعود إلى المنزل، أما أنا فعليّ أن أُحضّر الطعام، أن أعتني بالطفل، أن أتملق امرأة عجوزاً وألاطفها، وأن أهتم بها..

كانا يتشاجران بإباء دون أن يتنازل أحدهما للآخر، كخصمين متساويي البأس، لكن لم تكن الخصومة لتدوم طويلاً، إذ كان ثديا المرأة الشابة يجفان بسرعة، وكانت تحمل بسهولة شأنها شأن حيوان صحيح قوي البنية. ومن جديد جف ثدياها، وأجهضت في الصيف الأخير، بعد أن جرحت بحد المحراث عندما سقطت.. كانت تقول لنفسها: على الولدين الآن أن يتكيّفا وأن يبكيا إذا شاءا، فهي لا تستطيع أن ترجع لإرضاعهما، عليهما أن يصبرا وأن ينظما مواعيد جوعهما حسب رواحها ومجيئها. لكن قلبها كان أرق من كلماتها، وكانت تسرع لتلبي نداء طفليها دائماً.

بعد بضع دقائق على الغليان امتزج الدخان برائحة الرز الشهيّة، فأخذت المرأة الشابة زبدية الجدة وملأتها حتى حافتها، وبعد أن وضعتها على طاولة الحجرة الكبيرة، حيث يعيشون فيها جميعهم، قادت حماتها دون أن تعير ثرثرتها أذناً صاغية: «.. إذا ما مزج الحمص

بالرز فإنه يعطيه مذاقاً فخماً..». جلست المرأة العجوز وأخذت الزبدية بين يديها المثلجتين الجافتين، صامتة، وفجأة راحت تختلج حين أخذ ريقها يسيل من طرفي فمها المتجعّد، وقالت شاكية:

ـ أين هي الملعقة؟.. إني لا أجد ملعقتي!

وضعت الأم ملعقة الصيني في يد العجوز التي كانت تتلمّسها، وخرجت لتحضر زوجين من قصبات الخيزران وزبديتين ملأتهما أيضاً، وحملت الأولى إلى البنت التي كانت لا تزال تبكي وتفرك عينيها وهي جالسة فوق التراب على الأرض. كان وجهها ملطخاً بالطين والدموع. رفعتها أمها، ومسحت وجهها بيدها السمراء الخشنة. وبعد ذلك رفعت حافة سترة الطفلة المرقعة ونظفت لها عينيها بنعومة، إذ كانتا محتقنتين بالدم وشديدتي التأثر، وكانت حافتا الجفنين ناتئتين ملتهبتين، لذلك عندما كانت الصغيرة تدير رأسها وتئن بحركة موجعة كان قلب الأم يتفطّر من الألم. وضعت الزبدية على الطاولة الخشبية أمام المنزل وقالت بصوتها الحادّ الحنون:

ـ تعالي، كلي!

اقتربت البنت بخطوات متردّدة، وأمسكت بالطاولة، ومدّت يدها مطبقة نصفي جفنيها المحفوفين بالاحمرار، لتحميهما من وهج ذهب الغروب. إذ ذاك صاحت الأم:

ـ خذي حذرك.. إنها ساخنة.

تردّدت الطفلة، ثم راحت تنفخ بأنفاس خفيفة على الطعام لتبرده، بينما كانت الأم تنظر إليها بقلق وتقول لنفسها:

ـ عندما سيحمل أبوها آخر حزمة من التبن إلى المدينة، سأطلب إليه أن يعرج على حانوت الصيدلي وأن يشتري مرهماً لتورّم العيون.

كان الصبي الصغير يشتكي، يطلب زبدية لنفسه، ورجعت المرأة الشابة لتحملها إليه. ثم سادت فترة صمت.

كانت الأم تشعر بتعب شديد كما كانت تشعر بالجوع. أطلقت تنهّدة طويلة، وأحضرت منصباً من الخيزران، ووضعته أمام الباب. انطلقت أنفاسها بعمق، وسرحت بكلتا يديها شعرها الخشن الذي لوحته الشمس، وألقت نظرة على ما حولها. كان لون الجبال الوطيئة التي تحيط بأرضهم من كل جانب يستحيل إلى سواد شيئاً فشيئاً تحت سماء صفراء باهتة، وفي الوادي، في القرية الصغيرة، كانت نار العشاء مشتعلة، ودخانها يرتفع ببطء في الجوِ الساكن. كانت الأم تشعر بالرضا، وقد انتابتها خاطرة مباغتة هي أن ليس بين الستة أو السبعة المنازل التي تشتمل القرية عليها منزل يضم أطفالاً أصحاء معنيّ بهم خير من طفليها. هناك بين النساء من هنّ أوفر مالاً، امرأة صاحبة النُّزل، مثلاً، التي تملك ثروة صغيرة، وتضع في إصبعها خاتمين فضيّين وفي أذنيها قرطين شبيهين بالحلى التي كانت الأم تحلم بامتلاكها، عندما كانت فتاة، ولم تملكها قط. ومع ذلك فإن من الأفضل أن يتحوّل المال إلى صحة على الأبناء. فأولاد صاحب النزل يتغذون، حسبما تزعم ألسنة السوء، بفضلات الطعام التي يتركها النزلاء في صحونهم، أما الأم فإنها تقدّم إلى طفليها خير أرز تنتجه أرضهم. وباستثناء مرض عيني الصغيرة، فإن طفليها صحيحا الجسم، جميلان، سويان، وإن بكرها يبدو للرائي أنه في السابعة أو الثامنة من عمره. إن ولديها قويا البنية، ولو لم يولد الأخير قبل أوانه، ولو أنه عاش بعد نفسه الأول، لكان اليوم صغيراً وسيماً يحبو.

تنفست الأم الصعداء من جديد، وبعد، فإن القادم سيولد بعد شهر أو شهرين. أمامها إذاً ما يشغلها. ومع ذلك فإنها كانت سعيدة، أشد السعادة من أي وقت مضى، حين تكون حاملاً تفيض بالحياة..

ومن طرف الزقاق الآخر برز شخص عند عتبة الباب، وميزت الأم في الفرجة المعتمة امرأة ابن عم زوجها فنادتها:

ـ هل تطبخين عشاءك؟ لقد فرغت لتوي من الطبخ.

فأجابتها الأخرى بصوت هاش باش:

ـ هذا شأنك دائماً، سباقة في كل شيء.

احتجت الأم بتواضع:

ـ لا، إنما هما الطفلان اللذان طلبا الطعام، وكانا جائعين.

قالت قريبتها من جديد وهي تدخل منزلها حاملة كومة من العشب بين ذراعيها:

ـ أنت امرأة ماهرة ونشيطة!

لبثت الأم فترة في عتمة الليل. كانت تطوف على وجهها ابتسامة خفيفة. كان لها في الحق أن تشعر باعتزاز، باعتزاز لحيويتها، باعتزاز لولديها، باعتزاز لزوجها! لكنها لم تكن تترك فترة طويلة بسلام. وفجأة مدّ ابنها لها زبديته:

ـ أريد أيضاً! ماما!

فنهضت وسكبت له حصة ثانية، وعندما عادت أمام عتبة الباب، كانت الشمس تهبط بين الهضاب على حافة الحقل حيث عملت هي طوال النهار. وفي العتمة لمحت فجأة زوجها يزرّر سترته، ومعزقه على كتفه، مشمّراً عن ذراعيه، يمشي بخطاه المتئدة النشيطة كقط فتيّ، وبغتة انطلق يغني. كان الغناء عشقه وسروره، وكان له صوت عال، مرتجف، صاف، وكان يجيد العديد من الأغاني، لذلك كان يُطلب إليه في أيام الأعياد أن يغني في بيوت الشاي ليسلي الحضور. وكان الآن يخفض صوته بقدر اقترابه من المنزل.

أسند معزقه إلى الحائط بحركة أيقظت العجوز التي أغفت بعد شبعها، وعادت إلى ثرثرتها حيث تركتها:

ـ لقد قلت دائماً إن ابني يحب بعض حبّات الحمص في أرزّه، وهذا يضفي عليه طعماً لذيذاً.

ضحك الرجل ضحكة خفيفة وهو يدخل المنزل، وقال بصوت مرنٍ مجيباً:

ـ هو كذلك يا أمي العزيزة، بالطبع إني أجد ذلك لذيذاً.

وفي الخارج كانت البنت الصغيرة قد فرغت من طعامها، ومكثت شبِعة لا تتحرك. وبعد أن غابت الشمس، راحت تغامر وتفتح عينيها وتجيل ببصرها بيسر في ما حولها، دون أن تشتكي. عادت الأم من المطبخ حاملة لزوجها زبدية كبيرة زرقاء وبيضاء، ممتلئة حتى الحافة، كانت تحتفظ ببعض الدجاج، وقد مزجت بيضة بالأرزّ الحار وراح البياض يتجمّد. كانت تشعر براحة، رغم مشاجرتهما، ساعة تقدم لزوجها أوفر الغذاء. ثم إن مشاجرتهما لم تكن تتعدّى حدود الشفاه.. وكانت تفكر.. حتى حين يعنفها.. فإنه يسعدها أن تراه يأكل. صاحت لحماتها:

ـ لقد كسرت بيضة طازجة على أرزّ ابنك، وأضفت بعض الملفوف إليه أيضاً.

سمعتها العجوز فراحت تقول:

ـ بالطبع! بيضة طازجة. لقد قلت دائماً إن بيضة طازجة هي خير غذاء للفتى، وإنها تجدّد قواه.

لكن أحداً لم يكن يصغي إليها. كان الزوج الشغيل جائعاً يلتهم طعامه التهاماً، ويطلب حصة ثانية، وهو يضرب زبديته الفارغة على الطاولة كي تسرع امرأته في تلبية طلبه. وملأت المرأة الشابة زبديتها أيضاً، لكنها لم تجلس بجواره إلى الطاولة، وإنما حملت زبديتها إلى الخارج وجلست على منصبها وراحت تأكل ببطء، متلذذة تلذّذ امرئ صحيح. وكانت تنهض من حين إلى حين وتأخذ قليلاً من الملفوف من حصة زوجها وتعود لتتأمل السماء الحمراء القانية فوق الجبال السوداء. كان الطفلان يقتربان ويستندان إلى أمهما التي كانت تفتح فميهما بقصبتي الطعام وتضع بعض الأرز الذي كان يبدو لهما أطيب، رغم شبعهما، من الأرز الذي فرغا من أكله. وكان الكلب الأصفر يقترب أيضاً باطمئنان، فبعد أن ربض فترة تحت مائدة الرجل، متعلّلاً بالأمل، وطرد برفسة رجل،

جاء ليلتقط فتات طعام الأم.

ملأت زبدية زوجها ثلاث مرات. وبعد أن أكل حتى الشبع، وتمتم برضى، صبّت له ماء مغليّاً بدل الأرز، فشربه منتصباً أمام الباب على جرعات صغيرة. عندما فرغ ترك امرأته تأخذ الزبدية الفارغة، ومكث فترة يتأمل القرية والليل. كان القمر في السماء بين النجوم ربيعيّاً رقيقاً شفافاً، فتأمله مليّاً ثم شرع يغني لحناً عذباً حزيناً.

كان يخرج من البيوت القليلة النادرة بعض رجال يتجادلون حول لعبة بدأوها في المنزل، وكان آخرون يتثاءبون أو يقفون فاغري الأفواه أمام عتبات بيوتهم. فجأة قطع المغني الشاب غناءه وألقى نظرة على الزقاق، بينما كان جميع الرجال يستريحون من عناء اليوم بقي رجل واحد مستمراً في عمله، هو ابن عمه. كان جالساً أمام باب منزله مائلاً برأسه يصنع السلال من أغصان الصفصاف. نعم، هناك، أشخاص هكذا.. أما هو.. فلعبة صغيرة.. والتفت ليحدث امرأته، لكنه حين شاهد نظرتها المفعمة بالغضب، شعر أنها حدست رغبته، وراح يلعنها بصمت. إذا ما عمل المرء طوال النهار أليس من حقه أن يلهو قليلاً عندما يأتي المساء؟ هل يجب أن تبلى حياتنا؟ لكن ليس في وسعه تحمّل هذه العين الساخطة، فهزّ كتفيه كما يفعل الصبيان، وتمتم:

ـ بعد يوم كهذا.. هذا حسن، سأخلد إلى النوم، أشعر بتعب شديد يمنعني من الذهاب للعب هذا المساء!

ودخل وارتمى على السرير، وتثاءب، وتمطّى، أمّا أمه العجوز، التي لم تعد ترى في عتمة الغرفة غير المضاءة، فقد صاحت فجأة:

ـ هل ذهب ابني إلى السرير؟

أجابها هو مغضباً:

ـ نعم، يا أمي، وماذا بقي لي أن أفعله في هذه الحفرة القاحلة؟ العمل والنوم، العمل والنوم.

ردّدت العجوز الطيبة بفرح، دون أن تلحظ لهجة ابنها الغضوب:

ـ نعم، نعم، العمل والنوم.

واتّجهت من ثم تتلمّس طريقها إلى مهجعها في زاوية خلف ستار قطني أزرق. كان الرجل قد غط في النوم.

حين سمعت الأم أنفاسه، نهضت وطفلاها متعلقان بسترتها، غسلت الصحون بقليل من الماء البارد، ووضعتها في طاقة داخل الحائط، ثم خرجت ودارت حول المنزل في ضياء القمر الباهت، وألقت دلواً خشبيّاً في بئر قليلة العمق، وملأت الجرة. ثم فكّت حبل الجاموس المربوط إلى صفصافة وقدمت له العلف. وبعد أن فرغ الحيوان من علفه أدخلته المنزل وشدّت حبله إلى ركيزة من ركائز السرير الذي يرقد عليه زوجها. وكانت الدجاجات قد أوت إلى خمها، نقّت قليلاً ثم سكنت.

وللمرة الأخيرة خرجت الأم ونادت، ومن أعماق العتمة أجابتها دمدمة.كان الخنزير قد أُطعم عند الظهر، وذلك يكفيه، فاكتفت المرأة الشابة بأن دفعته إلى الداخل. الكلب الأصفر وحده بات في الخارج، رابضاً عند عتبة الباب.

تبع الطفلان قدر استطاعتهما أمهما التي لم تكن تعبأ بهما، وراحا الآن يتمسكان بها باكيين. انحنت ورفعت الصغيرة وحملتها، وأمسكت بيد الصبي وأرقدتهما على السرير إلى جانب أبيهما. وبهدوء نزعت عنهما ثيابهما، واستلقت بينهما وبين زوجها، وغطتهم جميعاً باللحاف. ثم سكنت وسكن جسمها القوي المتعب. كانت مضطجعة في الظلام ولم تكن سوى قطعة حنان. رغم نفاد صبرها ونزوات غضبها القصيرة في أثناء النهار، فإن طيبتها وحدها تبقى حين يأتي الليل. فحنانها الثائر نحو الرجل، حين يلتفت إليها بشهوته، وحنانها نحو طفليها المستسلمين للرقاد، وحنانها نحو المرأة العجوز، فهي لا تتردد في أن تنهض في الليل حين تسمع سعالها لتحضر لها قليلاً من الماء، وحنانها نحو البهائم المضطربة المذعورة من حركاتها نفسها حين

تُهدّئ من روعها وتقول لها بصوتها الحنون:

ـ الزمي الهدوء، فالنهار لا يزال بعيداً.

وفي عتمة الليل يهجم الصبي الصغير على حضنها باحثاً عن ثديها رغم جفافه، وتحول بينه وبين الرضاعة، فريسة نعاس دافئ. وتلك العذوبة تذكر بعزاء قديم. لكن الحليب سيدرّ من جديد بعد فترة من الزمن. كانت البنت الصغيرة إلى جانب أخيها تفرك جفنيها دون انقطاع، بل حتى حين ران النوم عليها راحت قبضتها تضغط على عينيها بلا وعي.

وسرعان ما غرق الجميع في سبات عميق، لا يعكره حتى نباح الكلب، فهذا متصل بأصوات الليل والنوم. والأم وحدها تتنبّه، لتصغي، ثم لا تجد ضرورة للقلق، فتعود إلى النوم من جديد.

2

ألا تتشابه الأيام طرًا تحت السماء بالنسبة إلى الأم؟ إنها تستيقظ في الصباح قبل الفجر بينما يستمر الباقون غارقين في النوم. تفتح الباب للدواجن والخنزير، وتقود الثور إلى الباحة أمام المنزل، وتكنس الأقذار التي خلّفها الليل وتلقي بها إلى الخارج في زاوية، ثم توقد النار لتسخّن الماء الذي سيشربه زوجها وحماتها عندما ينهضان، وتبرّد قليلاً منه لتغسل عيني الطفلة الصغيرة، ففي كل صباح، تنهض البنت وأجفانها ملتصقة ببعضها، لا تنفتح قبل أن تُغسل بالماء الفاتر. كانت الأم في البدء تشاطر طفلتها الخوف، غير أن الجدة كانت تردد بصوتها الحاد:

ـ كانت عيناي كعينيها عندما كنت في سنّها، ولم أمت من جراء ذلك!

واعتادت الأم على هذا الأمر، إذ إن أمراً يحدث للأطفال ولا يميتهم لا معنى له ولا خطر منه!

وما كادت الأم تصب الماء حتى ظهر الطفلان. كان الصبي الصغير

يمسك يد أخته، تركا السرير بهدوء وخفة خشية أن يوقظا أبيهما، وخوفاً من غضبه، إذ إنه رغم تدليله إياهما حين يكون منشرحاً فإنه يغضب ويضرب حين يقطع عليه نومه. وقف الصغيران أمام المدخل لا يقولان كلمة. كان الصغير يغمز بعينيه الناعستين وينظر إلى أمه متثائباً؛ لكن البنت كانت صابرة، تنتظر مطبقة العينين.

اقتربت الأم بسرعة وتناولت خرقة رمادية معلقة على وتد خشبي في الحائط وبلت طرفها وراحت تمسح العينين المريضتين بهدوء. كانت الطفلة تئن وتتوجع بلا صوت. وكانت تتحمّل عذابها بصمت.

وكانت الأم تقول لنفسها، كعادتها في كل صباح:

ـ يجب أن أهتم .بذلك المرهم في يوم أو في آخر. إذا ما تذكرت، فإنه حين سيبيع حزمة تبن الأرز القادمة فسأطلب إليه أن يذهب إلى حانوت الصيدلي.. هناك صيدلية بجوار باب المدينة، إلى اليمين في آخر زقاق صغير.

بينما كانت تفكّر في هذا،برز زوجها أمامها في ثياب النوم الضيقة، يتثاءب طويلاً ويحك رأسه.

وتابعت هي تفكيرها بصوت عال:

ـ عندما ستبيع تبن الأرز الذي بقي لدينا، عرّج على الحانوت جانب باب الماء واشترِ مرهماً أو عقاراً لوجع العينين.

كان الرجل لا يزال نصف نائم فأجاب بحدّة:

ـ لماذا ندفع مالنا من أجل مرض لن يقضي عليها؟ كنت مصاباً بالمرض نفسه عندما كنت صغيراً، ولم يدفع أبي شيئاً ليصرفه عني، أنا ابنه الوحيد، الحيّ.

أدركت الأم أن الوقت غير مناسب للنقاش. صبت الماء في زبدية الرجل، ولمّا كانت مغتاظة بدورها، فإنها اكتفت بأن وضعتها على الطاولة بدلاً من أن تقدمها إليه، وهذا ما يكلفه الذهاب لأخذها. وإلى

ذلك، فإنها لم تبد أي ملاحظة، وطرحت هذا الموضوع من فكرها. إن كثيراً من الأولاد يصابون بالرمد ثم يشفون منه مع الزمن. تلك حال زوجها، إذ يمكن مشاهدة آثار هذا المرض حتى الآن في جفنيه حين يُنظر إليه وجهاً لوجه، وهذا لا يمنعه أبداً من أن يرى، إذا لم تكن الأشياء دقيقة جداً. إن الأمر لأقل أهمية بالنسبة إليه منه بالنسبة إلى عالِم مضطر إلى أن يربح حياته وهو عاكف على قراءة الكتب.

وتحركت الجدة ونادت بصوت خفيض. وحملت كنتها إليها الماء الساخن وسقتها قبل أن تنهض من فراشها. كانت العجوز تشرب بجلبة وتتجشأ لتطرد الرياح النتنة من جوفها الفارغ، وتشتكي من عمرها المديد الذي جعلها تنهض ضعيفة عند الصباح.

وعادت الأم إلى المطبخ لتجهز الفطور. كان الطفلان ينتظران جالسين متلاصقين على الأرض في رطوبة الصباح. قام الصبي الصغير بعد لحظات ولحق بأمه التي كانت توقد النار، بينما ظلت البنت في مكانها على مسافة منها.

فجأة أشرقت الشمس فوق الجبل في الشرق، وانتشرت أشعتها المنيرة في كل مكان، وسفعت عيني الطفلة وأجبرتها على أن تغمضهما سريعاً. كانت فيما مضى تبكي، أما الآن فهي تكتفي باستنشاق الهواء بقوة ملء رئتيها، مثلها مثل شخص راشد، وتظل ساكنة لا تتحرك، تصرّ على جفنيها الحمراوين، وكانت لا تتحرك إلاّ حين تشعر أن أمها قد أحضرت لها زبدية الطعام.

* * *

الواقع أن جميع الأيام تتشابه بالنسبة إلى الأم، غير أنها لا تشعر بأي سأم، وهي راضية بتداولها. ولو أن أحداً سألها عن هذا الموضوع لفتحت عينيها السوداوين الثاقبتين على مدى اتساعهما وأجابت:

ـ لكن المشهد يتغير من البذار إلى الحصاد. ثم يأتي وقت الجني في

حقولنا، وتسويد الأراضي التي نستأجرها من المالك بحصة من غلة الحبوب، وعطلات الأعياد، ورأس السنة، الأولاد أنفسهم يتحوّلون ويكبرون، ويولد أطفال جدد. إني لا أرى إلاّ تغيّرات، أؤكد لكم، وإنها تضطرني إلى العمل منذ الفجر إلى الغسق!

كانت تزجّي أوقات فراغها النادرة مع نساء القرية، فهذه على وشك الولادة، وتلك تبكي ابناً قضى.. أو حين يتعلّق الأمر بتعلّم طريقة جديدة لرسم زهرة على حذاء أو تفصيل سترة. وفي بعض الأيام يذهب الزوجان إلى المدينة لبيع الحبوب أو الملفوف، وكانا يشاهدان من العجائب ما يدعو إلى طول التأمل والتفكير حين يكون لدى المرء وقت للمشاهدة.

لكن الأم كانت من اللواتي يكفيهنّ أن يعشن إلى جانب أزواجهن وأولادهن، وأن لا يفكرن في شيء آخر.

بالنسبة إليها، يكفي أن تجيد إثارة شهوة زوجها وأن تسعده، أن تحمل منه، أن تشعر في داخلها نمو تلك الحياة الجديدة، أن تُخرج الوليد الحديث إلى النور، وأن يمتص بشفتيه من حليب ثديها، فهذه الأشياء تكفيها.

يكفيها أن تنهض عند الفجر، أن تطبخ لأهل البيت، أن تعتني بالبهائم، أن تزرع الأرض، أن تحصد الثمر، أن تمنح الماء للشرب، أن تحمل طوال أيام بكاملها، والشمس تسفعها والريح تلفحها، الأعشاب البرية من الجبال، فهذه الأشياء تكفيها.

كانت راضية بحياتها: تلد، تعمل في الأرض، تأكل وتشرب وتنام، تكنس منزلها وتضفي عليه بعض الترتيب، تسمع النساء الأخريات يمتدحنها لتفانيها في العمل ومهارتها في الخياطة، بل إنّ خصامها مع زوجها كان يعزز حبهما. ولذلك كانت تنهض في كل صباح نشيطة.

في ذلك اليوم، أطلق الرجل تنهّدة، بعد أن تناول طعامه حمل معزقه واتجه صوب الحقول بخطى مترددة، كعادته دائماً عندما يتجه في ذلك

الاتجاه. غسلت امرأته الزباديّ، أجلست حماتها بمواجهة نور الشمس، أوصت طفليها أن يلعبا قريباً من جدتهما وألا يبتعدا ويدنوا من المستنقع، وذهبت بدورها بعد أن حملت معزقها، وتوقفت مرة أو مرتين لتلقي نظرة إلى الوراء. ابتسمت عندما وصلها صوت العجوز ضعيفاً يحمله النسيم إليها.

مراقبة الباب هو عمل الجدة الوحيد الذي يمكنها أن تقوم به، وكانت تبدو فخورة بهذا العمل. كانت قد بلغت من الكبر عتيّاً، عشواء، كان في وسعها أن تلمح من يقترب، وأن تعرف إن كان عليها أن تصرخ مستنجدة أم لا. لقد أمست مسئمة مع الأيام، وغير محتمَلة في معالجتها، وأكثر شراً من الأولاد العنيدين إذ لم يكن ممكناً تقويم اعوجاجها، ومع هذا، ففي يوم حين أفضت ابنة العم بملاحظتها قائلة:

ـ إنه لشيء حسن بالنسبة إليك إذا ما قضت الجدة نحبها، فقد شاخت كثيراً، وفقدت بصرها، وهي كثيرة التشكّي آلاماً وبؤساً، وصعبة متطلبات الغذاء.

أجابتها الأم بعذوبة طليّة، وشفقة خفية:

ـ نعم، لكنها تقدم لنا أجلَّ الخدمات. إنها تراقب الباب، وأتمنى أن تعيش حتى تكبر البنت الصغيرة.

لم تستطع المرأة الشابة أن تبدي قسوة قط تجاه العجوز المسكينة. ثمة كنائن أخريات يتبجّحن أمامها بأنهن يشنن حرباً لا هوادة فيها على حمواتهنّ بسبب خصالهن الشريرة. إلاّ أن الأم كانت تعتبر حماتها كابنة لها تشتهي مرة هذا ومرة ذاك بطريقة طفوليّة. نعم، إن الحال مسئم أحياناً أن تقطع الجبل طولاً وعرضاً بحثاً عن عشب خاص لإرضاء رغبة عجوز خرفة، ورغم ذلك فإن الكنة ابتهجت، بعد وباء وبيل أودى برجلين شديدين، ونساء، وكثير من الأولاد في القرية، حين شاهدت الحياة تعود إلى الجدة المحتضرة. عادت العجوز من بعيد جداً، إذ إن أهلها كانوا قد ابتاعوا لها خير تابوت ممكن ووضعوه إلى جانبها. بيد

أن مقاومتها للموت كانت عنيدة، إلى حد أنها أبلت ثوبين اثنين كانا قد خُصِّصا لدفنها بهما. كانت الأم سعيدة بذلك، وكانت تلك الحياة الطويلة التي لا تريد لها أن تنتهي موضوع نوادر وتنكيت في القرية.

وحسب تقاليد القرية كان على الجدة أن ترتدي تحت سترتها الزرقاء قميصاً أحمر خاطته كنتها لها لتُوارى فيه، لكن العجوز تمكنت من بلي القميص الأول وردّته خرقاً ممزقة، وراحت تشتكي إلى الأم كي تحصل على قميص جديد لتدفن فيه. ولما ظفرت به ارتدته بسرور. وعندما كان يوجه إليها السؤال التالي:

ـ ألا تزالين في هذا العالم أيتها العجوز الطيبة؟

فإنها كانت تجيب بصوتها الضعيف الصافر الشبيه بصوت الزمارة:

ـ نعم، إني أرتدي أجمل ثياب الدفن وإني أُبليها، ومن يدري كم من ثياب أخرى سأبلي أيضاً!

وكانت تضحك ضحكاً خفيضاً لمشاهدتها مهزلة امتداد عمرها طويلاً، دون أن تتمكن من أن تموت.

في ذلك اليوم ابتسمت الأم وهي تلتفت إلى الوراء حين وصلها صوت (ابنتها الكبيرة) يقول:

ـ ليطمئن بالك، يا ابنتي الطيبة، إني هنا، ساهرة، أمام المدخل.

نعم، ستفتقد الأم هذه المخلوقة المسكينة إذا ما قضت نحبها. لكن الندامة لا جدوى فيها، فالحياة تجيء وتولي في الساعة المقضيّة، ونحن لا نستطيع مرداً لهذا القضاء. لذلك كانت الأم تتابع طريقها، مطمئنة البال.

3

عندما أزهرت الفاصولياء التي كانت زرعتها في الحقل وراحت تعطر الهواء، وعندما صار الوادي أصفر من السلجم الذي يستخرج

الزيت من بذره، ولدت الأم ولادتها الرابعة.

لم يكن في القرية قابلة، كما هو الحال في المدينة أو في القرى الأكثر أهمية، لذلك كانت الأمهات يتعاونَّ فيما بينهن حين تحين ساعة مخاضهن. ثم إن الجدات كنّ يقدّمن النصائح إذا ما تعسرت الأمور، أو لم تسر سيرها الطبيعي، حين ينقلب الطفل في بطن أمه مثلاً، أو حين تكون الأم الشابة جاهلة بعض التفاصيل.

لكنّ الأم كانت حسنة التركيب، لم تكن قصيرة ولا نحيلة. وكان عصب ساقيها مرناً، لذلك جرى كل شيء بصورة عادية دائماً، بل حتى بعد سقطتها، عندما ولد الطفل مبكراً، لم تواجه صعوبات تذكر. وكاد الأمر يمرّ بلا أثر لولا الأسف على فقدان ولد، وكل تلك الجهود الضائعة.

كانت الأم تنادي في اللحظة الحاسمة ابنة عمها التي هي أيضاً تطلب إليها الخدمة ذاتها. لذلك حين شعرت بأن ساعة الولادة قد حانت، في ذلك اليوم الربيعي العذب، رجعت عبر الحقول، وأسندت معزقها إلى الحائط، وأطلقت نداء إلى المنزل المواجه.

أقبلت ابنة العم تجري، ماسحة يديها بمئزرها، إذ كانت تغسل على ضفة المستنقع الصغير. كانت امرأة ودوداً طيبة بوجه مستدير أسمر ومنخرين أسودين يعلوان فماً عريضاً أحمر. كانت صاخبة وضاجّة لا تكف عن الكلام طوال النهار إلى جانب زوج صموت. أقبلت ضاحكة بصخب وهي تقول:

ـ ماذا يا معلمة؟ إنه لشيء رائع ألاّ يأتينا المخاض معاً في الوقت عينه أنت وأنا. كنت أنظر إليك وأتساءل أينا ستبدأ أولاً. لكنني متأخرة أكثر مما ينبغي في هذا العام، أنت تلدين، وأنا لا أزال..

كان الخبر يشيع في القرية، وكان النسوة يتخاطبن أمام الأبواب:

ـ إنها ساعتك يا معلمة! حظاً سعيداً! صبياً!

وصاحت إحداهن ـ وكانت أرملة ـ بصوت حزين:

ـ آه! استثمري زوجك غاية ما تستطيعين ما دام إلى جانبك. أنت ترين أني مكوّنة لألد أنا أيضاً، ولكن أنا بلا رجل.

لكن الأم لم تجب، وإنما ارتسمت ابتسامة باهتة على وجهها المغبر الناضح بالعرق. ودخلت بيتها. كانت العجوز تتبعها، تثرثر وتضحك فرحة بالحدث، وتردد:

ـ إني قلت دائماً، حين كانت الساعة تحين.. وأنت تعلمين يا ابنتي أني أنجبت تسعة أولاد، كلهم سالمون أصحاء، طيلة حياتهم.. وإني قلت دائماً..

بدت الأم لا تسمع. أخذت منصباً صغيراً وجلست عليه بسكوت وهي ترفع عن جبينها خصلة بيد مبلّلة بعرق ليس هو عرق الحقول إنما هو عرق عذاب جديد. مسحت وجهها بطرف سترتها، وأرخت شعرها الطويل الكث ورفعته. ثم عضها ألم عنيف، فانحنت دون أن تقول كلمة، وانتظرت.

وإلى جوارها كانت المرأة العجوز تثرثر، وكانت ابنة العم تمازحها. لكنها عندما رأت الأم تنحني، أسرعت إلى الباب فغلقته، ولبثت واقفة، مستعدة. وفجأة جاء من يضرب الباب. إنه الصبي الصغير، إذ إنه حين شاهد الباب مغلقاً في وضح النهار، ووراءه أمه، انتابه الخوف، وراح يصرخ كي يفتح له. وشرعت الأم تقول:

ـ فليبقَ هناك، أريد سلاماً في أثناء عملي.

وصاحت ابنة العم من وراء الباب:

ـ ابق حيث أنت، فترة، إن أمك مشغولة.

ورددت العجوز كالصدى:

ـ ابق حيث أنت، يا صغيري، وسأعطيك قرشين لتشتري فستقاً. سترى ماذا ستأتي به أمك إليك بعد لحظة.

لكن الصبي المذعور راح يلح بعناد. وجاءت البنت الصغيرة تسعى باكية، كعادتها دائماً، مقلدة أخاها، حبت حتى الباب وراحت تضربه بقبضتيها الصغيرتين.

بعد دقائق، انتاب الأم الغضب جراء أوجاعها التي راحت تزداد عنفاً، فنهضت وهبت إلى الخارج وهجمت على الطفل وراحت تسوطه بشدة وتصيح:

ـ نعم، أنت تفني حياتي، إنك لا تطيع أبداً.. وهذا هو طفل آخر مثلك في الباب، شبيه بك كل الشبه، في وسعي أن أقسم بذلك!

وبعد لحظة، شملها الحنان، وانفثأ غضبها، وقالت بعذوبة:

ـ ليكن! ادخل بما أنك تريد أن تدخل. ثم إنك لن تشاهد أي شيء.

والتفتت إلى ابنة عمها قائلة:

ـ اتركي الباب مفتوحاً، إنهما يشعران بوحشة وهما بعيدان عني، إنهما لم يعتادا ذلك.

ثم عادت إلى الجلوس، ورأسها بين يديها، تتألم بصمت.

أما الصغير فقد دخل ولم يلحظ شيئاً، سوى النظرة القاسية التي توجهها ابنة عم أبيه إليه، كأنه قد اقترف ذنباً، فخرج.

لكن الصغيرة دخلت وجلست على الأرض قرب أمها، وقبضتها فوق عينها. وامتد الانتظار وطال. كانت إحدى النساء الثلاث صامتة نهبة العذاب، أما المرأتان الأخريان فكانتا ترويان أخبار القرية، وتقصان كيف أن الرجل الذي يسكن آخر بيت يقضي بعد ظهر يومه في اللعب والميسر، ويهمل عمل حقله. وكان في ذلك الصباح قد تشاجر مع زوجته مشاجرة رهيبة، لأنه استنفد كل ما تبقى له من مال. وخرجت امرأته المسكينة وجلست أمام عتبة الباب الخارجي وراحت تصرخ وتئن وتشكو مصائبها لكل غاد ورائح، وأضافت ابنة العم:

ـ لو أنه كان يربح في المقامرة من تارة إلى أخرى ويجلب معه أحياناً

شيئاً إلى البيت. لكنه يخسر دائماً، وهذا محزن.

تنهّدت العجوز وبصقت على الأرض، وقالت:

ـ آه! يا لشقاء رجل خُلق ليخسر لا ليربح. هناك أشخاص من هذا النمط. إني أعرف ذلك. وإني أحمد الآلهة أن ابني سعيد الحظ في اللعب ويربح.

بينما كانت المرأتان تتكلمان، أطلقت الأم صرخة، وأدارت ظهرها لابنتها الصغيرة، وحلّت حزامها، وانحنت إلى الأمام على المنصب، فهرعت ابنة العم وبحركة ماهرة أمسكت بكلتا يديها ذلك المولود الصغير الذي كنّ يرتقّبنه ثلاثتهن.. وكان صبياً.

اضطجعت الأم على السرير واستراحت من مهمّتها. كانت تبدو لها تلك الراحة طيبة عذبة. وغرقت في نوم عميق.

أمّا ابنة العم فغسلت الوليد وقمّطته وأرقدته إلى جانب أمه التي لم يوقظها حتى بكاؤه الحاد. وعادت النسيبة إلى بيتها، لإنجاز أعمالها، بعد أن أوصت المرأة العجوز أن ترسل إليها الصبي الصغير حين تستيقظ الأم.

حين جاء الصبي الصغير إليها وسألها:

ـ هل تعلمين بأن لدي الآن أخاً صغيراً؟

نهضت ابنة العم مسرعة وحملت زبدية حساء وراحت تمازح الطفل وتقول:

ـ طبعاً إني أعرف، بما أني أنا التي جئت به!

فكر الطفل فترة ثم سأل بعد لأي:

ـ لكن أليس هو برمّته لنا إذاً؟

وانفجرت النساء بالضحك، ولا سيما الجدة المفتونة بذكاء حفيدها الصغير.

جرعت الأم الحساء شاكرة لابنة العم حسن صنيعها:

ـ أنت كريمة يا أختاه!

فأجابتها ابنة العم:

ـ لكن، ألا تصنعين معي الشيء عينه؟

وكانت صداقة المرأتين تتوطّد في تلك اللحظات التي تجتازانها، المتماثلة لكليهما، والتي ستتجدد في مرات متكررة.

4

لكن كان هناك الرجل.. الرجل الذي لا يتغيّر شيء في عينيه، حتى مع مرور الزمن، لا يتغير شيء أبداً. إن ولادة أولاده، الحانية زوجته عليهم، لا يمثلون حدثاً جديداً، إذ إنهم يولدون بطريقة متماثلة، وإنهم يشبهون بعضهم بعضاً. يجب أن يوفر لهم الكساء والغذاء، وعندما يكبرون يجب تزويجهم، ثم يولد أطفال آخرون. ستكون الأمور دائماً على وتيرة واحدة، وإن اليوم لأشبه بالغد، وليس من أمل في أي تغيير.

لقد ولد في هذه القرية، وباستثناء روحاته القصيرة إلى المدينة، وإلى ضفة النهر، وإلى الطرف الآخر من الجبل، فإنه لم يقع له أي حادث طوال حياته. فحين يستيقظ في الصباح، إنها الجبال الواطئة نفسها التي تظهر أمام عينيه في سماء متساوية الشكل، ويعمل النهار بطوله، وعند عودته في المساء فإن تلك الجبال نفسها لا تزال منتصبة هناك في السماء. ويدخل البيت الذي ولد فيه، وينام في السرير الذي كان يرقد عليه حين كان طفلاً بجانب والديه، إلى أن خصص له فراش حقير في زاوية، تنام عليه أمه اليوم، بينما أخذ هو السرير من جديد مع زوجته وأولاده. وفي داخل البيت لم يتغير شيء أيضاً، فقد أضيفت بعض أغراض اشتُريت خلال الزواج: إبريق شاي، شمعدان، غطاء السرير الأزرق، وإلّه جديد من ورق علق على الحائط. إنه إلّه الثراء، وقد رسم

على شكل رجل باسم يرتدي ثياباً حمراء وزرقاء وصفراء، إلاّ أنه لم يجلب لهم مالاً قط. وغالباً ما كان الزوج الشاب يلعن في سره هذا الإله الذي يستمر في النظر ببهجة من عليائه إلى الحجرة الحقيرة التي بقيت على البؤس الذي كانت عليه فيما مضى.

أحياناً، كان الرجل يذهب إلى المدينة، في يوم عيد، أو كان يذهب إلى النزل في يوم مطير ليلعب ويقامر مع بعض الأشخاص المتعطّلين، لكنه حين كان يعود إلى المنزل، ويواجه تلك المرأة التي تلد أولاداً يجب عليه أن يغذيهم من عمله، ينتابه الفزع لفكرة أنه لن يحدث له جديد ما دام حيّاً! أن يستيقظ عند الصباح، أن يذهب إلى تلك الحقول التي في أغلبها ملك ملاّك بعيد يتمتع بحياة المدينة، وبعد أن يمضي نهاره على تلك الأراضي المستأجرة، حاله كحال أبيه من قبله، يرجع إلى البيت ليأكل ذلك الطعام الخشن، دون أن يجرؤ على مس خير المحاصيل المخصصة للبيع لأشخاص أوفر منه مالاً، ثم ينام ليعيد الكرة في الغد من جديد. إن محاصيله لا يملكها كلّها، ينبغي اقتطاع قسم للملاّك وقسم آخر للوكيل. إن التفكير في الوكيل أمر لا يحتمله الشاب، إذ إنه يمثل ساكن المدينة الذي كان يود لو كان هو مثله: الذي يرتدي الحرير الناعم، رخو الجلد، أملس البشرة، أشقر الشعر مع شيء زيتي خاص بسكان المدن، الذين يعملون أعمالاً خفيفة ويتغذون أجود الغذاء.

ففي الأيام التي تتنازعه تلك الخواطر يبدو سيئ المزاج، ولا يخاطب زوجته إلاّ ليبدي لها استياءه على تأخر شيء ما. وكانت هي تغضب بسرعة، وكان هو يشعر بلذة غريبة وخبيثة حينما ينفجر شجار عنيف بينهما. إن هذا ينفس عنه، مع أنها تتغلب عليه بصورة عامة - إلاّ إذا صب على طفل جام غضبه - إذ كانت أشد منه عناداً.

لم يكن يملك إصرارها حتى في الحقد. كان يتعب ويصرف همه إلى شيء آخر، لكنه حين يضرب أحد الأطفال، أو حين يغضب من بكاء أحدهم، فإنها عند ذلك تبلغ ذروة حدتها. إنها لا تستطيع أن تتحمل هذا

فتنتصب ساخطة ضده لتحمي الطفل الذي تعطيه الحق دائماً. ولا شيء يغضب الأب إلاّ حين يجد نفسه قد أُعيد إلى الصف الثاني أو حين يتصوّر أنه قد أُعيد.

في تلك الحالة النفسية لا يحسب حساب العطلات القصيرة التي يمنحها لنفسه، ولا الأعياد ولا أيام الشتاء الطويلة التي لا يعرف خلالها سوى النوم واللعب والمقامرة. كان الحظ يواتيه في اللعب، وكان يربح أكثر مما يخسر. كان ذلك طريقة سهلة للعيش لو أنه كان يعيش وحده، ولو أنه كان لا يفكر إلاّ بذاته. كان يحب مصادفات اللعب، والإثارة، والبهجة. وكان يرضيه أن يرى الرجال يتجمعون خلفه ليعجبوا من سخطه. حقاً، كان الحظ يجري من بين أصابعه الماهرة التي لم يخشوشنها المحراث ولا المعزق، إذ كان لا يزال شاباً في سن الثامنة والعشرين، وهو لم يشتغل أكثر مما يتوجّب قط.

كانت الأم تجهل ما يعتمل في روح والد أولادها. كانت تعرف أنه يهوى اللعب، لكن أين هو الضرر، بما أنه لا يخسر؟ كانت فخورة في الحق، عندما كانت تسمع النساء الأخريات يشتكين من أن أزواجهن يبددون اقتصاد العمل الهزيل في الأرض على مائدة النزل. أما هي فلم يكن لها أن تشكو مثلهن، وكانت تبتسم بعطف عندما تقول إحدى الجارات لها:

ـ لو أن بائسي المسكين كان يشبه زوجك سعيد الحظ الذي يجذب كل مال مائدة اللعب بيديه الساحرتين! أنت موفورة الحظ يا معلمة!

لذلك ما كانت تلوم الرجل لأنه كان يلعب، إلاّ في حالة شجار، فإنها كانت تتخذ ذلك سبباً للمعاتبة.

وكانت لا تلومه لكونه أقل منها مثابرة على أعمال الحقول، فهي كانت تعرف جيداً، حتى حين كانت تقسو عليه، أن الرجال لا يستطيعون أبداً أن يشتغلوا قدر النساء، وأنهم يحافظون طيلة حياتهم على قلوب الأطفال. لذلك اعتادت هي أن تستمر في العمل بينما يطرح

هو معزقه أرضاً ويستلقي على العشب الذي يفصل بين حقلين لينام ساعة أو ساعتين. وحين كانت تعاتبه معاتبة سطحية، إذ كانت في قرارة نفسها تحبه حباً جماً، كان يجيب:

ـ نعم إن لي الحق في أن أنام فقد عملت ما يكفي لقوتي.

على هذا كان في وسعها أن ترد:

ـ لكن أليس لدينا أولاد؟ أليس من واجب كل واحد منا أن يبذل ما يستطيع من أجلهم؟

لكن الأولاد يبدون في واقع الحال وكأنهم لها وحدها. أما هو فكان لا يهتم بهم أبداً. لذلك لزمت هي الصمت.

كان الغضب يتلبّسها إلى حد لا يمكن أن تعبّر عنه بمهاترات عادية. لمرة أو مرتين في الفصل تؤدي المشاجرات بينهما إلى ألفاظ مرة بصورة غير طبيعية، ذلك حين يحدث أن يشتري الرجل ترهات سخيفة بقيمة الملفوف الذي باعه في السوق، أو حين يسكر في يوم عادي من أيام الأسبوع، فإنها كانت تحتد إلى درجة تنسى معها حبها له تقريباً. كان غضبها يضرب جذوره في أعماقها ويتفاعل بصمت ولا ينفجر إلاّ بعد بضع ساعات حين يكون الرجل قد نسي فعلته، لكنها لم تكن تستطيع أن تضبط أعصابها إذا ما أخذتها سورة غضب. يجب أن تنفجر.

وفي يوم من أيام الخريف عاد الزوج إلى المنزل وفي أصبعه خاتم، زعم أنه من ذهب. وعندما رأته امرأته خرجت عن طورها وصرخت بصوت مضطرب حاد:

ـ أنت ترفض أن تساهم بنصيبك في مرارة حياتنا المشتركة! يجب أن تذهب وتصرف مالنا القليل لتضع خاتماً حقيراً في أصبعك! هل سبق لك أن سمعت أن رجلاً شريفاً وفقيراً يضع خاتماً؟ يستطيع غني أن يسمح لنفسه بذلك دون أن يثير الانتقاد، أمّا إذا كان فقيراً فالأمر لا يناسبه البتة. من ذهب! هل يمكن شراء خاتم من ذهب ببعض نقود نحاسية؟

وكأنه طفل ثائر صاح هو بدوره:

ـ إني أقول لك إنه من ذهب! لقد سُرق الخاتم من منزل رجل غني. الرجل الذي باعني إياه أخبرني بذلك، إنه كان يخبّئه تحت سترته، وأرانيه خفية، عندما كنت أمرّ في الزقاق أراني إياه.

لكنها سخرت منه قائلة:

ـ نعم، رأى قروياً أحمق يسهل خداعه والضحك عليه. ثم إذا كان الخاتم من ذهب، فماذا يحدث إذا أنت وضعته في أصبعك في المدينة؟ سيلقى القبض عليك، سيلقى بك في السجن كسارق. وماذا نصنع نحن كي ننقذك، بل كيف نرسل إليك طعاماً في أثناء توقيفك؟ أرني هذا الخاتم كي أرى إن كان حقّاً من الذهب.

ورفض أن يريها إياه، وهزّ كتفيه حَرِداً بحركات صبيانية. وفجأة أثار حفيظتها، فهجمت عليه وخدشت وجهه الجميل بأظفارها، وراحت تهيل الصفعات عليه بقوة جعلته، مذهولاً، يمد يده لها بالخاتم وهو يقول بمزيج من احتقار وخوف:

ـ خذيه. إني أعرف جيداً أنك غضبى لأني اشتريته بحجم أصبعي ولم أشتره لأصبعك.

أثارتها هذه الكلمات بصورة أشد، إذ إنها أدركت أن ما قاله هو الحق. كان في وسعها أن تخفي شعورها إلاّ أنها كانت تتألم في سرّها، لأنه لم يقدم إليها قط حلية من تلك الحلي التي يقدمها بعض الرجال إلى نسائهم، والتي تشاهد في أذني بعض النساء أو في أصابعهن. ولهذا اهتاجت لمشهد الخاتم الذهبي، وكانت تثبت نظرها على الرجل الذي كان يقول بصوت مثير كسير، راثياً نفسه وشاكياً قساوة قضائه:

ـ إنك تنكرين عليّ أصغر المسرّات. إن كل مالنا يجب أن يصرف على الأولاد الذين تلدينهم أنت!

وراح يذرف دموعاً ثرّة حقيقية، ثم ارتمى على السرير وراح ينتحب

عالياً كي تسمعه.

كانت العجوز حاضرة وشاهدت هذا الفصل فانتابها الذعر، وأسرعت قدر استطاعتها وذهبت إلى ابنها وراحت تطيّب خاطره، ولخشيتها من أن تراه مريضاً راحت توجّه نظرات مشحونة بالسخط إلى كنتها التي كانت تودها في العادة.

وراح الأولاد يبكون لبكاء أبيهم، وهم يشعرون بأن أمهم قاسية صلبة.

لم يكن روع المرأة الشابة قد سكن بعد، فالتقطت الخاتم من التراب، حيث كانت قد ألقته، ووضعته بين أسنانها، وراحت تعضه لتتأكد أنه من ذهب، حسبما زعم هو لها. ففي هذه الحالة يمكن بيعه والقيام بصفقة رابحة. قد تباع أغراض مسروقة أحياناً بأسعار بخسة، لكن نادراً ما يحدث ذلك في تلك الشروط، إلاّ إذا كان الرجل قد كذب خوفاً من امرأته. لكن المعدن لم يلن بين الأسنان القوية البيضاء، كان يقاوم ولا يلين، وصاحت المرأة بغضب من جديد:

ـ لو أنه كان من ذهب لشعرت به أقل قساوة تحت أسناني، إنه لا شك من نحاس!

وقضمت أطرافه بشراسة وبصقت معدناً أصفر وهي تصيح:

ـ انظروا، الخاتم مطلي بقشرة رقيقة من الذهب!

لم تكن الأم لتستطيع أن تحتمل فكرة أن زوجها قد استُغل بتلك الطريقة الرخيصة، فتركته وذهبت إلى الحقول، مثقلة القلب جداً كي تعيره انتباهاً، أو تتوقف أمام نحيب الأطفال، أو أمام صوت الجدة المرتجف وهي تقول:

ـ عندما كنت شابة كنت أترك زوجي يقضي مراده. يجب على المرأة أن تسمح لزوجها أن يتمتع بأشياء صغيرة..

لكن الأم لم تكن تريد أن تسمع شيئاً يمكن أن يهدئها.

غير أنها عندما عملت في الأرض فترة، وراحت نسائم الخريف العليلة تهب على قلبها المضطرب، ألقت عليه برداً وسلاماً على الرغم منه.

كانت الأوراق المتساقطة، ومنحدرات الجبال المتعريّة من خضرتها، والسماء الرمادية، وصياح الإوز البريّ المهاجر نحو الجنوب، والبلد الآمن، وكل تلك السكينة الحزينة لنهاية العام، قد ولجت روحها دون أن تدرك، وارتد عليها هدوؤها وطيبتها. وبينما كانت يدها تنثر قمح الشتاء في تربة رخوة محروثة حديثاً، عادت طمأنينتها إليها، وتذكرت أنها تحب هذا الرجل الذي تمثلت وجهه الضاحك، أحست بالندم وقالت لنفسها:

ـ سأطبخ له أكلة شهية لغدائه. وفي نهاية الأمر، لقد أوليت هذه القضية البسيطة أهمية كبرى.

وارتدت مسرعة إلى بيتها، لتطبخ تلك الأكلة، ولتبرهن للرجل أنها تغيّرت، لكنها حين وصلت وجدته لا يزال مضطجعاً على السرير، مغيظاً، محولاً وجهه شطر الحائط، ومصرّاً على الصمت. حضّرت له الطعام الذي يحبه، ووضعت فوقه قريدس اصطادته من المستنقع. ثم نادته، فرفض أن ينهض وأن يأكل. وهمس بصوت ضعيف واهن:

ـ لا أستطيع أن أبلَع شيئاً، إن لعناتك حطّمت روحي!

لم تلح عليه، إنما وضعت زبديته جانباً، وتابعت عملها بصمت، صارة على أسنانها. وبما أن غضبها تأجج من جديد فإنها لم تنضم إلى المرأة العجوز التي كانت تتضرع إلى ابنها ليتناول بعض الطعام. وخرجت.

وتبعها الكلب جائعاً، فعادت إلى المطبخ ولمحت الطعام المرفوض، ومدّت يدها إلى الزبدية وهمست بين أسنانها:

ـ سأعطيه للكلب.

لكنها لم تنفّذ ما قالته، إذ إن طعام البشر لا يهدر على هذا الشكل.

لذلك ردت الزبدية إلى مكانها، ووجدت بعض الأرز المتناثر فرمته للحيوان، لكنها كانت لا تزال تشعر باستمرار انفعالها في أعماق قلبها.

وفي المساء، عندما تمدّدت إلى جانب زوجها في الظلام، وجاء الأطفال ينكبّون عليها من طرف بينما كانت تلامس جسد الرجل من الطرف الآخر، تبدّد غضبها تبدّداً كلياً، وأدركت أنه هو أيضاً ليس إلاّ طفلاً رهيناً بها شأنه شأن كل من في المنزل. وفي الصباح نهضت بشوشة آمنة. وبعد أن قدمت طعاماً إلى الجميع، ذهبت إليه وحثته على النهوض وعلى تناول طعامه. وحين رآها هو على تلك الصورة عزم على ترك سريره، ببطء، كمريض في دور النقاهة، وعلى تناول القليل من الأكلة التي طبختها بالأمس. وانتهى به الأمر إلى التهام كل ما في الزبدية، إذ كانت أكلته المفضلة، وبينما كان يأكل كانت أمه العجوز تتأمله بحب، تتأمله وتستمر في الثرثرة دون توقف.

رفض أن يشتغل في ذلك اليوم. وعندما تهيأت زوجته للذهاب إلى الحقول، جلس على مقعد تحت أشعة الشمس أمام فرجة الباب وهز رأسه هزاً خفيفاً وأعلن:

ـ إني أشعر بضعف، بألم يهيمن على قلبي، أريد أن أستريح اليوم.

كانت الأم تشعر بالأسف للوم الحاد الّذي وجهته إليه ما أوصله إلى تلك الحال. فقال له لتهدئه:

ـ استرح إذاً!

وانصرفت إلى عملها.

لكنه بعد رحيلها بدأ يتململ، وقد أسقمته ثرثرة العجوز التي لا تنقطع. فلقد أفرح المرأة العجوز فكرة أن ابنها سيمكث في البيت طيلة النهار، وأنها تستطيع أن تكلمه، أما هو فوجد الأمر مملاً جداً، أن يبقى جالساً مصغياً إليها وأن ينظر إلى الأولاد يلعبون.

نهض، وتمتم بأن حاله ستتحسن إذا شرب قليلاً من الشاي الساخن،

وسلك الزقاق الضيق المؤدي إلى نزل من الدرجة الخامسة يديره ابن عم له. هنا سيلتقي بأشخاص آخرين يحتسون الشاي، ويتجاذبون أطراف الأحاديث، تحت سقيفة من القماش نصبت موائد حيث يتوقف المسافرون الجياع في طريقهم. وقد يروون روايات عجيبة لمناسبة شيء أو شيء آخر، أو قد يحضر راوٍ يقص أقاصيصه. حقاً إن النزل هو مكان مبهج وصاخب.

وفي طريقه التقى الرجل بابن عمه الجاد الرصين، الذي كان يعود من الحقول ليتناول فطوره، إذ إنه كان يعمل منذ الفجر، فصاح به:

ـ إلى أين أنت ذاهب إذاً بعيداً عن عملك؟

وأجاب الرجل بلهجة ضعيفة آنّة:

ـ إنها المرأة التي هي عندي، والتي لعنتني بسبب غرض صغير نسيته. إن لعناتها التي انصبّت عليَّ هي التي أمرضتني هذه الليلة، إلى حد الفزع، ورجتني هي نفسها أن أستريح اليوم. إني ذاهب لأحتسي قليلاً من الشاي الساخن لأدفئ جوفي.

بصق ابن العم على الأرض وتابع طريقه دون أن يقول كلمة. كان صموتاً بطبعه، وكان لا يتكلم إلاّ حين يجد نفسه مضطراً، ويحتفظ لنفسه بالأفكار النادرة التي قد تخطر له.

*

وهكذا كان الرجل ساخطاً على الحياة التي يحياها، يظن أن من المستحيل أن يتحمل غياب الجديد إلى الأبد، ذلك الدوران الرتيب للأيام، سنة بعد سنة حتى الشيخوخة والموت. كان يبدو له ذلك أشد استحالة، بعد أن سمع من بعض المسافرين، الذين مروا في النزل، يتحدثون عن الأشياء المدهشة والرائعة الموجودة وراء سلسلة الجبال عند مصب النهر. كانوا يقولون إن هناك حيث يلتقي النهر بالبحر تقوم مدينة عظيمة غاصة بأقوام مختلفي ألوان الجلود، حيث يُكتسب المال

بيسر، دون القيام بجهد كبير. إن تلك المدينة زاخرة ببيوت القمار، وفي كل بيت تُشاهد مغنيات فاتنات، فاتنات إلى حد لا يستطيع رجال هذه القرية أن يتصوروهنّ، ولن يتاح لهم مشاهدتهن أبداً. وفي المدينة أشياء عجيبة: شوارع ملساء، عربات مختلفة الأحجام، بيوت شاهقة كالجبال، ومخازن بواجهات مليئة بالبضائع التي جلبت من سائر أنحاء العالم على متون بواخر عبر البحار. في وسع رجل أن يمضي حياته في تأمل تلك الواجهات دون أن يمل. وتتوفر في المدينة أنواع الأغذية الممتازة بكثرة، أسماك وجميع أصناف ما يصطاد من البحر. وبعد أن يأكل المرء ويشبع، يذهب للتمتع بسهرته، فيمكنه أن يذهب إلى السينما أو أن يختار مسرحية من مختلف المسرحيات المعروضة، فبعضها مضحكة، تضحك حتى تنبقر بطنك من شدة الضحك، وبعضها مأساوية محزنة، وبعضها مسلية وخفيفة وخلاعية. والغريب هو أن الليل مضاء كالنهار في تلك المدينة الكبيرة، بوساطة مصابيح لا تعبأ باليد ولا تشعل بالنار، إنما من نور خالص يُستمد من السماء.

كان الرجل يلعب من تارة إلى أخرى مع أحد أولئك المسافرين، وكان المسافر في كل مرة يستغرب وجود لاعب على تلك المهارة في قرية صغيرة في الريف البعيد. فيقول له:

- يا صاحبي الطيب، إن لك حظ ساكن المدن، إني أقسم لك أنك جدير بأن تلعب في أي بيت من بيوت الملاذ في المدينة.

كان الزوج الشاب يبتسم لتلك الكلمات، ثم يسأل بجديّة:

- هل تظن صدقاً أن ذلك ممكن بالنسبة إليّ؟

وكان يردد في نفسه بمزيج من الاحتقار والرغبة في التبديل:

- صحيح، لم يعد يجرؤ أحد على مقارعتي في اللعب، حتى في المدينة في وسعي أن أتغلب على أي شخص.

عندما كان يفكر في هذه الأشياء كانت رغبته تزداد في التخلي عن

عيشته، وفي هجر العمل في الحقول، ذلك العمل الذي يكرهه أشد الكره. كان غالباً ما يتمتم ضارباً الأرض بقدمه:

ـ ها أنذا هنا، شاب وسيم، الحظ ملء يديّ، وسجين كسمكة في بئر. إني لا أرى إلاّ هذه الدائرة من السماء التي هي فوق رأسي، الرقعة نفسها إذا أمطرت السماء أو إذا صحا الجو. وفي بيتي ألتقي بالمرأة نفسها، وبولد يلحق بآخر، يبكون، ويصرخون، ويطلبون الطعام. ولماذا أبلي أنا جسمي الصحيح لأغذيهم دون أن أتمكن من التمتّع بمسرات الحياة؟

وعندما حملت الأم ووضعت وليدها الأخير، بدا الأب ساخطاً غاضباً لأنها تحمل بسرعة بعد كل ولادة، مع أنه كان لا يجهل أن ذلك مدعاة للإطراء لا للثلب بالنسبة إلى زوجة. وقد كان له أن يشكو بحق لو أنها كانت عاقراً، لا لأنها تلد كل عام، وتلد صبياً في الأغلب.

لكن العدالة لم تكن تسكن في نفسه في ذلك العهد. لقد بقي طفلاً في كثير من الأشياء، إذ كان يصغر امرأته بعامين، وحسب تقاليد تلك النواحي فإن الأمر يعتبر لائقاً حين يكون الزوج أصغر سناً من امرأته. لذلك سخط أمرّ السخط، لم يكن يهمه أن يكون أباً، وأن يولد له صبي، فهو لم يكن يحلم إلاّ بالملاذ، والمسارح العجيبة، وبهجة تسكّع المتعطّلين، التي يمكن له أن يتذوقها في مدينة بعيدة.

وكان يبدو فعلاً أنه من الذين صنعتهم السماء للملاذ.

كان حسن التركيب، لم يكن مديد القامة، كان مربوعها، أهيف رشيقاً، كان وجهه بهياً بعينين سوداوين، لماعتين، ضاحكتين عندما لا يكون مستاء. كان يستطيع دائماً أن يغني أغنية جديدة بصحبة رفاق مرحين، كان سريع البديهة حاضر النكتة، يعرف أن يقول تلك الأشياء التي تبدو بسيطة ولكنها تحتمل معاني مزدوجة مضحكة وفاحشة، في مفهوم القرويين. كان يُضحك جمهوراً بأسره بنكته وزجله. كان الرجال، بل النساء أيضاً، يحبّونه ويودونه. عندما كان يسمع ضحكهم كان قلبه يخفق رضا لشعوره بسلطته عليهم. وعندما كان يعود إلى بيته،

ويلقى الوجه الرصين العابس والجسم الضخم لامرأته، يبدو له أنها وحدها لا تقدّر الرجل المرموق الذي يكونه، إذ إنها لم تمتدحه وتتملّقه قط. والحق أنه لم يكن يمزح في البيت ولا يظهر مرحاً، حتى مع الأطفال، فقد كان من الذين أوقفوا مزاجهم الرضي كله على الغرباء، وكلماتهم اللطيفة، ولم يحتفظوا بشيء منها لبيوتهم.

كانت زوجته تشعر بذلك، وتبدو مستاءة متألمة عندما تقول جاراتها لها:

ـ نؤكد لك أن أقاصيص زوجك تساوي جميع القصص الهزلية، ثم إنه نشِط مرح.

وكانت تجيب بهدوء:

ـ نعم، إنه رجل باش جدّاً، بالتأكيد.

وكانت تغيّر الحديث للتوّ لتخفي ألمها.

إذ كانت تحب زوجها في السر، وتعرف أنه لن يكون سعيداً معها أبداً.

*

في بداية الصيف، بعد أن وضعت الأم طفلها الرابع، وقع بين الزوجين أسوأ شجار يمكن أن يقع بين رجل وامرأته. كان ذلك في يوم من شهر حزيران من السنة، في يوم يوحي برؤية سعادة جديدة، فقد بقي الرجل غارقاً في أحلامه طيلة الصبيحة. كان الهواء مثقلاً بفتور وحرارة لطيفة، وكانت الأوراق والأعشاب تلمع بخضرة بهية، والسماء عميقة الزرقة. كان الرجل لا يجد في نفسه رغبة في العمل، وكان النوم يبدو له مستحيلاً، إذ إن الحرارة المرتفعة لم يكن قد حان وقتها بعد، وكانت الحياة صاخبة من حوله، فالطيور والعصافير تغرد وتسقسق دون انقطاع، وكانت نسائم منشّطة معطرة تهب من أعالي الجبال مثقلة بعطر الزنبق الأصفر، وكانت الريح في السماء تطارد أمواج الغيوم البيضاء الثلجية التي تسبح في الفضاء الوضاء، ناشرة على الوهاد ظلالاً شاسعة.

كان المشهد رائقاً حيناً ومعتماً حيناً آخر، لم يكن ثمة سكون في مكان. كان يوم فرح وبهجة كي يؤذن فيه للعمل، وكان يوماً مهيجاً لقلب رجل.

في ظهيرة ذلك النهار الخلاّب مر بالقرية بائع متجول يحمل على كتفه حزمة من أقمشة مختلفة الألوان. وكان يسير مردداً:

ـ أقمشة، أقمشة جميلة للبيع!

وعبر أمام المنزل حيث الرجل والمرأة والجدة والأطفال الصغار يتناولون الطعام جالسين في ظل الصفصافة. توقف أمام الباب ونادى:

ـ هل يجب أن أتوقّف يا معلمة، وأن أعرض عليك بضائعي؟

لكن الأم أجابت بصوت مرتفع جداً:

ـ ليس لدينا المال، نحن لن نشتري شيئاً سوى قطعة قماش رخيصة جداً، وعادية جداً، للوليد الحديث. إننا لسنا إلاّ فلاحين فقراء لا يمكنهم شراء ثياب جديدة أو أقمشة إلاّ الضروري الذي يمنعهم من الظهور عراة!

وصاحت الجدة، التي لديها دائماً كلمتها تقولها، بصوت ضعيف حاد:

ـ أي نعم! كنتي على حق، والأقمشة رديئة في هذه الأيام، إنها تبلى لمجرد غسلها مرة أو مرتين. إني أذكر أني حين كنت صبية لبست سترة جدتي حتى يوم زواجي، وبعدها اضطررت إلى استبدالها بسترة جديدة، دفعاً للقيل والقال، إذ إن السترة القديمة كانت لا تزال صالحة. وها أني أرتدي كفني الثاني، وربما احتجت قريباً إلى كفن ثالث، إذ إن الأقمشة لا تقاوم في هذه الأيام..

اقترب البائع وقد تنسّم صفقة بيع. كان لطيفاً، باشاً، أنيساً، يجيد التملّق، صفة البائعين المتجوّلين اللازمة. وعرف كيف يتقرب من الأم، ووجه إلى المرأة العجوز كلمة لطيفة، قال لها:

ـ أيتها الأم الكبيرة، عندي هنا قطعة قماش جيدة الصنع شبيهة

بالقماش الذي كان يُحاك قديماً، وهي جميلة تناسب هذا الحفيد الجديد الصغير... يا معلمة، إنها فضلة ثوب سيدة غنية في قرية زرتها اليوم، اشترته مني لابنها الوحيد، وقد بعته لها بسعره الحقيقي وتركت لنفسي قطعة صغيرة.. سأقدمها لك هدية على شرف هذا الصبي الصغير الذي تضعينه في حضنك.

كان يطلق تلك الكلمات بنَفَس واحد ولهجة سلسة، وهو يخرج من حزمة بضاعته قطعة قماش جميلة حقاً، كما وصفها، خضراء بورود حمراء.

أطلقت العجوز صرخة إعجاب، ورغم ضعف بصرها فقد أشجاها مرأى اللونين الصارخين، وأُعجبت بها الأم أيضاً، وأخفضت نظرها إلى الطفل الذي كان يرضع ثديها. كان عارياً رغم الخرق البالية التي تحيط ببطنه. حقاً، كان طفلاً جميلاً، أجمل من سائر إخوته. وفكرت الأم: إنه يشبه أباه، وسيكون رائعاً حين يرتدي هذا القماش المزهر.

وشعرت بمقاومتها تلين. وسألت:

ـ كم ثمنه؟ مع أني لا أستطيع شراءه، إذ ليس لدينا ما يكفي إلاّ بجهد القيام بأود هؤلاء الأطفال الصغار، وهذه العجوز الطيبة، ودفع حصة المالك. إن من المستحيل علينا شراء الأقمشة التي تقتنيها النساء الثريّات لولدهن الوحيد.

بدا على الجدة الأسى لكلمات الأم، واقتربت البنت الصغيرة زاحفة لتقرّب عينيها نصف المطفأتين من القماش اللماع. كان الطفل الصغير مستمراً في الرضاعة غير ملتفت إلى ما يجري، وكان الأب جالساً يصفر غير مهتم بتلك القطعة المخصصة لطفل صغير!

أخفض البائع صوته، وكي يغري الأم همس وهو يدني القماش من الطفل:

ـ هذا القماش، بهذه المتانة، بهذه الألوان الصارخة، لقد مرّ بين يديّ

العديد من الأقمشة، لكن لم تكن بمثل هذه الجودة والروعة قط. لو كان عندي ولد لادّخرت هذه القطعة له، ولكن للأسف، إنني متزوج بامرأة عاقر، غير جديرة بأن أبعثر أغراضاً كهذه من أجلها.

كانت الجدة تصغي إلى حكاية البائع، وحين تحدث عن زوجته العاقر صاحت:

ـ يا للأسف! رجل مثلك على كل هذه الاستقامة! لماذا لا تختار زوجة صغيرة، وأن تعيد الكرّة، لعلك تُوفّق؟ إني كثيراً ما سمعت بأن على الرجل أن يجرب ثلاث مرات مع ثلاث نساء مختلفات قبل أن يتأكد من أنه المسبب في..

لكن الأم لم تكن تسمع، كانت متردّدة، كانت تفكّر، وتشعر بأن مقاومتها تضعف وهي تتأمل الطفل. كان جميلاً جداً بذلك القماش الجديد، الشبيه بجلده الناعم الذهبي، وخدّيه الحمراوين. وانتهى بها التردد إلى السؤال:

ـ قل لي، ما آخر سعر تعرضه، وإلاّ فإن من المستحيل عليّ أن أشتريه.

نطق البائع رقماً معقولاً، أقل مما كانت تحسب وتخشى، فخفق قلبها فرحاً، لكنها هزت رأسها وقطبت حاجبيها كعلامة الجد، ودفعت حسب عادات الناحية نصف المبلغ، كان المبلغ ضئيلاً إلى حد أن البائع سحب القطعة بسرعة وردّها إلى الكدسة، وتظاهر بالانصراف. وفكّرت الأم بطفلها الجميل وزادت السعر. وافتُتح جدال بينهما ومساومة، وبعد عدة محاولات انصراف كاذبة، رضي البائع بتنزيل طفيف على سعره الأول. وعاد ووضع بضاعته وأخرج القطعة بينما قامت الأم لتحضر المبلغ من كوة في الحائط حيث كانت تخفيه.

لم يشترك الزوج في المساومة. كان جالساً، لا يفعل شيئاً، يغني بصوت خفيض، يتوقف أحياناً ليعب جرعة ماء حار يشربه بعد كل وجبة.

كان البائع شخصاً ذكياً؛ يعرف كيف ينتهز اللحظة التي تمر، فخفّ، ومدّ قطعة قماش على الأرض، بطريقة عفوية متجرّدة؛ كان ذلك القماش المنسوج من الكتان يمنح الجلد إحساساً بالبرودة في أيام الصيف الحارة؛ وكان لونه بلون السماء أزرق صافياً، وكان يراقب الرجل خلسة ويتساءل إن كان قد لاحظ القطعة، وقال بنصف ضحكة:

ـ هل اشتريت ثوباً لهذا الصيف؟ إن كنت لم تشترِ، فلديّ حاجتك، وبسعر أقل ـ وأقسم لك ـ من أي حانوت في المدينة.

لكن الرجل هزَّ رأسه، وارتسمت على وجهه الجميل سحابة قاتمة، وأجاب بمرارة:

ـ أنا لا أملك شيئاً في هذا البيت كي أشتري أي شيء، أنا لا أملك إلاّ عملي، وكلما اشتغلت أكثر كلما زادت الأفواه التي يجب أن أغذيها. ذلك كل فائدتي.

كان البائع قد اجتاز العديد من المدن وشاهد الكثير من البلدان. وبمقتضى مهنته صار ملمّاً قليلاً بالفراسة، فسرعان ما أدرك أن الرجل الذي كان أمامه شغوف بالملاذ، وأنه أشبه ما يكون بغرٍّ لم ينضج بعد للحياة التي اضطر أن يحياها. قال له مداعباً وبمزيج من رثاء:

ـ الحق يقال، يبدو لي أنك تعيش عيشة قاسية بلا جزاء، ولو أني حكمت عليك من مظهرك الأنيق، فإن القساوة شديدة جداً عليك. جرب واشتر ثوباً جديداً، فسترى أن ذلك سيكون بمثابة دواء ناجع يفرح قلبك، لا شيء يساوي ثوباً صيفياً جديداً ليسرّي عن النفس ويدخل عليها البهجة. إنك إذا ارتديت هذا الثوب، مع هذا الخاتم الذي يلمع في أصبعك، وبشعرك المطلي بالزيت، فإني أؤكد لك بأني لن ألقى في المدينة رجلاً أبهى منك!

كان الزوج الشاب يصغي إلى تلك الأقوال بقبول ورضى، وانفجر من ثمّ بضحك أبله، ثم راجع نفسه وقال:

ـ ولماذا لا أشتري ثوباً جديداً، لمرة من المرات؟ أليس لي أن أؤمل بغير مجيء هؤلاء الأطفال الذين يتعاقبون، الواحد تلو الآخر؟ هل قضي عليَّ أن أرتدي أسمالي الخلقة حتى آخر أيامي؟

وانحنى بحركة سريعة ولمس القماش الكتّاني؛ وبينما كان يتفحّصه كانت أمه مستثارة جداً تقول:

ـ هذه قطعة قماش جميلة، يا بني، إذا كنت عازماً على شراء ثوب فهذا أجمل ثوب أزرق رأيته في حياتي. إني أذكر أن والدك كان قد لبس مرة ما يشبه هذا.. هل كان ذلك في عرسه؟ لكن لا، فأنا تزوجت في الشتاء. نعم في الشتاء، إذ إني عطست ليلة الزفاف عطساً دفع المدعوين إلى أن يتضاحكوا لمشاهدة العروس تعطس طيلة الوقت..

سأل الشاب فجأة بنبرة خشنة:

ـ كم يكلف ثوب من هذا القماش؟

في اللحظة التي نطق البائع السعر تقدمت الأم وفي يدها القروش قيمة ثوب الطفل، فصاحت مذعورة:

ـ ليس في إمكاننا أن ندفع أكثر من هذا.

وشعر زوجها تجاه احتجاجها برغبة متعاظمة في اقتناء الثوب، فقال بلهجة هجومية:

ـ أريد أن يخاط لي ثوب من هذا القماش. إنه يعجبني بما يكفي أن أدفع ثمنه اليوم بصورة جازمة! إننا نملك ثلاث قطع فضية، إني أعرف ذلك بالتأكيد!

كانت تلك القطع الفضية النقدية الثلاث هي ما جلبته المرأة الشابة في عرسها، وهي ملكها الخاص. كانت والدتها هي التي أعطتها إياها عندما تركت بيت أهلها، وكانت تحافظ عليها بحرص شديد،وهي لم تجد قط مناسبة شرعية لصرفها، حتى حين اقتضى الموقف شراء تابوت حماتها التي اعتُقد أنها مائتة، فإنها فضلت أن تقترض المبلغ على أن

تصرف تلك القطع الفضية الثلاث. كانت غالباً ما تفكر في تلك القطع التي تمثل ثروة فعلية، وفي الحال التي تستحيل الحياة إلى قحط قاس، إذا ما نشبت حرب، أو إذا ما حلت مصيبة لم يحسب لها حساب وضربت محاصيل الأرض. عندها فإنهم، على الأقل، لن يموتوا جوعاً في الحال بفضل هذه القطع المخبأة في حفرة الحائط. لذلك صاحت:

ـ لا يمكن مسها بحال!

انتفض الرجل غاضباً وخفّ سريعاً كالسنونو، وتجاوز امرأته وفتش في حفرة الحائط وأخذ المال، فتبعته هي وانقضّت عليه محاولة أن تمسكه بينما كان يجري وهي متعلقة به، لكنها ما كانت تستطيع أن تتغلب على خفة زوجها، فدفعها، فوقعت على الأرض وطفلها بين ذراعيها، وفر منها وقال للبائع:

ـ اقتطع لي اثني عشر قدماً من القماش، وقدماً أو أكثر زيادة، حسب العادة.

أسرع البائع وأجابه، وأخذ القطع الفضية الثلاث، كان المبلغ أقل مما كان قد طلب، إلاّ أنه كان يرغب في بيع بضاعته والانصراف على عجل. وعندما جاءت الأم أخيراً كان البائع قد انطلق، وكان الشاب واقفاً في ظل الشجرة المورقة ماسكاً بين يديه القماش الأزرق اللماع الجديد.. وكان المال قد تبخر.

كانت المرأة العجوز ترتجف وهي جالسة؛ وعندما شاهدت كنتها مقبلة راحت تتكلم عالياً دون مسوّغ كلاماً لا معنى له بصوت كسير:

ـ يا للزرقة البهية يا بنيّ. وسعره مناسب. إنك منذ عدة فصول صيف لم تلبس ثوباً كتانيّاً.

لكن الرجل كان كالح الوجه، أحمر اللون شديد الاحمرار، ينظر إلى زوجته نظرة سوء، وصاح مغضباً:

ـ هل تخيطين لي هذا الثوب أم يجب عليّ أن أحمله إلى عاملة أدفع

لها أجرة، سأقول لها إنك رفضت أن تخيطيه!

لم تجب الأم بكلمة. جلست صامتة على كرسي صغير، شاحبة لاهثة من جراء سقطتها. كان طفلها بين ذراعيها يبكي من الذعر، فلم تعره انتباهاً، وإنما وضعته على الأرض وتركته يصرخ ما طاب له الصراخ، بينما أخذت تعقد منديل شعرها. كانت تتنفس بسرعة، يعلو صدرها ويهبط، وبلعت ريقها مرة أو مرتين قبل أن تقول دون أن تنظر إلى زوجها!

ـ أعطني الثوب.. سأخيطه!

كانت تشعر بمهانة فيما إذا رأت ذلك العمل بين يديّ واحدة غيرها، فذلك كشف جليّ لمشاجرة مفضوحة، إذ إن الجارات أمام أبواب بيوتهن يسمعن الأصوات العالية الغاضبة..

لكن اعتباراً من تلك اللحظة بدأت المرأة الشابة تضمر ضغينة ضد زوجها، حتى أنها لم تجد أيَّ سرور في تفصيل القماش، في قصّه وجمعه، رغم أنها اعتنت بالخياطة غاية ما تستطيع، إذ كان القماش جيداً يعادل الجهد، وطوال الوقت الذي استغرقه العمل كانت تلزم تجاه الرجل صمتاً عنيداً، ولم يفلت منها أقل كلمة جراء الأحداث اليومية أو عما يجري في الخارج، إنها لم تبد عن البيت أي ملاحظة من تلك الملاحظات التي تفضي بها النساء الراضيات،وصار الرجل عبوساً كئيباً إزاء ذلك الموقف المتشدد الصلب، لم يعد يغنّي، وما إن ينهي طعامه حتى يذهب إلى النزل ليشرب الشاي ويلعب مع النزلاء حتى ساعة متأخرة من الليل، وذلك ما كان يضطره إلى التأخر في الاستيقاظ عند الصباح.كانت امرأته تلومه على مثل ذلك في الأيام العادية وتؤنبه حتى يكف وكي يزجي السلام، لكنها الآن تتركه ينام وتذهب وحدها إلى الحقول، صامتة قاسية تجاهه مهما فعل. ومع ذلك، فبينما كانت هي تواصل إظهار قساوتها كان قلبها كئيباً في صدرها.

عندما فرغت من خياطة الثوب، وقد تطلب إنجازه زمناً طويلاً ـ إذ

كان عليها أن تهيئ الأرز وتزرعه ـ لم تعترف بأنه متقن؛ فأعطته إياه، وارتداه، وحك خاتمه بحجر ليلمعه، وصقل شعره ودهنه بزيت أخذه من زجاجة في المطبخ، وراح يتبختر على طول الزقاق.

عندما كانوا يلقون عليه الثناء ويكيلون له المديح عن وسامته وأناقة ثوبه لم يكن يشعر باللذة العذبة التي كان يجب أن يشعر بها، لم تقل امرأته له شيئاً، مع أنه تلكأ فترة عند الباب، لكنها تابعت عملها دون أن ترفع نظرها إليه منحنية على مكنستها تكنس البيت.

لم تسأل إن كانت الخياطة موفقة، أو إن كانت تناسبه كما كانت تفعل كلما أنجزت له أصغر غرض، حتى النعلين.

وفي النهاية، لاحظ هو باستحياء:

ـ يخيّل إليَّ أنك وُفِّقت في هذا الثوب أكثر من أي غرض آخر، كأنها خياطة المدينة.

لكنها أصرت على ألاّ ترفع عينيها إليه. وضعت المكنسة في زاوية وراحت فجلبت كبة قطن وجلست تغزل خيوطاً، إذ إن خياطة الثوب الأزرق انفد ذخيرتها من الخيوط، وبعد فترة أجابت بلهجة مرة:

ـ بالثمن الذي كلّفني، يجب أن يضاهي ثوب الأمبراطور.

قالت ذلك دون أن تنظر إليه، بل إنها لم تلق عليه نظرة واحدة خلسة عندما اتجه نحو الزقاق، إذ كان حقدها شديداً، ومع هذا فقد كانت تعرف في قرارة قلبها كم يُناسبه هذا الثوب الأزرق.

5

انتظرت الأم عودة زوجها طوال ساعات، كان يمكن ترك الحقول لشأنها في ذلك اليوم .كان الأرز قد غرس في مستنقعات ماء قليلة العمق، وكان النبت الفتي تحت أشعة الشمس الحادة وهبوب النسائم الناعمة يحرك رؤوسه التي لم تعقد تماماً بعد. كان من غير المجدي

العمل في الأرض ذلك اليوم.

كانت الأم جالسة تحت الصفصافة، وجاءت الجدة تجلس إلى جوارها، سعيدة لوجود شخص يصغي إليها، وبينما كانت تتكلم خلعت سترتها وعرضت ذراعيها الهزيلتين الذاويتين لأشعة الشمس المحرقة، وتركت الحرارة المِعطاء تنفذ إلى عظامها. كان الأطفال عراة يركضون في العراء تحت لهيب الشمس، وكانت الأم صامتة، تفتل القطن على مغزلها بحركة دقيقة ما بين إبهامها والأصبع الذي تبله بلسانها. كان الخيط يخرج أبيض مفتولاً، وعندما يصير طويلاً، طولاً مناسباً، تلفه حول قطعة ملساء من الخيزران جعلتها بمثابة مكب.

كانت تغزل كما تفعل كل شيء بجودة ومتانة. كان الخيط قوياً وقاسياً عند ملمسه. وبهدوء مالت الشمس نحو الظهيرة، فنهضت ووضعت مغزلها جانباً، وقالت بجفاء:

ـ سيعود قريباً، وسيكون جائعاً، رغم ثوبه الأزرق.

فأجابتها المرأة العجوز بثرثرتها المعتادة وضحكتها القصيرة السهلة:

ـ أوه! نعم، إن ما يغلفه البطن ليس شبيهاً بما هو في داخله.

وتناولت الأم قرعة فارغة كمكيال وملأتها أرزاً وسوّته حتى الحافة بيدها الصناع كي تتلافى ضياع أصغر حبة، ثم صبت الأرز في سلة من صفائح الخيزران الرفيعة، واتجهت صوب ضفة المستنقع، وفي طريقها كانت تنظر إلى الزقاق، إلاّ أنها لم تشاهد أي ظل يرتدي أزرق كاشفاً؛ وهبطت التل بحذر لتغسل الأرز، وغطّست السلة في الماء، وفركت الحب في يديها السمراوين القويتين، وأعادت الكرة مرات ومرات إلى أن غدا نظيفاً أبيض، يلمع كلآلئ مبللة؛ وفي طريق العودة انحنت ونزعت رأس ملفوف من المربع حيث نبت، ورمت قبضة عشب إلى الثور المربوط تحت الشجرة ودخلت بيتها. كان ابنها قد رجع لتوه من القرية ماسكاً أخته من يدها.

سألته أمه بهدوء:

ـ هل شاهدت أباك في الزقاق، أو في النزل، أو أمام عتبة بيت من البيوت؟

فأجاب الصبي الصغير دَهِشاً:

ـ لقد مكث في النزل فترة عند الصباح ليشرب الشاي، ورأيت ثوبه الجديد، الأزرق، إنه ثوب جميل جداً، عندما عرف ابن عمه ثمنه، قال له إنه كلّفه كثيراً.

فقالت الأم بلهجة جافّة:

ـ نعم، بكل تأكيد، لقد كلف غالياً، أقسم لك بذلك!

ورددت البنت الصغيرة كصدى لأخيها بصوتها الناعم:

ـ نعم، كان ثوبه أزرق، حتى استطعت أنا أن أرى أنه كان أزرق.

لم تضف الأم كلمة؛ وقد أخذ الطفل الصغير، الذي ينام في سلة، في البكاء، فتناولته بإحدى يديها وفكت سترتها وأعطته ثديها، وهي تحضر الطعام، ونادت على الجدة:

ـ ترقبي يا أمنا الكبيرة زرقة ثوبه، فحين ترينها أخبريني. وسأضع الطعام على المائدة.

فقالت الجدة بصوت فكه:

ـ اعتمدي عليّ، يا ابنتي!

ومع هذا عندما طبخ الأرز وصار أبيض ناصعاً وناشفاً، كما يحبه الرجل، لم يكن قد عاد بعد. وعندما نضج الملفوف وحضّرت المرأة مرقة لذيذة حامضة لتصبها على الأوراق الغضة الطرية، حسب ذوق زوجها، لم يحضر.

انتظر الجميع فترة، كانت المرأة العجوز تشعر فيها بالجوع، وتحس بضعف وخوار بسبب رائحة الطعام التي فغمت منخريها، وصرخت بعد مشقّة بانتفاضة مفاجئة تطلّبتها الحاجة إلى الطعام:

ـ لا تنتظروا ابني! اللعاب يسيل من فمي، وبطني فارغة كطبل، ومع هذا إنه لا يأتي!

وناولتها المرأة الشابة زبديتها، وأعطت الطفلين زبديتيهما أيضاً، وسمحت لهما بأن يأخذا قليلاً من الملفوف، واحتفظت بالقلب لأبيهما، وسكبت بدورها لنفسها بقناعة، إذ كانت قابليتها أقل من العادة، وبقي كثير من الأرز وكمية كبيرة من الملفوف، وضعتهما جانباً في مكان رطب، كي يبقى الطعام صالحاً إذا ما سخنته عند المساء، وأعطت ثديها الطفل الرضيع، فامتصه حتى نام. كان طفلاً بديناً، قوياً، ينام في عين الشمس المحرقة، أمّا الولدان الآخران فقد تمدّدا في ظل الصفصافة وناما كذلك. وتدلى رأس المرأة العجوز وغرقت في سلام وسبات، وهيمن صمت قيظ الظهيرة على القرية وأغفى حتى البهائم.

كانت الأم وحدها مستيقظة، وقد أخذت مغزلها وجلست تحت ظل صفصافة، وراحت تفتل الخيوط، لكنها بعد فترة تعذر عليها الاستمرار في العمل؛ لقد ظلّت منذ الصباح هادئة مثابرة على أعمالها، كانت تغزل الخيط وتلفه على المكب، لكنها الآن لم يعد بمقدورها أن تمكث ساكنة، كانت تحس بغصة رهيبة تتجمع كقوة في جسمها، إذ لم يسبق لزوجها من قبل أن تغيّب عن تناول طعام في البيت. وقالت لنفسها:

ـ لعله ذهب إلى المدينة ليلهو ويقامر، أو لغرض آخر.

لم تكن هذه الفكرة قد خطرت في بالها قبل هذه اللحظة، وكلما كانت تفكر فيها كلما تجدها ممكنة. بعد فترة خرج الجار، ابن عم زوجها، ليذهب إلى الحقول، واستيقظت زوجته التي كانت تتقيّل تحت شجرة وسألتها:

ـ هل غاب زوجك سحابة النهار؟

فأجابتها الأم بلهجة طبيعية:

ـ نعم، لقد ذهب إلى المدينة لحاجة له يقضيها.

وعلّق ابن العم، وهو يختار ببطء الآلة التي يريد، بصوت رفيع:

ـ نعم، أنا رأيته، فرحاً في ثوبه الأزرق، على طريق المدينة.

قالت المرأة:

ـ حقاً!

وشعرت ببعض الانفراج، وراحت تغزل باندفاع ونشاط. بما أن ابن العم قد شاهد زوجها يتجه نحو المدينة، فلا شك أنه ذهب إلى هناك ليتمتع بنهار هنيء، وليلقي بنفسه في الملاذ لينتقم منها. إن هذا لمحتمل بثوبه الأزرق الجديد، وخاتمه النحاسي المجلو، وشعره المطلي بالزيت. كانت تؤجج غضبها بتلك الفكرة، لكن غضبها كان بارداً لم تتمكن من تسعيره، رغم أقوال ابن العم.

ومرّ الوقت بعد الظهر بطيئاً حاراً، فاستيقظت المرأة العجوز وصاحت بأن فمها جاف كقشرة، فنهضت الأم لتحضر لها شاياً، واستيقظ الولدان بدورهما وتدحرجا على التراب وقاما ليلعبا، وفتح الرضيع عينيه وبقي في سلته، فرحاً، سعيداً بهناءة نومه.

لكن الأم لم تذق للراحة طعماً، كان بودها أن تنام لو أمكنها النوم، إذ إنها في الحالة الطبيعية تغفو بسهولة حتى في أثناء العمل، فهي كانت صحيحة وقوية إلى حد يشملها الرقاد العميق العذب على حين غرة، أما اليوم فثمة ما يقرض قلبها ويطرد النعاس عن عينيها، كما لو أنها تصيخ لنغمة ستوافي سمعها.

ونهضت أخيراً، إذ إنّ الانتظار أنفد صبرها، وتعبت من مراقبة الزقاق الخاوي بالنسبة إليها ما دامت لا ترى فيه من تبحث عنه. وأخذت الرضيع وحملته وراء ظهرها وتسلّحت بمعزقها، وقبل أن تتوجّه إلى الحقول، نادت على المرأة العجوز:

ـ أنا ذاهبة لأنزع الأعشاب الطفيلية من حقل الذرة على سفح الجبل الجنوبي!

وفكرت، وهي في الطريق، أن البقاء خارج البيت أخف وطأة، وأن الساعات تمر بسرعة حين تجهد جسمها في عمل شاق.

واشتغلت بعد الظهر كله، تحمي وجهها من أشعة الشمس بمنديل قطني أزرق، كانت ترفع ذراعها بمعزقها وتهبطها دونما توقف بين سيقان الذرة الفتية الطرية الخضراء. كان الحقل صغيراً وعراً، فالأرض الطيبة مخصصة لزراعة الأرز، إذ إنه طعام أفضل من الذرة ويباع بثمن أعلى.

كانت الشمس تصب نارها على الجبل العاري، ناراً ملتهبة إلى حد أن سترة المرأة تبلّلت بعرق أسود. كانت لا تستطيع أن تستريح، إلاّ بين الفترة والأخرى، عندما كان الرضيع يبكي، ما يوجب تقديم الغذاء له. وعندها كانت تستلقي على ظهرها، وتعطيه ثديها، وتمسح وجهها الملتهب، وتثبت نظرها على البرية النيرة، دون أن ترى شيئاً، وعندما كان الرضيع يكتفي كانت تتركه وتقبل على العمل بلا رحمة إلى أن صار جسمها يؤلمها، وتخدر إدراكها ولم يعد يشغله إلاّ الأعشاب الضارة التي تنتزعها آلتها وتطرحها ذاوية في القيظ الشديد. وأخيراً استراحت الشمس في الأفق، وغرق الوادي بغتة في الظل، وعندها نهضت المرأة ومسحت وجهها ببطانة سترتها، وهمست عالياً:

ـ إنه ينتظر، بالتأكيد، في البيت، يجب أن أذهب لأحضّر له عشاءه.

والتقطت الرضيع الذي كانت أرقدته على مهد من تراب رخو، وعادت به إلى بيتها.

لكن الرجل لم يكن قد عاد. عندما التفّت حول زاوية البيت، لم تجده في مكان. كانت المرأة العجوز تنظر بغصة صوب الحقول، وكان الطفلان المتعبان جالسين على عتبة الباب ينتظران. وعندما لمحا أمهما أطلقا الصرخات. فسألتهما بذهول:

ـ أبوكما.. ألم يعد بعد؟

قال الصبي:

ـ لم يأت وإننا جائعان!

ورددت البنت الصغيرة كصدى لأخيها، وهي تطبق أجفانها بشدة لتحمي عينيها من أشعة الشمس الذهبية الغاربة، بلغتها البسيطة المتقطعة:

ـ لم يعد.. إننا جائعان.

ونهضت المرأة العجوز وذهبت قفزاً بعرج خفيف ونادت ابن العم، الذي كان يرجع إلى بيته للتوّ، بصوت حاد:

ـ هل لقيت ابني؟

لكن الأم أوقفتها بحيوية، نافدة الصبر:

ـ اسكتي يا أمنا الكبيرة، لا تعلني للجميع أنه غائب.

فأجابت الجدة قلقة وهي تحاول أن تلمح من بعيد:

ـ لكنه غائب.

لم تضف الأم حرفاً، وأعطت الطفلين أرزاً بارداً، وسخّنت قليلاً من الماء وصبته على أرز المرأة العجوز، ووجدت بقية لتلقيها إلى الكلب. وبينما كانوا يأكلون، أخذت الرضيع بين ذراعيها، ونزلت الزقاق قاصدة النزل حيث وجدت زبائن قليلين، وشخصاً أو اثنين ذاهبين إلى قريتهما القريبة، إذ إنها الساعة التي يكون فيها الرجال في بيوتهم بعد أن انقضى النهار. قالت لنفسها إنها قد تجد زوجها جالساً إلى مائدة على الطريق حيث يمكن مشاهدة وسماع ما يجري، أو لعله مسافر، أو على الأرجح يجلس إلى مائدة اللعب. لكنها فتشت في كل مكان ولم تعثر على الثوب الأزرق، كما أنها لم تسمع أصوات مقامرين.

كان صاحب النزل وخده يستريح بعد تناوله طعام المساء، مستنداً إلى الحائط بجانب الموقد، ملطخ الوجه بالدخان والدهن المتجمع منذ عدة أيام، كان يبدو له أن من العبث غسل وجهه، إذ إنه سرعان ما يتسخ

جرّاء مهنته القذرة.

سألته المرأة الشابة:

ـ هل رأيت أبا أولادي؟

نظّف صاحب النزل أسنانه بظفره الأسود الطويل، ومص أصبعه وأجاب بعدم اكتراث:

ـ لقد بقي جالساً هنا في الصباح فترة، كان يرتدي ثوبه الأزرق الجديد، ثم ذهب ليمضي يومه في المدينة.

ثم أضاف بخبث:

ـ ماذا إذاً يا معلمة، هل حدث شيء ما؟

أجابت الأم بحيوية:

ـ لا، لا شيء، لا شيء. لقد ذهب إلى المدينة لقضاء حاجة، وربما تأخر، سيمضي الليلة هناك ويعود غداً.

سألها بفضول:

ـ ترى، وما هي تلك الحاجة؟

أجابته وهي تدير له ظهرها لتنصرف:

ـ وكيف لي أن أعلم بما أني لست سوى امرأة؟

في طريق العودة، بينما كانت ترد بإيجاز على الذين يخاطبونها، خطرت في بالها فكرة. وعندما دخلت بيتها تفحّصت الحفرة التي تخبئ فيها المال في الحائط، كانت خالية، مع أنه كان يجب أن تحوي بعض القطع النحاسية وقطعة فضية صغيرة، إذ إن الرجل كان قد باع، قبل يومين، تبن الأرز بثمن جيد، لشطارته في المساومة، وقد أعطاها القسم الأكبر من المبلغ الذي غيبته في تلك الحفرة، حيث كان يجب أن يكون في مكانه، لكنه الآن مفقود.

عندها أدركت الأم أن الرجل قد رحل. كانت على شبه يقين من

رحيله، وفجأة سقطت على الأرض وسط الدار ورضيعها بين ذراعيها، وراحت تهتز من أمام إلى خلف، ببطء، في صمت. ذلك هو، إنه ذهب! وبقيت هي هنا مع الأطفال الثلاثة والمرأة العجوز.. أما هو فقد ذهب!

بكى الرضيع، ودون أن تدري ماذا تفعل قدّمت له الثدي؛ ودخل الطفلان، كانت البنت تبكي وتفرك عينيها، والجدة تتوكأ على عصا لا تفتأ تردد:

ـ إني لأتساءل أين هو ابني، يا ابنتي، هل قال ابني إلى أين هو ذاهب؟ إنه لأمر عجب أن يكون ابني قد ذهب...

عندها نهضت الأم وقالت:

ـ سيعود غداً يا أمنا الكبيرة، يجب أن تخلدي إلى الفراش الآن، وأن تنامي، سيعود غداً.

أصغت الأم العجوز ورددت متعزية:

ـ آه! نعم، سيعود غداً، لا ريب.

وتلمّست طريقها في الغرفة المظلمة إلى فراشها.

قادت الأم طفليها إلى باحة الدار وغسلت جسميهما كما تصنع في أمسيات الصيف قبل أن يأويا إلى السرير. كانت تصب على كلٍّ منهما علبة ماء، وهي تفرك جلدهما الأسمر الأملس حتى ينظف. وكانت لا تسمع ما يقولانه ولا تعير انتباهاً لأنين البنت وهي تشتكي من عينيها، لكنها عندما حملتهما إلى السرير صاح الصبي الصغير مندهشاً لغياب أبيه:

ـ لكن أين هو أبي؟

استطاعت أن تجيب بهدوء:

ـ لا شك أنه في المدينة، سيعود غداً أو بعد غد.

وأضافت بحركة غضب:

ـ لعله يعود عندما تنفد أمواله.

ثم قالت بمرارة بالغة:

ـ ذلك الثوب الأزرق يكون قد صار قذراً، كي أغسله له، بالتأكيد!

كان يطيب لها، بمعنى من المعاني، أن تشعر بسخطها عليه. كانت تتمسك بغضبها، تتشبث به، إذ يكون زوجها في تلك الحال كما يخيل إليها أقرب إليها. كانت تغذي اهتياجها عندما دخل الكلب وربض عند مدخل الباب ليحتمي من الليل، وتمتمت هي قائلة:

ـ في وسعي أن أقسم أني حين سأنام سأسمعه يدق هذا الباب، في هذه الليلة ذاتها.

لكن في الليلة المعتمة، في غيابة الليلة الحارة الهادئة، وصمت الحجرة المغلقة، هدأ غضبها وشعرت بالحزن. ماذا هي صانعة إذاً؟ لم يعد، امرأة وحدها وشابة! كان السرير يبدو واسعاً جداً، فارغاً، وهي ليست بحاجة إلى أن تشعر بضيق هذا المساء، ففي وسعها أن تمد ذراعيها وساقيها بقدر ما تشاء. لقد ذهب. وتملكتها فجأة رغبة شديدة ملتهبة إلى هذا الرجل الذي هو رجلها. منذ ستة أعوام وهي تنام بجانبه. كان مهما أثار غيظها في النهار، ففي المساء تجد نفسها إلى جانبه وتنسى أنه كسول وصبياني. الآن، تذكرت كم هو شاب وسيم بهيّ المنظر، لم يكن فمه صفيقاً ولا أنفاسه كريهة، كما هي حال أغلب الرجال، كان فاتناً بأسنان بيضاء كالأرز. وباتت متمددة تشتهيه، وقد تبدّد غضبها كله وبقيت الرغبة وحدها.

ونهضت في الصباح، في حالة إعياء من جراء أرقها. وقد ثقل قلبها من جديد عندما لم تشاهد زوجها قد عاد، فبعد أن أخرجت الأنعام، وأعطت أولادها والجدة الطعام، تصلّبت وقالت مصرّة على أسنانها:

ـ سيعود عندما ينفد ماله، إني أعرف جيداً، سيعود عندئذ.

ونظر الصبي الصغير إلى السرير الفارغ وسأل بدهشة:

ـ أين بات أبي؟

فأجابته الأم بصوت صاخب ارتفع على حين غرة عالياً جداً:

ـ إني أقول إنه سيغيب ليوم أو يومين. إذا ما سألك أحد في الزقاق أجب بأنه ذهب ليوم أو يومين.

بيد أنها لم تذهب إلى الحقول بعد أن ابتعد الطفلان ليلعبا، وإنما وضعت مغزلها بطريقة تستطيع معها مراقبة جميع المارين في زقاق القرية الصغير الوحيد. وبينما كانت تجيب حماتها كانت تقول لنفسها إن الثوب الأزرق بلون صارخ وفاتح إلى حد يمكنها أن تراه من بعيد جداً، وراحت تغزل وهي تلقي بين الفينة والفينة نظرة على طول الزقاق، وأحصت النقود التي حملها معه، وحسبت الزمان الذي يكفيه فيه ذلك المبلغ، لا أكثر من ستة أو سبعة أيام، حسبما قدّرت، إلاّ إذا توصل بحظه المواتي وأصابعه الماهرة إلى مضاعفة المبلغ ومدّ أمد غيابه فترة أطول.. قليلاً.

بقدر ما كان الصباح يتقدم بقدر ما كانت ثرثرة المرأة العجوز في بعض الأحيان غير محتملة، لكنها كانت تتجلّد وتصبر على أمل أن يعود زوجها.

عندما عاد الطفلان إلى البيت عند الظهر كانا جائعين، واكتشف الصبي الصغير زبدية الملفوف الذي وضع جانباً لأبيه، فطلبه ورفضت أمه، وضربته بقوة عندما ألح وصاحت به:

ـ لا، هذا لأبيك، فإنه إذا عاد هذا المساء فسيكون جائعاً وسيأكله.

ومضى بعد ظهر يوم صيفي طويل هادئ، لكن الرجل لم يعد. وغربت الشمس كعادتها دائماً، ثقيلة ومثقلة بالضياء الذهبي، وأضيء الوادي بعض الوقت، ثم حل الليل معتماً وعميقاً، ورضخت الأم. وضعت الزبدية أمام الطفلين وقالت لهما:

ـ كُلا ما تشاءان، سيفسد إذا ما احتُفظ به ليوم آخر، ومَن يدري..

وأخذت قليلاً من المرق الحلو والحامض ودفعته إلى المرأة العجوز قائلة:

ـ خذيه، سأصنع مرقاً جديداً، فيما إذا عاد غداً.

سألت الجدة:

ـ هل سيعود غداً إذاً؟

وأجابت الأم بلهجة جافّة:

ـ نعم، ربما غداً.

وفي ذلك المساء أخلدت إلى سريرها حزينة جداً، وشعرت بخوف، واعترفت لنفسها بصراحة بأن ليس من أحد يدري إن كان سيعود مطلقاً.

*

ومع ذلك فإنها كانت تضع أملها في تلك الأيام السبعة التي ستتركه صفر اليدين خاوي الوفاض كما كانت ترجو. ومرت الأيام، واحداً بعد الآخر، جميعها، السبعة، وكل واحد منها كانت تقدر فيه أنه يوم عودته. إنها لم تكن تجوب القرية وتثرثر مع الجارات، لكنهن الآن جئن، الواحدة تلو الأخرى، عشرون امرأة تقريباً، ليشاهدن، ويستفسرن عن زوجها، قلن:

ـ إننا جميعاً أسرة واحدة، وكلنا قريب، أكثر أو أقل قرباً أو بعداً..

وفي نهاية المطاف، دفعت الكبرياء بالأم لتبتدع حكاية. وأجابت بجرأة، حسب وحي اللحظة:

ـ إن له صديقاً يسكن في بلد بعيد، وجد له عملاً، بحيث يستطيع أن يعمل بشروط جيدة، وبشكل لا نحتاج معه إلى أن نهلك في العمل في الحقول، وإذا لم يعجبه الوضع فسيعود قريباً، وإلاّ فعليه أن ينتظر حتى يمنحه معلمه عطلة.

ولم تُرو الحقيقة قط بمثل ذلك الهدوء. وصاحت المرأة العجوز دَهِشَة:

ـ ولماذا لم تخبريني بهذا الخبر السار، أنا التي هي أمه؟

وابتدعت المرأة من جديد وأجابت:

ـ لقد منعني من التكلم، يا أمنا الكبيرة، إذ إنه يزعم أن لسانك يتدحرج كحصاة، وأن الزقاق بأسره سيعلم من أخباره أكثر مما يعلم هو نفسه، وإذا لم يوفق فهو يفضل ألاّ يعلم أحد بالأمر.

انحنت الجدّة لتواجه المرأة الشابة وهي متكئة على عصاها وقالت لها ببعض الغيظ والحنق:

ـ آه! هل تحسبين أني أتكلم كثيراً؟ هذا صحيح. لكن لساني لا يتدحرج كحصاة، يا ابنتي!

أعادت الأم حكايتها مرة وكررتها مرة ومرات، وأضافت بعض تفاصيل عليها لتكون أكثر قبولاً وأقرب إلى التصديق.

كان لها جارة تمر غالباً أمام منزلها، تسكن عند أخ كبير. وكان لها من وقتها فراغ كبير، إذ كانت أرملة ولم تنجب أولاداً. كانت تبقى أياماً بطولها جالسة تطرز أزهاراً على خفّيها، وفي أثناء ذلك كانت تفكر في الأحداث الجارية التي تروى من حولها. إن تلك الحكاية العجيبة عن رحيل زوج شوّشت بالها، وفي يوم، خطرت فكرة في بالها، وركضت طول الزقاق بقدر ما تسمح قدماها الصغيرتان لها به، لتدلي إلى الأم بهذه الملاحظة الحَذِقة:

ـ منذ زمن طويل ولم يصل القرية رسالة ما.. ولم أسمع أن زوجك أرسل كلمة واحدة.

ثم ذهبت خفيةً لملاقاة الرجل الوحيد الذي كان يعرف القراءة في تلك النواحي، كان يعمل كوسيط إذا ما أراد أحد في القرية أن يراسل، وهو عمل يضيف إلى مورد رزقه. سألته الأرملة بلهجة غامضة خفية:

ـ هل وقعت تحت عينيك رسالة من «لي» الأول، ابن «لي» الثالث من الجيل السابق؟

أجاب الرجل بالنفي، فصاحت الأرملة الثرثارة:

ـ لكن امرأته تزعم أنها تلقت رسالة منذ أيام!

بدا الرجل مذهولاً، لخشيته من أن يكون قد توجّه أحد إلى كاتب القرية المجاورة، فنفى وكرر:

ـ إني أعرف جيداً أنه لم تصل أي رسالة، وأنا لم أحرر أي جواب عليها لأحد، لم يرجني أحد أن أقرأ أصغر سطر، ولم يطلب أحد شراء طابع لأي خطاب، ولا يوجد طوابع إلاّ عندي، منذ ما يزيد على عشرين يوماً، ولم يقترب حامل رسائل من القرية.

عندها خمّنت الأرملة بوجود شيء غامض ملتبس، وراحت تهمس وتُسرّ في كل مكان أن امرأة «لي» الأول تكذب، فهي لم تتلق أي خطاب، وأن زوجها لا شك قد هجرها. ألم يتشاجرا بعنف من جراء ابتياع الثوب الجديد، وأن القرية بأسرها سمعتهما يتشاتمان، وأن الرجل قد دفع امرأته وضربها، حسبما قال طفلاهما؟

وعندما كانت هذه الأقوال تصل إلى أذني الأم كانت تؤكد بشجاعة أنها قالت الحقيقة، بل وأنها خاطت ذلك الثوب الأزرق لأجل تلك السفرة إلى البلد البعيد، وأنهما تشاجرا لسبب آخر. أما الرسالة فلا وجود لها، لأنها بُلِّغت أقوال زوجها شفوياً بوساطة بائع متجول قدم من الشط.

هكذا كانت الأم تصر على الكذب بلباقة. وكانت المرأة العجوز تصدق بكل جوارحها تلك الحكاية، وتتحدث غالباً عن ابنها، وعن غناه في المستقبل، بينما كانت الأم تحافظ على وجهٍ هادئ رصين، ولم تكن تبكي كما تفعل النساء اللواتي يهجرهن أزواجهن بعد أن يلطخنهن بالعار.

وصدق الجميع تلك الحكاية مع تعاقب الأيام. حتى الأرملة الثرثارة آلت إلى الصمت واكتفت بأن تمتمت بلهجة الخزي القاتمة، منحنية

على أزهارها الحريرية:

ـ سنرى فيما بعد، سنرى، فيما إذا أرسل مالاً، أو إذا كتب أو عاد يوماً..

وهكذا سكنت تلك البلبلة الصغيرة التي أقلقت القرية، وتحول اهتمام الناس إلى جهة أخرى، ونسوا المرأة الشابة وحكايتها.

وأقبلت الأم على العمل بعزيمة وهمة.. كانت الأيام السبعة قد انقضت منذ زمن طويل، ولم يعد زوجها. واستُحصد الأرز في تلك الأثناء. كان معلقاً أصفر وثقيلاً، صالحاً للحصاد. والرجل لم يعد، وحصدت المرأة وحدها، باستثناء يومين ساعدها فيهما ابن عمها، بعد أن حصد هو أرزه. كانت سعيدة لمساعدته إياها، لكنها كانت تخشاه أيضاً، إذ كان رجلاً صموتاً قليل الكلام، يلقي أسئلة بسيطة من العسير الإجابة عليها بصدق. لكنه عمل بسكوت، ولم يتلفظ إلاّ بضع كلمات لازمة، وعندما هم بالانصراف قال: إذا لم يعد عندما يقتضي اقتطاع حصة المالك، فسأساعدك، لأن الوكيل الجديد ماكر كبير وذكي لا يمكن لامرأة بمفردها أن تتجادل معه.

وشكرته بكل هدوء، سعيدة لمده يد العون لها، إذ كانت تعرف الوكيل معرفة سطحية، ذلك الوكيل الذي جاء حديثاً إلى الناحية، والذي يصطنع كثيراً من الدعابة في كل ما يقول وما يفعل.

وتحولت الأيام إلى شهور، ويوماً بعد يوم كانت الأم تنهض قبل الفجر، تترك الطفلين النائمين في رعاية المرأة العجوز. كانت تحضر لهم طعامهم وتضعه في متناول أيديهم، ثم تحمل الرضيع على ذراعها، وتحمل في اليد الأخرى منجلها القصير المعقوف وتذهب إلى الحقول. كان الرضيع قد نما بحيث يمكنه أن يبقى وحده جالساً. وكانت تضعه على الأرض وتتركه يلعب كيفما يشاء. كان يملأ يديه بالتراب ويرفعهما إلى فمه، كان يستاف التراب، ولا يستطيب مذاقه، فيبصقه، وسرعان ما ينسى، فيعيد الكرة إلى أن يتمرغ وجهه بالبصاق الموحل. ومهما كان

يفعل فإن أمه ما كانت لتعيره التفاتاً. كان يجب عليها أن تشتغل عن اثنين، وكانت تقوم بعملها بشجاعة. وإذا ما بكى الطفل فليفعل، ولينتظر. وعندما كانت تتعب وتجلس لتستريح قليلاً، تضع ثديها على الفم الملوث بالتراب وتترك الطفل يرَضع دون أن تهتم بالطين الذي يلطخه.

حصدت الحبوب القاسية الصفراء حفنة حفنة، منحنية في كل مرة، ثم كومتها في جرز، وعندما جاء الشحاذون واللاقطون، حسب تقاليد أيام الحصاد ليلتقطوا ما وقع، التفتت نحوهم بوجه أسود من العرق والتراب، والخطوط مشدودة من عناء الجهد، ووجهت إليهم الشتائم:

ـ أنتم تلتقطون في أرض امرأة وحيدة، ليس عندها رجل يساعدها، أنا أفقر منكم حالاً، أيها المتسوّلون، أيها اللصوص المقيتون!..

واستنزلت عليهم اللعنات، لعنت الأمهات اللواتي وضعنهن، والأولاد الذين أنجبوا، إلى حد أن الفزع انتابهم من حدة تلك الدعوات فتركوا حقلها وولوا الأدبار.

ثم نقلت هي الجرز، جرزة جرزة، إلى البيدر، ودرسته. قرنت الثور على الدولاب وأجبرت البهيمة على الدوران خلال جميع أيام الخريف الهادئة الحارة. وكانت هي كذلك لا توفر قوتها وجهدها. عندما درست الحبوب، جمعت التبن وكدسته، ثم ألقت الحبوب في الهواء لتذروه الريح عند هبوبها.

أجبرت الصبي الصغير على العمل أيضاً، وكان إذا ما تلكأ أو أبدى رغبة في اللعب كانت تضربه بقسوة لشدة تعبها الذي كان قد بلغ منتهاه.

وهزلت الأم لكثرة العمل والتعب المستمر، وذاب لحمها وازدادت سمرة لونها، وقد أحرقته أشعة الشمس، ومع هذا كان يتدفق في ثدييها حليب دسم. إن ثمة نساء يتحول الغذاء لديهن إلى شحم، ولا يمنحن الشبع الطفل الذي تحملنه أو ترضعنه، لكن تلك المرأة كانت أماً حقاً،

وكانت أمومتها تستلّ منها زبدتها، دون رحمة، حسب ما تقتضيه حاجة الطفل.

ثم جاء اليوم المحدد لتقسيم المحاصيل مع مالك الأرض، ذلك الرجل الثري الذي يملك القرية والحقول التي تجاورها، والذي يعيش عيشة متعطّلة بعيداً في المدينة. لقد ورث تلك الأراضي عن آبائه، وهو لا يكلف نفسه الحضور أبداً، وإنما يرسل وكيلاً عنه. وكان الوكيل في تلك المرة مستجداً، فقد استعفى الوكيل السابق، بعد أن استغنى طوال عشرين عاماً كي يكف عن متابعة العمل.

كان الوكيل الجديد يمر بجميع مزارعي القرية. وكانت الأم واقفة أمام باب منزلها، ووراءها بيدر الحبوب، عندما ظهر.

كان طويلاً، معتنياً بنفسه، يرتدي حريراً رمادياً، وينتعل الجلد، مدينيّاً من الرأس إلى القدمين. وكان غالباً ما يضع يده العريضة، ناعمة الجلد، على شفته، وكان يفوح منه في كل حركة يأتيها أريج عطري. تراجعت الأم عند وصوله، وحين نادى:

ـ أين هو المزارع إذاً؟

انتظرت الأم وتركت المرأة العجوز تجيب بصوتها الصافر:

ـ ابني يشتغل في المدينة، وليس على هذه الأرض سوانا.

أرسلت الأم ابنها ليجيء بابن العم، وانتظرت صامتة، ولم تتقدم إلاّ لتقدّم الشاي والتحيات المتعارف عليها للوكيل. ومع هذا فإنها أحست أنه يوجّه نظرات حارقة إلى قدميها العاريتين وإلى وجهها. وظلت واقفة هناك، عندما كال ابن العم الحبوب، حصتها أولاً ثم الحصة التي يجب أن تسلم إلى الوكيل، سعيدة لعدم اضطرارها إلى التدخل، بل حتى إلى الاقتراب لتفحص المكاييل، إذ كانت ثقتها بأمانة قريبهاكبيرة. بيد أنها كانت ترى حصتها تصغر، وكان شديداً عليها، كما كان شديداً على سائر الآخرين، أن تتنازل لهذا السيد المتأنق عن حصة كلفتها جهداً

بالغاً. كان المزارعون الآخرون، كما كانت الأم، يعطون حبوبهم بغضب مكتوم وثورة خفية، لكن كل واحد منهم كان يعرف كم كان يكلفهم التمرّد والرفض، لذلك كانوا يقدمون إلى الوكيل، إضافة إلى حصة مالك الأرض، هدية شخصية: فرخاً أو فرخي طير سمينين أو كيلاً من الأرز، أو بيضاً، بل حتى قليلاً من المال، ثم بعد أن تكال الحبوب في القرية، يجب أن تقام مأدبة للوكيل، وعلى كل بيت أن يقدم أكلة ما.

وحتى في تلك السنة، سنة الوحدة بالنسبة إلى الأم، فإنها قبضت على دجاجة وذبحتها وهيأتها لذلك الحفل الكبير، وطبختها على نار خفيفة حتى نضجت. كان شكلها سليماً وجلدها كاملاً، لكن اللحم طَرِيَ إلى حد أنه كان يتفتت بأقل لمسة من قضبان الطعام. كان تصوّر طعم لحم الطير، واستنشاق رائحته طوال ساعات طبخها أكثر مما كان الطفلان يتحملان، وظلاّ طوال الوقت يحومان في المطبخ. وصاح الصبي الصغير أخيراً:

ـ كم أود أن تكون لنا! ليتنا نستطيع لمرة واحدة أن نأكل، نحن أيضاً، دجاجة!

لكن الأم أجابت، وكانت قد أمضها التعب:

ـ من يستطيع أن يأكل هذا اللحم غير رجل غني؟

وبعد أن انتهت المأدبة، تقدمت من المائدة، حيث انتثرت فضلات الطعام، وحيث فرغ الرجال لتوهم، والتقطت عظمة من دجاجتها وقد بقيت عليها قشرة جلد وقطعة لحم عالقة وأعطتها ابنها قائلة:

ـ شب عن الطوق بسرعة يا بني، ويمكنك أن تتعشى معهم، أنت أيضاً!

وسأل الصغير بسذاجة:

ـ لكن أبي، هل يسمح لي بذلك؟

فأجابت الأم بمرارة:

ـ إذا لم يأت أبوك فستأخذ مكانه، أقسم لك بذلك!

*

وكرّت الأيام، وولّى الخريف. بات الأولاد لا يكادون يتذكرون أن شخصاً آخر كان ينام على السرير إلى جانبهم وجانب أمهم. كانت الجدة نفسها لا تسأل عن ابنها إلا نادراً، وقد شغلتها آلامها، وكانت عظامها تؤلمها من جراء الرياح الثلجية، منهمكة دائماً في البحث عن زاوية دافئة مشمسة، تشكو باستمرار من الرياح المتقلّبة، ومن أن الشمس تبدو أقل حرارة من العام السابق.

كان الصبي الصغير يقوم بانتظام بأعمال صغيرة يعتبرها مهمة، وعندما لا يجد ما يعمله يقود الثور إلى الجبل، وفيما يرعى الحيوان العشب القصير يظل مستلقياً على ظهره، النهار بطوله، أو ينزل ليقفز على قبر أو يجلس عليه، أو يصطاد الصراصر(*) من بين الأعشاب، ويحبك لها أقفاصاً من سيقان النجيليّات. وعندما كان يعود مساء إلى البيت يعلق الأقفاص على الباب، وتشرع الصراصر في الغناء لسعادة أخيه الرضيع وأخته.

بعد زمن يبست الأعشاب البرية على الجبل مع اقتراب الشتاء ويبست الأزهار المثقلة بالحبوب، وحان وقت قطع الأعشاب لتخزينها لوقود الشتاء. كان الصبي يتبع أمه كل يوم، وكانت الأم تقطع الأعشاب اليابسة بمنجلها القصير بينما كان الولد يضفر الحبل ليربط فيه الحزم التي أعدتها أمه. كانت منحدرات الجبال مغطاة بنقط زرقاء، أناس مثلها يقطعون الأعشاب اليابسة. وفي المساء، عندما تغيب الشمس وتهب رياح الليل الباردة من القمم، يعود الجميع إلى بيوتهم، سالكين شِعاب الجبل الضيقة الطويلة، يحمل كل واحد منهم حزمتين كبيرتين معلقتين

(*) الصُرْصُر والجمع صَراصر: جنس من الحشرات القفّازة، يصيح صياحاً رقيقاً وأكثر صياحه في الليل ولهذا سُمّي صرّار الليل.

على عصا طويلة يضعها على كتفه. كانت الأم تفعل مثلهم، وكان الصبي يحمل باقتين صغيرتين.

ما إن تصل الأم إلى البيت حتى تحمل الرضيع وتعطيه الثدي لتخفف ثقل الحليب، ويرضع الطفل بشراهة، بعد أن لم ينل في يومه سوى جريش الأرز. كانت المرأة العجوز في تلك الليالي الباردة تلجأ باكراً، حين تغيب الشمس، إلى سريرها لتستدفئ فيه. وكانت البنت تخطو مصعرة وجهها ألماً حتى في ذلك الضياء الباهت لتجلس على عتبة الباب وتبتسم، سعيدة لفكرة عودة أخيها الذي صار يغيب نهاراً مذ بدأ العمل في الحقول.

على هذا النحو انقضى الخريف. وكان هناك حرث الأرض، وبذار القمح، وعلّمت الأم الصبي كيف ينثر الحبوب مستعيناً بالريح الهابّة، وألاّ يبذر كثيراً في أمكنة وقليلاً في أمكنة أخرى.

ثم أطلّ الشتاء، وعندما بدأ القمح ينبت تكوّمت الأرض واكتنزت من البرد المتزايد. وأخرجت الأم ثياب الشتاء التي كانت تحفظها تحت السرير ونشرتها تحت أشعة الشمس وأصلحتها كي يسهل ارتداؤها. لكن قساوة أعمال الصيف والخريف شقّقت جلد يديها إلى حد أن الخيوط القطنية الغليظة كانت تعلق في الشقوق، وكانت أصابعها قاسية خشنة رغم محافظتها على جمال شكلها.

ومع ذلك فقد استمرت في الحياكة جالسة عند مدخل الباب تحت شمس الظهيرة. بدأت الاهتمام بثياب حماتها التي كثيراً ما كانت تشكو البرد. رجتها أن تلزم سريرها يوماً أو يومين، وأن تنزع عنها كفنها الأحمر الذي كانت تلبسه. وأعادت المرأة الشابة طبقة القطن بين القماش وبين البطانة التي كانت رقعتها في بداية الصيف.

كانت الجدة، وهي مستلقية براحة في سريرها، تثرثر سعيدة وتقول:

ـ تُرى، هل سيمتد بي العمر حتى أبلي هذا الكفن يا كنتي، هل

تعتقدين؟ في فصل الصيف، إني أتصوّر ذلك. لكن في فصل الشتاء تنتابني الشكوك، إذ إن طعامي صار يدفئني أقل من السابق.

وتجيب الأم ساهية:

أوه! ستعيشين مديداً أيضاً أيتها العجوز الطيبة، إنّي أبشرك بهذا، إذ إني لم أرَ قط عجوزاً تتأخر في هذا العالم كما تفعلين بينما يسلك الآخرون طريق الأحياء المشترك.

وتضحك الجدة طربة وتسعل وتقول:

ـ نعم، نعم، أنا من جنس متين، أعرف ذلك جيداً.

ثم تنتظر راضية حتى يصلح كفنها لها بصورة تدفئها أكثر.

ورتقت الأم بعد ذلك ثياب الأولاد. وأحالت أثواب البنت إلى الرضيع وأردية الصبي إلى أخته، إذ كان الأولاد الثلاثة قد كبروا جداً في أثناء ذلك العام. وطرح السؤال عندها بالنسبة إلى البكر: أي ثياب يرتدي؟ بقيت سترة الأب المبطنة والسروال الذي لبسه فصول الشتاء الثلاثة الأخيرة. كانت الأم قد رقعت الخروق عند العنق وعند الكسر.

لم تواتِ الأم الشجاعة على قص ثياب الأب وتصغيرها لابنها، كانت تقلّبها وتقلّبها، حائرة وقلبها في شجن، وفي النهاية همست:

ـ لكنه قد يعود.. سأرى فيما بعد.

غير أنّ الصغير ظل يرتدي ثياباً رقيقة. كان يرتجف من البرد في الصباح وفي المساء. وقررت الأم عندئذ أن تقص سترة الأب وسرواله، فعلت ذلك وهي تعض على شفتها وتقول لنفسها متعزية:

ـ إذا عاد في رأس السنة، سنبيع الأرز، وسأشتري ثياباً جديدة، وسيكون سعيداً.

ولّى الشتاء بدوره، وكانت الأم تتصور بصعوبة أن غياب زوجها يمكن أن يطول أبعد من فترة الأعياد، حيث يعود جميع الرجال، باستثناء المتسولين، إلى بيوتهم إن كانوا أحياء يرزقون. وحين كانت تُسأل،

كانت تجيب:

ـ سيعود في رأس السنة.

وكانت الأم العجوز تردد عشرين مرة في اليوم:

ـ عندما سيعود ابني، في رأس السنة..

وكان الأولاد يؤملون عودته أيضاً. وكانت الأرملة الثرثارة العاقر تبتسم وتقول بخبث، وهي تصنع لنفسها نعلين لتلك المناسبة:

ـ عجيب أنك لم تتلقّي أية رسالة من زوجك. إني أعرف ذلك، إذ إن (الكاتب) أكّد لي الأمر.

كانت الأم تجيب عندئذ بهدوء ظاهر:

ـ لقد وصلتني أخبار عدة مرات بوساطة مسافرين. زوجي وأنا لم نحب الكتابة قط وصرف دراهمنا النفيسة في أمر تافه. هل يمكن معرفة ماذا ينسى الكاتب أن يقول! ثم إنه يكتب علناً أمام الملا، وإذا ما وصلتني رسالة ما، بطريق المصادفة، فالزقاق بأسره سيدري بها. أنا مسرورة جداً لأنه لا يراسلني.

وهكذا كانت تفرض الصمت على الثرثارة. ولكثرة ما رددت أن زوجها سيعود في رأس السنة انتهى الأمر بها إلى أن صدقت ذلك. وكان العيد يقترب، وبدأ كل من في القرية الاستعداد لهذا العيد. وكان يجب عليها أن تتهيأ هي أيضاً، ليس فقط من أجل الأولاد، أن تصنع لهم نعالاً جديدة، أن تغسل لهم ثيابهم، وأن تخيط قبعة جديدة لأصغرهم، لكن أيضاً من أجل زوجها.

ملأت سلتين كبيرتين بالأرز وحملتهما إلى المدينة، ووفِّقت في بيعهما بسعر جيد، يضاهي، تقريباً، السعر الذي كان الرجل يحصل عليه. وقد أرضاها ذلك، إذ كانت تساوم الرجال وحدها. وصرفت المبلغ في شراء شموع وأبخرة تحرق عادة أمام الإلّه، ورسائل حمراء تجلب السعادة، وأدوات للمزرعة. ثم اشترت سمناً وسكراً لتصنع

حلوى لليوم العظيم. ودخلت مخزناً واشترت فيما تبقى معها ما يقرب من ستة أو سبعة أمتار من القماش القطني الأزرق الجيد، ومن حانوت آخر خمسة أرطال من القطن الذي يستعمل للحشو.

كانت الأم متأكدة من عودة زوجها. أخذت المقص وفصلت القماش بعناية تامّة. صنعت منه سترة وسروالاً. وبعد ذلك طوت البذلة التي خاطت إلى حين مجيء الرجل، واعتقد الجميع أن هذه الثياب ستقرّب مجيئه إلى بيته.

*

حلّ التاريخ المرتقب، ولم يظهر الرجل؛ وظل أفراد العائلة طوال النهار جالسين، مرتدين أجمل ما عندهم. كان الأولاد نظيفين يخشون تلويث ثيابهم. وكانت المرأة العجوز تتحاشى أن تنثر فتات طعامها على ركبتيها، وكانت الأم تحافظ على ابتسامة مصطنعة وهي تردّد:

ـ لعله يأتي، إذ لم ينقض النهار بعد.

وتقدّم رفاق الرجل القدامى من عتبة الباب، كانوا يؤملون أن يهنئوه بسلامة العودة. ورجتهم الأم أن يتقبلوا قطعة حلوى. وأجابت على أسئلتهم:

ـ فعلاً، كنا نؤمّل أن يحضر زوجي، لكني أعرف أن معلمه يوده كثيراً ويعتمد عليه، ولعله لم يستطع أن يتخلّى عنه طوال هذه المدة ليسمح له أن يقوم بهذه الرحلة الطويلة.

ورددت القول نفسه على النساء اللواتي جئن في اليوم التالي، كانت تبتسم بطلاقة، وهي تقول:

ـ بما أنه لم يأت، فستصلني رسالة عمّا قريب، إنيْ لمتأكدة، تفسّر لي غيابه.

وتنتقل من ثم إلى مواضيع أخرى.

ومضت الأيام، وبما أنها كانت تتكلم بصورة طبيعية فإن الأولاد

والجدة صدّقوا كلامها، إذ كان لهم فيها ثقة مطلقة.

غير أنها في الليل، في عتمة الليل، كانت تبكي بصمت، بمرارة. كانت تبكي رحيل الرجل، ثم في فترات أخرى كانت تبكي لأنه يجلّلها بالعار، أو لأنها امرأة بمفردها، وأن الحياة تبدو لها قاسية جداً مع أربعة أشخاص، يجب أن تقوم بأودهم.

وفي يوم من الأيام، بينما كانت تفكّر في جميع أسباب بكائها، قالت لنفسها إن في وسعها، على الأقل، أن تتلافى العار. وتذكّرت المال الذي صرفته على الثياب، والحلوى، وحرق البخور في الصلوات، ورغم ذلك لم يرجع زوجها. وتذكرت نظرة الأرملة الثرثارة الماكرة، واستغراب ابن العم الطيب كلما مضت الأيام وامتد غياب زوجها، وقرّرت أن تتلافى العار.

جففت دموع عينيها، فكرت لحظات ورسمت خطة. حملت إلى المدينة الأرز والتبن الذي كانت تستطيع أن تستغني عنه، وباعته، واستبدلت المال الذي تقاضته بورقة مالية بالقيمة ذاتها، واتجهت نحو كاتب المدينة، شخص مجهول بالنسبة إليها. كان جالساً في دكانه الخشبية الصغيرة، بجانب معبد كونفوشيوس(*). جلست بقربه على مقعد وقالت له:

ـ أريد أن أملي عليك رسالة من طرف أخي الذي يشتغل، ولم يتمكن من العودة إلى بيته. إنه طريح الفراش وسأنصّ عليك رغبته.

رفع الرجل الشيخ نظارتيه وكفّ عن النظر إلى العابرين. تناول ورقة جديدة، وبلّ ريشته في دواة حبر، ونظر إلى الأم وسألها:

ـ قبل كل شيء، اذكري لي ما اسم امرأة أخيك، وأين تسكن، وما هو اسمك أنت ذاتك؟

(*) (نحو ٥٥١ ـ ٤٧٩ق.م) فيلسوف صيني. أسس المذهب الكونفوشياني وهو مذهب فلسفي أدبي لا يقرّ بالله إنما يدعو إلى حياة عائلية واجتماعية مثلى.

أجابت الأم:

ـ إنه أخي الذي رجاني أن أكتب إلى زوجته، إذ إني عدت منذ فترة قصيرة من المكان الذي يسكن فيه الآن.. وإن اسمي لا علاقة له بالموضوع.

وأخبرته عندها باسم زوجها على أنه اسم أخيها، وعلى أنه يقيم في بلدة بعيدة، تذكرت سماع اسمها قديماً في مسقط رأسها. وبعد ذلك أخبرته بعنوانها في القرية على أنه عنوان زوجة أخيها، وأضافت:

ـ هذا ما يرغب أخي في أن يكتبه إلى امرأته: إني أشتغل جيداً، في مكان حسن، وطعامي يعجبني، ومعلمي ممتاز لا يطلب إليّ سوى أن أقدّم له غليونه أو شايه، أو أن أحمل رسائله إلى أصدقائه. إنه يقدم لي أسباب المعيشة كلها وثلاث قطع فضية في الشهر. إني احتفظت بعشر منها بدلتها بورقة مالية لها الثمن ذاته. خذيها إلى أمي وإليك وإلى الأطفال.

كانت جالسة تنتظر بينما كان الرجل الشيخ يدوّن ببطء. دام ذلك طويلاً، وفي النهاية سأل:

ـ أهذا كل شيء؟

أجابت:

ـ لا، لديّ ما أقوله أيضاً، اكتب: إني لم أتمكن من المجيء في يوم رأس السنة لأن معلمي يحبني كثيراً ويرفض أن يستغني عني، لكن مجيئي سيكون في رأس السنة القادمة، وإلاّ فسأرسل لك ما أكون قد ادخرته من أجري مرة في العام.

وعاد الرجل الشيخ يكتب، وأضافت هي بعد مشقة:

ـ أضف كذلك هذا: قولي لأمي العجوز إني سأجلب لها معي، حين سأجيء، قماشاً أحمر لكفنها الثالث من أجود الأصناف المعروضة للبيع.

عندما تمت الرسالة، وقّعها الرجل الشيخ وألصق حافة الغلاف وكتب العنوان، وبصق على طابع وألصقه، ثم وعد بإلقائها في البريد في مكان يعرفه. أعطته أجرته وعادت إلى بيتها. كانت تلك هي الحيلة التي تفتق ذهنها عنها عندما جففت دموعها.

6

بعد سبعة أيام، مر بالقرية حامل رسائل، كيسه على كتفه. كان ذلك حدثاً جديداً، إذ لم يكن لسعاة البريد وجود في الزمن القديم، وكان القرويون يجدون الأمر معجزة، أن تنقل الرسائل بتلك الطريقة، ومع هذا فإن الأمر كان يحدث. أخرج الرجل من كيسه غلافاً ومسكه وهو ينظر إلى الأم وسأل:

ـ هل أنت زوجة شخص يُدعى لي؟

أدركت أن المسألة تتعلّق برسالتها فأجابت:

ـ نعم، أنا هي.

قال:

ـ إذاً، هذا لك من طرف زوجك حيث هو، إذ إن اسمه مكتوب هنا.

أجهدت نفسها كي تظهر فرحاً كاذباً، وأطلقت هتافات تعجّب ونادت على المرأة العجوز: هذه أخبار من عند ابنك!

وقالت للأولاد: كتب أبوكم إلينا!

كانوا جميعاً يرغبون في سماع مضمون الرسالة، ونهضت الأم وارتدت سترة نظيفة، ومسحت شعرها. وفي أثناء ذلك سمعت حماتها تصرخ على ابنة العم: وصلت رسالة ابني!

كانت تضحك وتضحك، وراحت تسعل في أثناء ضحكها حتى أفزعت ابنة العم من ذلك الخفقان في الجسم الواهي، فاندفعت إليها لتدلك لها ظهرها وهي تقول بطريقتها الحارة الودية: أيتها الأم العجوز،

لا تموتي بسبب هذا، أرجوك!

وأضافت حين ظهرت الكنة نظيفة باسمة:

ـ انظري إلى المخلوقة المسكينة العزيزة وهي تختنق لوصول أخبار ابنها!

فأشارت الأم إلى الرسالة وجهدت ليشع ابتسامها وقالت: فعلاً هذه هي!

حين سلكت الزقاق انضم إليها جميع من صادفت، إذ كان الصبي الذي يتبعها يشرح بفم أشدق، لكل من يسأل عن الخبر، أن أباه قد كتب. كانت البنت الصغيرة تمسك بسترة أخيها وتعدو خلفه، وبما أن الفصل كان شتاء والأعمال لم تكن ملحة فقد تجمع المتبطّلون عند الكاتب الذي ذهل لمشاهدة ذلك الجمع يقتحم داره، وحين علم قصدهم أخذ الرسالة وتفحصها برهة، وقلبها مرة تلو مرة، ثم تلفظ بوقار كما لو كان قوله الجواب الفصل على السؤال:

ـ إنها رسالة مرسلة من زوجك.

أجابت الأم:

ـ كنت حزرت ذلك.

وصاحت الأرملة الثرثارة من بين الجمع: ومن أي رجل آخر تريد أن تكون يا حاذق؟

وأضحكت تلك الملاحظة الجميع.

شرع الكاتب يقرأ ببطء. وخيم الصمت، وراحت الأم والأولاد والجمع ينصتون، وكان الكاتب يتوقف عند كل كلمة كي يشرح معناها، أولاً لأن الألفاظ التي تكتب يختلف معناها عن الألفاظ التي تقال، ثم لكي يظهر ثقافته ثانياً. كان يبدو على الأم كأنها تسمع تلك الألفاظ لأول مرة، وكانت تحني رأسها لكل لفظ من ألفاظه. وحين وصل إلى المقطع المتعلق بالمال، رفع الكاتب صوته، ولفظ بوضوح جليّ الجملة

المهمة. ذُهل الأشخاص الذين كانوا يحيطون بالأم ثم صرخوا:

ـ الورقة المالية، هل هي موجودة؟

هزت المرأة رأسها مؤكدة. وبسطت كفها وأبرزت الورقة التي كانت قد اشترتها لقاء مالها الخاص. وناولتها إلى الكاتب المندهش، فقال بوقار: في الحق أني أرى عدد عشرة، هذا يُفترض أن يكون دليلاً على أن قيمتها عشر قطع فضية.

راح الجمع يفحص الورقة كل بدوره، وكان قد طبع عليها صورة جنرال ضخم الجثة ملتح، وعندما رأتها الأرملة الثرثارة صاحت مذهولة:

ـ لكم تغير زوجك يا معلمة!

إذ حسبت أنها صورته، ولم يكن في وسع أحد أن ينطق بخلاف ذلك، إلاّ الأم التي أعلنت: إنه ليس زوجي، إني أعرف ذلك.

خاطر الكاتب وسأل:

ـ لعله معلمه إذاً؟

أراد الجميع أن يشاهدوا الورقة من جديد، وأبدوا إعجابهم لما يظهر على رجل الصورة من ثراء عريض وغذاء حسن. كان الدهش والحسد قد أخرسا الجمع، بينما كانت الأم تطوي الورقة الثمينة وتطبق يدها عليها.

عندما فرغ الكاتب من تلاوة الرسالة ردها إلى غلافها وقال برزانة:

ـ إن حظك وافر، فليس لأي من نساء الريف زوج قمين بأن يجد عملاً جيداً في مدينة كبيرة ثم يرسل لها الأجرة التي يتقاضاها. أو يبدو أن هناك أمكنة كثيرة لصرف المال.

أقسم الجمهور لها في المكان باحترام ورجعت باعتزاز إلى بيتها. كان الطفلان يتبعانها وقد شاطرا مجد أمهما، وفي البيت كان يجب أن يُروى كل شيء للجدة التي راحت تضحك وهي تنصت إلى ما كتب ابنها عن كفنها الثالث. ثم صاحت بصوت مضطرب كسير وهي تضرب

ركبتيها ضربات رضى:

ـ أي ابن هو ابني هذا! أراهنكم، إني أراهنكم على أن ليس له نظير! ذلك القماش من المدينة يجب أن يكون غاية في الجودة والمتانة!

ثم أضافت بلهجة رصينة مشوبة بالأسف:

ـ نعم، يا ابنتي، إن كان القماش بالجودة التي يزعم أخشى أن أموت قبل أن أبليه، سيكون بلا ريب آخر كفن لي.

وارتسمت أمارات الجد على الصبي عندما رأى تعبير جدته الحزين، وكحفيد مرضٍ صاح:

ـ لا، يا جدتي، إذ إنك بليت اثنين، وهذا الأخير لن يقاوم مدة تزيد مرتين!

وانتعشت الروح الطيبة من جديد، وراحت تضحك إعجاباً بذكاء حفيدها، ثم قالت لكنتها: هل تذكرت جيداً كل ما قال، يا ابنتي؟ إنك تبدين كأنك تقرأين الكلمات أنت نفسك!

أجابت الأم: نعم، إني أتذكّرها تماماً.

ودخلت وحدها إلى البيت، وقفت خلف الباب، وبكت بصمت. فالرسالة والورقة المالية ليستا إلاّ هراء، رغم اعتزازها. لم يكن لهما أي معنى وتفقدان كل قيمة عندما تجد نفسها وحيدة.

لقد نجحت الحيلة، ولم يعد أحد في القرية يسخر من الأم، وغابت التلميحات عن احتمال كون زوجها قد هجرها. كان يجب أن تُقسي قلبها، إذ منذ أن عُرف أنها تتلقى أوراقاً مالية، وأنها ستتلقى أوراقاً أخرى في الأعوام التالية، جاء إليها بالسر من يريد أن يقترض مالاً، بدءاً من الكاتب العجوز، ثم متعطِّل أو متعطِّلان أرسلا إليها زوجتيهما. وشق على الأم أن ترفض طلبهم، إذ في القرية، الجميع أقرباء فيما بينهم، ويحملون اسم لي. كانت تجيب بشيء أو بشيء آخر: كانت مدينة بالمبلغ وأنها وفت دينها، أو أنها أنفقته. عندما كانت بعض نسوة القرية يثرثرن أمام باب يستفهمن عن المرأة الشابة، أو حين تلقي الأرملة

الثرثارة العقيم بملاحظات مشيرة إليها، عن قصد، ذاكرة السعر الفاحش لأية قطعة قماش أو إبرة أو الخيطان ذات الألوان الصارخة لتطريز الأحذية، أو كان ثمة من يتقصد أن يقول أمامها:

ـ هذا شيء يليق بك، أو تقدرين على اقتنائه أنت التي لست مضطرة إلى التفكير وحساب كل قرش تصرفينه. فزوجك هناك يربح المال إلى جانب ما تجنيه من الأرض الجاحدة.

وفي بعض الأحيان، يلاحظ رجل بصوت مرتفع:

ـ قد لا يكون من الرشد أن يكون في قريتنا امرأة غنية إلى هذا الحد، فالثراء يجذب اللصوص كما يجذب العسل الذباب.

كان يبدو جليّاً أن المشاكل التي تسببها الورقة المالية تعظم يوماً بعد يوم. وفضلاً عن القيل والقال والأسئلة والأشخاص الذين يرغبون في مشاهدتها عن كثب، كان الخوف ينتاب الأم نفسها، لعدم اعتيادها على الاحتفاظ بمال على هذا الشكل، إذ يمكن للريح أن تحمل الورقة، وأن تقرضها الجرذان، وأن يعثر عليها الأولاد، ويلعبوا بها ويمزقوها دون أن يدركوا قيمتها. وانتهى الأمر بالأم إلى أن أبغضتها. كانت تفحص باستمرار سلة الأرز حيث خبأتها، وخشيت من أن تتعفن في حفرة الحائط الترابية وتتفتت، كانت قلقة أشد القلق، وعندما رأت ابن عمها قاصداً المدينة ركضت وراءه وقالت له بصوت خفيض:

ـ استبدل لي هذه الورقة بعملةٍ فضية معدنية، أرجوك، عملة أستطيع أن أشعر بها في يدي، إذ إن هذه الورقة ليست بشيء بين أصابعي!

قام ابن العم بما عهد إليه، وكان رجلاً عادلاً شريفاً، واستبدلها بقطع نقدية جديدة جيدة. ثم راح يرنها الواحدة تلو الأخرى عند عودته أمام ابنة عمه.

قالت له بشيء من حذر وأسف، اعترافاً له بجميله، وخشية أن تبدو بخيلة:

ـ خذ لك واحدة من أجل أتعابك، ولمساعدتك لي في أثناء الحصاد. إني أعرف جيداً أنك بحاجة إليها الآن، ولا سيما أن امرأتك حامل من جديد.

أنعم الرجل بصره في القطع الفضية طمعاً ورغبة دون شعور منه، وتوقفت أنفاسه، لكنه رفض؛ بما أنه كان طيباً حي الوجدان، وقال بسرعة خشية أن تخونه جرأته:

ـ لا، يا ابنة العم، أنت امرأة وحيدة، وأنا لا أزال قادراً على كسب أسباب عيشي.

قالت له:

ـ إذا ما احتجت إذاً، تستطيع أن تقترض مني.

وأسرعت فحملت المبلغ كله، إذ إنها كانت تعرف أنه، رغم طيبته، لا يستطيع، كأي إنسان، تحمل النظر إلى المال طويلاً دون أن تضعف إرادته وتراوده نفسه.

في تلك الليلة، بينما كانت المرأة العجوز والأولاد نائمين، قامت وأشعلت شمعة وأحدثت في الأرض حفرة ووضعت القطع الفضية العشر، بعد أن لفتها بخرقة لتحميها من التراب. التفت الثور وثبّت عليها عينيه الكبيرتين الكئيبتين، واستيقظت الدجاجات من تحت السرير وأطلقت نقّات ضعيفة، ووجهت مرة جفناً ومرة الجفن الآخر نحو ذلك الشيء العجيب. سدّت المرأة الشابة الحفرة وداستها كي تخفيها جيداً، ثم عادت إلى سريرها في العتمة.

كانت قد نسيت قبل أن تنام، وهي نصف غارقة في عالم الأحلام، وبطريقة عجيبة، أنها إنما قد أخفت مالها الخاص، مالها الذي كانت جنته من حصاد محاصيلها، محنية ظهرها المضنى لكل حفنة من حب. وآلت الحال بها إلى أن أقنعت نفسها بأن زوجها هو الذي أرسل هذا المبلغ فعلاً، وأن هذا المال إنّما يمثل شيئاً أكثر من مالها هي وأزكى.

كانت تقول لقلبها:

ـ هذا.. كي يعوض لي المال الذي كان قد أخذه مني، ذلك المال الذي اشترى به الثوب الأزرق. وذلك خير، فالمال قد ازداد.

وغفرت له ما صنع. ونامت.

فيما تلا من أيام، وعندما كان يجيء من يريد رؤية الورقة المالية كانت تجيب باطمئنان:

ـ لقد استبدلتها بقطع عادية وأنفقتها.

عندما سمعت الأرملة الثرثارة ذلك، قالت:

ـ هل أنفقت المبلغ كله؟

أجابت الأم بابتسامة مطمئنة:

ـ أي نعم، كنت بحاجة إلى غرض وإلى آخر، إناء جديد أو إناءين، وإلى قماش، وإلى أشياء، وإلى أخرى. لماذا أحرم نفسي بما أني سأتلقى مالاً سواه.

ودخلت بيتها، وأخرجت البذلة التي كانت قد خاطتها لزوجها، بانتظار عودته، وقالت:

ـ على هذا صرفت قسماً من المال.

راحت كل واحدة تتفحص القماش وتعجب لجودته، ولاحظت الأرملة الثرثارة:

ـ أنت امرأة ساذجة طيبة، أؤكد لك، إذ إنك تقتطعين قسماً من المال من أجل رجلك ولا تحتفظين به كله لك ولأولادك!

أجابتها الأم دون أن يرف لها جفن:

ـ لكننا متفاهمان جدّاً، زوجي وأنا. ثم إني أخذت من المبلغ حصتي، وسلمتها إلى صائغ ليصنع لي قرطاً لأذني وخاتماً لأصبعي، إذ كان ديدن زوجي أن يهديني حليّاً.

كانت المرأة العجوز تصغي وجاءت تضيف كلمتها:

ـ أقسم أن ابني هو تماماً كما تقول. سيشتري لي كفني الثالث، من أجود ما يوجد من قماش في المدينة. ابن بار، محب، طيب، يا ابنة العم، لكن أرى أن بطنك كبطيخ ناضج!

انصرفت النساء ضاحكات، إذ كان المساء قد أطل، لكن ما كادت النساء ينصرفن حتى راحت الأم تتأوه، وتأسف لأنها ابتدعت تلك الحكاية الجديدة.

ـ إن ما كنت قد قلته كان كافياً، فما حاجتي إلى أن أُضيف؟ من أين أجيء بالمال لأشتري تلك الحلي؟ ومع هذا، يجب أن أحصل على المبلغ اللازم، إذا كنت أريد ألاّ يرتاب في صدقي.

وصعّدت زفرة وهي تفكر في العبء الجديد الذي فرضته على نفسها.

7

عاد الربيع، لمرة جديدة، وكان على الأم أن تعكف على أعمال الحقول بهمة وعزيمة. كان ابنها يساعدها، وقد علمته كيف يقود الثور. كان الولد صغيراً ضعيفاً كي يتمكن من دفع المحراث، لذلك اقتصر عمله على الجري خلف الثور وعلى الضرب على جلده السميك القاتم. لكن الجلد كان سميكاً جداً، وكان الصبي يبذل كل قوته في الضرب ولا يمس السطح، لذا، أثبتت الأم مسماراً في رأس غصن خيزران، وقالت للولد أن يستعمله ليخرج الحيوان من تكاسله الغريب.

كذلك أوكلت الأم إلى البنت أعمالاً خفيفة، إذ غدت المرأة العجوز مكسالة أكثر فأكثر مع تقدمها في السن، ونساءة لم تعد تذكر سوى أنها جائعة أو عطشى. كانت لا تتحرك إلاّ إذا طلب الطفل الرضيع، بإلحاحه الشديد، إذ كانت تعشق حفيدها الأخير. وتعلّمت البنت الصغيرة أن تغسل الأرز في المستنقع الصغير لتحضير الغداء. لكن كان يجب عليها

أن تفعل ذلك قبل الذهاب إلى الحقول، إذ قد تتعرض، وهي نصف عمياء، للسقوط في الماء. وكانت تتمرّن أيضاً على سلق الأرز وإعداده، رغم أنها كانت لا تصل بقامتها القصيرة إلى حدود غطاء القدر وهي على النار. وعلمتها أمها أن تشعل النار وأن تغذي اللهب. كانت البنت تقوم بعملها خير قيام، وحين كان الدخان ينتشر، ويدخل في عينيها، كانت تتحمل بصبر حروق أجفانها. كانت لا تشتكي أبداً، إذ كانت تدرك أنه يجب على أمها، في غياب أبيها، أن تنهض بالأعباء كلها. لكنها حين كانت تتم عملها كانت تنسحب إلى البيت، وتلتجئ إلى زاوية معتمة عند الظهيرة، وتجلس لتمسح عينيها الدامعتين بخرقة تحفظها معها لهذا الغرض، وكانت تتحمل عذابها قدر ما تستطيع أن تتحمل.

مشى الطفل الصغير مع الأيام الدافئة. لم يكن قد حاول المشي خلال فصل الشتاء، كانت ثيابه المحشوة بالقطن تثقل عليه إلى حد أنه حين كان يقع، لا يقدر على النهوض وحده. كان يأكل كل ما يريد وينمو بسرعة. وكانت أمه تسمح له بأن يرضع، كانت تحس بمتعة خفيفة عندما كان الطفل يضغط على صدرها بعد أن يركض إلى ملاقاتها عند المساء وهو يصرخ ويريد أن يرضع بعض قطرات الحليب التي بقيت. كان يشمل الأم انتعاش غامض، عذب جدّاً.

وبلغ الربيع الدافئ منتصفه. كانت الأم تعمل طوال النهار وابنها إلى جوارها. كان قد تم حرث الحقول على شكل مقبول. كانت خطوط المحراث أقل استقامة وأقل عمقاً مما كانت عليه في الفصول السابقة، حين كان الرجل يقوم بالعمل بينما كانت المرأة تبذر الحبوب. ومع هذا فقد أتمت هي بذر الفاصولياء، ومصطبات الملفوف، والفجل المخصص للبيع. كان السلجم يرفع رأسه من جديد، ثم أزهر أصفر ذهبيّاً. كانت الأم تعمل كثيراً وتشعر بتعب شديد عند المساء إلى درجة كانت تغرق معها في نوم عميق للتو، ولا تستيقظ إلاّ بصعوبة، وكانت قد نسيت الرجل.

ولكن جاء يوم، تذكرته فيه.

آن أوان مخاض زوجة ابن العم، فأرسلت أحد أولادها ليبحث عن الأم التي كانت صديقتها وأقرب جاراتها إليها في الوقت ذاته. وجدتها البنت الصغيرة مشغولة في الحقول. كانت نسائم الربيع العليلة تنفخ في سترتها الفضفاضة وتجفف عرقها كلما رشح.

صاحت المبعوثة الفتية قائلة:

ـ يا عمتي الطيبة، حان ميعاد وضع أمي؛ وهي ترجوك أن تسرعي، أنت تعرفين كم هي سريعة الوضع. إنها جالسة تنتظر أن تتناولي الوليد.

نصبت الأم ظهرها المنحني وأجابت:

ـ أنا ذاهبة في الحال.

والتفتت إلى ابنها وقالت له:

ـ خذ معزقي وانزع الأعشاب الضارة من حول الفاصولياء، قدر ما تستطيع، في أثناء غيابي. أنا لن أتغيب أكثر من ساعة، فيما إذا وضعت في هذه المرة أيضاً مثلما هي تضع عادة.

تبعت المرأة الشابة البنت الصغيرة التي كانت تعدو أمامها في الحقول. وفي الطريق أحست الأم بعذوبة النهار تدخل إلى سويداء قلبها بطريقة خارقة لم يسبق أن عرفتها. كان الوادي دائماً أمام عينيها، وكانت تجهد بشدّة إلى حد أنها لم تكن تفكر أبداً أن ترفع عينيها، وأن تنظر إلى شكل العالم الخارجي. كانت أفكارها كلها محصورة في حقلها، في منزلها. كانت دائماً قاصرة العين على مهمتها، وحين رفعت عينيها ورأت أشجار الصفصاف تغطيها الأوراق النّضرة اللماعة الخضراء، وأزهار الإجاص البيضاء المتفتحة تنثرها الريح، ومن هنا وهناك الجلّنار الأحمر القاني يشتعل في الخضرة السنية، كان النسيم دافئاً رخاءً. وتساءلت المرأة الشابة إن كان ثمة ما هو أعذب، وأعمق سكوناً، من توقف الريح عن الهبوب، وانتشار رائحة الأرض العذبة المحروثة.

وهناك في تقلب الهواء من الهدوء إلى الحركة تنبّهت إلى جسدها، جسدها القوي والفتي والممتلئ بالحياة، وثارت فيها رغبة جديدة ورجعة إلى الرجل.

كانت تلد منذ زواجها في كل ربيع، ولكن جسمها في هذا الربيع كان عقيماً. كان الأمر طبيعياً جداً في السابق حين كانت تحمل في أحشائها طفلاً، كان ذلك أمراً يجب أن يتكرر بلا انقطاع. وبدا لها ذلك، في حينها، هناءة لم تدركها حتى تلك الساعة، وشملها شعور وحدتها، وصار إلى عذاب. وبدأ ثدياها يؤلمانها عندما فكرت: إذا لم يعد زوجها، فإنها لن تحمل أبداً في هذا الفصل، في الربيع، ولا في فصل آخر. وفجأة تأججت شهوتها وعبّرت عنها عالياً في صرخة:

ـ أواه! عد.. عد إليَّ!

وخيل إليها أنها صرخت هذه الكلمات عالياً، فتوقفت خشية أن تكون قد بلغت مسامع البنت الصغيرة. لكن حرفاً واحداً لم يكن قد خرج من بين شفتيها، وكان لا يسمع غير هبوب الريح، وتغريد شجي لبلبل على غصن شجرة رمان.

عندما دخلت الحجرة المظلمة وشاهدت وجه ابنة العم الطيب الضخم، المبلّل بالعرق، المقنّع بقناع الألم الذي يغيّب مرحه المعتاد، شعرت الأم أن جسمها هي هو الممتلئ والثقيل، وكأن عليها هي أن تضع، لا ابنة العم.

وتلقّفت الوليد الحديث، ولفته ببياضات. وانتهى عملها، وكان في وسعها أن تعود إلى الحقول، إلاّ أنها لم تشعر برغبة في العودة، فرجعت إلى بيتها بخطى متثاقلة. قالت الجدة:

ـ ماذا إذاً؟هل حان وقت الطعام؟ أنا لست جائعة!

وجاءت البنت الصغيرة تسعى ويدها على عينيها، وسألت:

ـ هل يجب أن أشعل النار، يا أمي؟

لكن الأم أجابت بشرود:

ـ لا، لا يزال الوقت مبكراً، إلاّ أني أشعر اليوم بتعب مفاجئ. أريد أن أستريح.

وذهبت لتلقي بنفسها على السرير.

لم تجد الراحة إطلاقاً، فنهضت وتناولت طفلها الصغير، وضمته بعنف إلى صدرها. أخرجت ثديها وأرادت أن تجبر الطفل على الرضاعة. إلاّ أنه قاوم، ورفضه، مدهوشاً لهذه الخشونة التي لم يعتد عليها، ثم إنه لم يكن جائعاً، وكان يريد أن يلعب. شمل الأم غضب قاتم غريب، فضربت الصغير بقسوة وطرحته أرضاً، فراح يبكي ويصرخ وهي تردّد: أنت تريد أن ترضع عندما لا أكو ن مستعدة لأعطيك ثديي، والآن أريدك أن ترضع، وأنت ترفض!

كانت تشعر بنوع من اللذة المرّة لمشاهدته مستلقياً على الأرض يبكي. وسمعت الجدة صراخه فنادت، وركضت البنت الصغيرة لتلتقط أخاها. وأحست الأم بالهدوء يرفرف بين جوانحها، فلم تترك البنت تحمل الطفل، وإنما رفعته هي بقوة ونفضت ثيابه ومسحت براحتها وجهه المبلل بالدموع. كانت تؤنب نفسها، خجلى لضربها الطفل، كأنه كان المسبب لعذابها.

منذ ذلك الحين. لم يعد الطفل يأخذ الثدي. وحُرمت الأم من تلك اللذة الخفيفة.

8

كانت هذه المرأة، منذ أن كانت في ريعان الصبا، تقبع على وهج صامت. كانت لا تتعجّل، كما تفعل النسوة الأخريات، بالتطلع إلى الشبان وفي تفحص جميع الرجال العابرين. كان لها قلب عميق، وما كانت تجرؤ على الغوص في أغواره. وحين كانت تجد نفسها وحيدة،

قبل الزواج، لم تكن أفكارها تذهب نحو الرجال لذاتهم، وحين كان يصعّد من كيانها رغبات غريبة لا تسبر أغوارها لم تكن تعيرها أية التفاتة، ولم تكن تبحث لتعرف لماذا ولا من أين جاءت. كانت تتابع عملها دون أن تتأثر، وتتحمل بصبر ذلك الاضطراب منتظرة بصمت. لم يتوضح لها ذلك بعض الشيء إلاّ بعد زواجها،عندما عرفت الرجل حق المعرفة. كانت رغبتها العميقة الصامتة تتقطر، بمعنى من المعاني. كانت في سورة الغضب، عندما تتشاجر مع زوجها، تشعر في أعماقها أنها لا تستطيع أن تعيش بدونه. تلك الرغبة النافدة الصبر المكثّفة تتجمع أحياناً في سُحُب عاصفة مبرقة مرعدة تقودها إلى فورات حنق ضد الرجل الذي تحب، وتستمر إلى أن تنصب في مجراها.

ومع هذا، كان الرجل لا يكفيها. كان يجب أن تحمل منه، وأن تحس بجنين يتكوّن ويتشكّل في رحمها. عندئذ فحسب تكون العملية مكتملة. وعندما كان الجنين يتحرك، وينمو فيها، كانت هي تسير تغمرها السعادة، وقد وصلت إلى الامتلاء والتمام. كان ينفد صبرها ضد أطفالها عندما يكونون بين قدميها، وتغضب حين يصرخون، ويبكون، أو يرتكبون بعض الحماقات مثل سائر الأطفال، إلاّ أنها كانت كلما شرعت بالحمل من جديد كلما شعرت برضى عذب في كيانها كله، كأنها تنام ملء جفونها، شبعانة ومرتاحة، بمعنى أن جسمها لم يعد يرغب في أي شيء.

حتى أنها في الماضي، أيام كانت فتاة في بيت أبيها في قرية ليست أكبر بكثير من هذه القرية وسط الجبال، كان حديثو الولادة يجذبونها أيما انجذاب. كان بيت أهلها غاصّاً بالأولاد، وكانت هي أكبرهم سناً، وتقوم بالنسبة إليهم مقام الأم. كانت تشعر بالتعب أحياناً من أعمال النهار، وكان الصغار عند المساء يزعجونها وهم يدورون حول ساقيها، وكانت تصرخ بهم أن ينصرفوا، لكنها رغم ذلك لم تكف قط عن حبهم. كان صغرهم يجذبها، ويثير حنانها، وغالباً ما كان يحدث لها أن

ترفع طفلاً بين ذراعيها في بيتها أو في بيت الجيران، وتستنشق رائحته بقوة، وتدلله طيلة المدة التي يتركها تفعل. كانت تشعر بلذة متأججة لا تحاول تفسيرها.

كان قلبها ينجذب إلى كل ما يعتمد عليها، كل ما يتنسم الفتوة. في الربيع، كانت تحب الصيصان وفراخ البط التي فقست لتوها من قشرتها. كانت تبذل همة كبيرة لتغذي يرقات دود القز ولا تشبع من لذة تأملها وهي تكبر.. ثم عندما كانت تخرج من الشرانق بأجنحتها، وحين تلامس فراشة فراشة وتتلاقح، كانت هي تحيا أولاً ذلك البحث وتلك التجربة ثم تلك المسرة في جسدها.

وفي يوم من الأيام، عندما كبر جميع الأولاد في بيت أهلها، كانت في ذلك الوقت تستعد للزواج، جاءت بشيء أيقظ أحاسيسها كما لم يفعل حتى ذلك الوقت أي وجود ذكر. كان في بيت الجيران طفل يحبو لا يمشي بعد، طفل سمين ممتلئ عار تماماً، كانت أخته الأكبر سناً تحمله طوال الصيف على ظهرها، وهو معلق بشريط من قماش. فكّت هي، عشية زواجها، الشريط وأخذت الطفل، وحررت البنت الصغيرة، لسعادتها الكبيرة، من ذلك العبء، وخلّت بينها وبين الركض واللعب.

كانت تذهب في كل يوم، لتأخذ من بين أطفال القرية، الطفل الذي وجهه مستدير كالبدر، الذي صار طفلها المختار، ولذتها الكبرى. كانت تحمله، تشم يديه السمينتين، تسر بالنظر إلى خدّيه المستديرين، وفمه الوردي الصغير. كانت تحمله على ردفيها القويين إلى كل مكان. وعندما كانت الأم تصيح:

ـ أليس في هذا البيت ما يكفي من أولاد حتى تبحثي عن طفل آخر حين توقفت أنا عن الحمل؟

كانت تجيب ضاحكة:

ـ أظن أني لن أملَّ أبداً من الأطفال.

وبعد مدة ولّد لمس الطفل والاتصال به فيها رغبة متأججة لم يسبق لها أن شعرت مثيلاً لها. كانت تريد أولاداً، شأنها شأن سائر النسوة، وكانت تعتبر أن من حقها أن تنجب في المستقبل، لكن هذا الطفل المتين، بعينيه الهادئتين، أحدث فيها أكثر من إيقاظ الشهوة، فإنَّ ما بدأ لعباً صار شيئاً أكثر: هوى عميق وخفي متوجّه وجهة كانت تجهلها.

كانت تجد أعذاراً لتبتعد، وحدها، عندما كانت تحمل الطفل بين ذراعيها، ويكون الجميع منهمكين في الحقول أو في المطبخ. كانت أخته تسر لذلك. وتبقى الفتاة جالسة ضامة الطفل الجميل إليها. كانت تهمس في أذنه وتهدئه، وهي تحس بالجسد الصغير السمين يستسلم بين ذراعيها ويطمئن. كان قد نبت له بعض أسنان صغيرة، وكانت هي أحياناً تمضغ أرزاً أو حلوى وتزلج ذلك الطعام من شفتيها إلى شفتي الطفل. وعندما كان يمضغ ما يسقط في فمه ويضحك دون أن يدري لماذا كانت هي لا تشعر ببهجة من جراء تلك الرغبة الوحشية، الأليمة والعميقة، والتي لم تكن تعرف كيف تُسكّنها.

في يوم وجدت نفسها، قبل زواجها بأيام قليلة، مع الطفل. كان الوقت ظهراً، والأخت تأخرت في المجيء لأخذ أخيها، رغم أن ساعة رضاعه كانت قد حانت، كان الصغير يبكي ويتململ. وحين رأت الفتاة أنه جائع أطاعت دفعة دم عنيفة، وتأجج فيها وهج مفاجئ، وسحبها بغموض رغماً عنها. صعدت إلى غرفتها وأحكمت إغلاق الباب، ثم فكّت عرى سترتها بيدين مرتجفتين ووضعت الطفل على ثديها الناهد، الصغير، الضعيف، فقرّب فمه الصغير بنهم وراح يمص بشراهة.. وبينما كانت الفتاة منحنية على وجه الطفل كانت بلبلة تهزها هزاً في جسدها كله حتى طفرت الدموع في عينيها، وراحت أصوات متقطعة، ليست هي كلاماً تنبجس من بين شفتيها. لم تكن تظن من قبل بإمكانية وجود هزّة مماثلة، وكانت تشد الصغير إلى صدرها، دون أن تدري ماذا يحدث في داخلها: ذلك الارتعاش في رحمها، ذلك الشغف الذي

يتجاوز بعظمته الطفل الذي كان بين ذراعيها ويتجاوزها هي نفسها.

ثم انقطع التوتر والتيار. فالصدر الهزيل كان فارغاً، والطفل كان يئن خائباً. وزرّرت هي سترتها، خجلة قليلاً مما فعلت، وخرجت على عجل. والتقت بالبنت التي جاءت تطلب أخاها لترده إلى أمه.

أيقظت تلك اللحظات في الفتاة مشاعر اعتبرتها أهم من الزواج نفسه في ذلك الحين. وحلّ الرجل الذي تزوجته محلاً كبيراً في حياتها حين جعلها أماً. ولقد أحبته، لكن ليس من أجله فقط.

*

هكذا كانت في عهد الصبا غرّة غير مجربة. والآن، مع بلوغ جسدها تمام النضوج، ومع المعرفة الكلية والتفتح التام لجسمها الأنثوي تبقى وحدها، مهجورة. وفي كل يوم، كان أولادها يكبرون، وبقدر ما كانوا يبتعدون عن طفولتهم بقدر ما كانت تشعر أنهم يبتعدون عنها.

كان ابنها البكر ينمو مستقيماً، نحيلاً، صموتاً. كان يتلفظ بكلمات قليلة، لكنه كان يجهد للقيام بأثقل الأعباء. عندما أرادت أمه أن تأخذ المحراث الخشبي الضخم لتعيده إلى البيت، حين انتهى النهار، تقدمها ووضع الحمل الثقيل على كتفيه الهزيلتين، كمن يضع نيراً، وراح يتعثر به على الطين العَلِك حتى البيت.

وغالباً ما كانت تشعر بتعب كبير كي تعترض. أصبح ابنها الآن هو الذي يعطي الماء للشرب، ويقدم العلف للثور، وينتفض ويقاوم كي يأخذ نصيبه من العمل في الحقول، كأنه هو الأب، لكنه كان في تصرفه على هذا المنوال ينفصل عن أمه بطريقة غامضة بينما هو يشاطرها الأعمال بانضباط كلي. كان يظهر في الغالب عناداً، وكانت هي تشعر، دون أن تدرك السبب، أنه يبعد جسديّاً عنها. إنه لم يكن يحب أن يجد نفسه بقربها، وكان يبتعد نافراً كأنها أخرجت رائحة لا يطيب عرفها له. وغالباً ما كانا يتشاجران لسبب تافه، فإذا ما شرحت له مثلاً كيف يجب

أن يستعمل معزقه، كان يتمادى في إصراره وعناده، حتى لو زاد عمله مشقة في استعماله على طريقته. كانا يتشاجران حول هذه النقطة، وحول نقطة أخرى لا أهمية لها. ومع هذا، كان كل منهما يدرك بغموض أن الموضوع الحقيقي لاختلافهما هو في مكان آخر، وأن لدى كل منهما سبباً عميقاً يجهله.

كذلك لم تكن البنت، بعينيها نصف الكفيفتين، مصدر بهجة لأمها. كانت الطفلة المسكينة، الصابرة، تفعل خير ما تستطيع، ولا تشتكي أكثر مما كانت تشتكي في الماضي. وصار الطفل الصغير يمشي ويركض. كان يحب أن يلعب في الزقاق وأن يصارع أقرانه. وكانت أخته عندئذ تلحق بأمها وبأخيها الأكبر إلى حيث يعملان في الحقول. لكنها هناك، أيضاً، كانت تضايق أكثر مما تساعد، وخصوصاً إذا اقتضى الأمر أن تشتغل في المساكب. كانت لا ترى جيداً، وتخلط بين النبتة والأعشاب الضارة، وتقتلع النبتة. كان أخوها يصيح بغضب: اذهبي، فأنت لا تساعديننا، أؤكد لك، اذهبي، واجلسي إلى جانب جدتك العجوز.

وحين كانت تنهض بفعل كلماته، جريحة الفؤاد بعمق، لكن مبتسمة، كان يصيح من جديد بصوت حاد:

ـ انظري أين تضعين قدميك، أنت تدوسين النبت الغض!

كانت تفر عندئذ وقد جرحت كبرياؤها. وكانت الأم بين ابنها وبين ابنتها، الكفيفة تقريباً، تفهم كلاً منهما. كان الصبي متعباً جداً بعمل لا يناسب سنّه. وكانت البنت تتألم بصبر كبير. كانت تقول لها وهي تتنهّد:

ـ فعلاً، يا ابنتي المسكينة، أنت لست كثيرة النفع، إذ لا تستطيعين حتى الخياطة بعينين في هذه الحالة، لكن عودي إلى البيت واكنسيه، وهيئي الطعام وأشعلي النار، أنت تقومين بهذه الأعمال خير قيام. ارعي الصغير، انتبهي كي لا يسقط في المستنقع، إذ إنه هو الأكثر تهوراً وعناداً من بينكم، ولا تنسي أن تقدمي الشاي للجدة من حين إلى آخر. تلك هي

أعمالك وتستطيعين بها أن تساعديني. وعندما تتاح لي الفرصة، سأذهب لأشتري مرهماً من أجل عينيك.

هكذا كانت تسعى إلى تعزيتها، لكن الصغيرة من جهتها ما كانت تشجعها هذه الكلمات في مهمتها، لأنها كانت تجلس الساعات الطوال ساكتة تمسح الماء الذي يجري من جفنيها الموجعين، مبتسمة ابتسامتها الصابرة المتجمدة. وكانت الأم أحياناً، حين تنظر إلى ابنتها، وتسمع حنق بكرها، وترى حيوية الصغير في اللعب، تتساءل بمرارة لماذا لم يعودوا يبعثون الارتياح في نفسها الآن، بعدما كانت معجبة بهم عندما كانوا أطفالاً وكانت تجد فيهم مزايا كثيرة.

كانت الأم في بعض الأحيان تلقي نظرات الغيرة على ابنة عمها، ففي ذلك البيت زوج شهم وشريف، ليس بهياً، وهو ملطخ بالوحل دائماً، وأقل اعتناء بنفسه، وأضعف جاذبية مما كان زوجها عليه، لكنه مع ذلك كان مقبولاً. إنه يذهب إلى عمله اليومي، ويعود إلى منزله، يأكل وينام، بمقتضى واجبات الرجال. وهو ينجب أولاداً بانتظام، وزوجته هانئة، مرحة، لا هم لها، سعيدة بطفلها الأخير الذي تضعه على ركبتيها، ونفسها مطمئنة، سطحية، ولسانها الثرثار لا ينفث سمّاً أبداً، وإلى هذا فهي جارة ممتازة، وغالباً ما تأتي لاهثة وتقاسم الأم قطعة لحم أو تعطي الأولاد فاكهة، أو زهرة من ورق صنعتها لتضعها البنت في شعرها. إنه بيت عامر، يفيض بالطيبة والرضى. لذا كانت الأم تشعر بالغيرة، بينما تعظم فيها الرغبة، عميقة، كئيبة، مطّردة.

9

فقط لو أنها استطاعت أن تنسى الرجل، أن تشعر أن كل شيء انتهى بينهما، أن تعرف أنه ميت، مدفون تحت التراب، جامد ومفقود إلى الأبد، لبدت الحياة لها أيسر. لو أن القرية اعتبرتها أرملة لعرفت كيف تصون، بفضل قوتها وطهارتها، الترمّل الحقيقي. ولو أنها سمعت

القرويين يقولون عندما تمر بهم أو يقولون في مكان يصلها قولهم: إن امرأة المرحوم لي هذه لهي أرملة فاضلة. مات هو ودفن وهي تتابع طريقها، بعزيمة ووفاء. في الزمن القديم كانوا ينصبون لشرفها نصباً من مرمر، أو من الحجارة في أقل تقدير.

هذه الكلمات مشجعة، ولكانت وجدت هي نفسها مضطرة، بالضرورة، إلى أن تماثل الصورة التي يكوّنونها عنها، ولسارت سيرة أفضل لأن الرجال يكونون قد حكموا عليها بذلك.

لكن حالها كان على عكس ما أملت، إذ كان عليها أن تجيب على الذين يأتون مستفهمين عن مصير زوجها، أن تكذب بلهجة فرحة، وتلك الأكاذيب تفرض عليها أن تفكر به دائماً. كانت تُسأل:

ـ هذه هي أنت يا معلمة هل تلقيت رسالة أو قابلت ساعياً حمل إليك أخبار زوجك؟

وتكون عندئذ في الطريق إلى السوق، حملها على كتفها، أو تكون راجعة بتؤدة ورفق وسلالها فارغة، وقد بلغ بها الإعياء مداه، ومع ذلك عليها أن تجيب:

ـ نعم، لقد سمعت أنه بخير، لكنه لا يكتب إلاّ مرة في العام.

وعند عودتها كانت تشعر أنها محطمة بفعل الأكاذيب. وفي وحدتها الحزينة كانت تقول لنفسها:

ـ أنا امرأة بائسة شقية، ليس لي رجل غير الذي اخترعته بألفاظي وكوّنته بخداعي.

وفي تلك اللحظات المريرة، تجلس وتنظر إلى الزقاق وتقول لنفسها بحسرة:

ـ ثوبه الأزرق سأراه من بعيد، إذا ما خطر له أن يعود إلى بيته. كان ثوباً بزرقة صافية جداً!

في كل مرة تلمح بقعة زرقاء يختلج قلبها في صدرها. وعندما يمر

رجل مرتدياً ثوباً أزرق، على بعد مسافة، لا تستطيع أن تمنع نفسها من التوقف عن العمل، وتحبس أنفاسها، لترى من أين أقبل. كانت تظلل بكفّها على عينيها إذا كانت في الحقول ويسقط معزقها من يدها فيما هي تتساءل عن الجهة التي يقصدها، إن كان يقترب أو يبتعد. ولم يكن أبداً ذلك الثوب الأزرق إياه! واللون الأزرق لون عام يمكن لأي رجل عادي، ولأي رجل فقير، لأي رجل أن يرتديه.

كانت أكاذيبها نفسها تثيرها أحياناً: إنه ليس في مستواها، مستوى أكاذيبها. فلو أنه عاد لأشبعته لعنات ولتركت لسخطها العنان، لكنها كانت تحبه، تحبه لأنه كان يعذبها. وقد يستمر ذلك التمرد، في بعض الأحيان، أياماً عديدة، تظهر هي خلالها عابسة كالحة الوجه تنهر أولادها والجدة وتطرد الكلب بقسوة بمعزقها. لكنها في قرارة نفسها كانت تتعذب بصورة أشد إيلاماً.

كانت تجتاز أزمة من تلك الأزمات عندما حان وقت كيل الأرز، بعد الحصاد. ولمرة أخرى، أنجزت العمل وحدها، حصدت ودرست، بمساعدة ابنها الفتى، وابن العم الطيب الذي أوقف على العمل من أجلها يوماً أو يومين. والآن يجب اقتسام الحبوب. كان يخيل إليها أن ذلك الوهج الظامئ وذلك الغضب فيها قد زاد في حساسيتها، حتى غدا كل ما تقع عيناها عليه يجرحها، وصارت تميز أشياء تمر في العادة، بصورة عامة، مرّ الكرام.

وفيما كانت الرغبة تنهش أعصابها، شاهدت الوكيل واقفاً إلى جانب كومة الأرز. كان الرجل طويلاً، مرتدياً ثوباً حريرياً رمادياً، كانت رأسه الجميلة مربعة، ونظرته جريئة. كان يحافظ دائماً على هيئته التي كانت تذكرها له، مظهر متواضع وعينان واسعتان بهدب كثيفة. أدركت المرأة الشابة، من الطريقة التي كان يتفرّس بها، أنه قد سمع أخبارها، وعلم بحالها، بزوجها الراحل، وعودته المؤجلة دائماً. كان قلبها في ذلك الحين مضطرب الوجيب، وكان في وسع الرجل أن يدرك حالها. ثم إن

الوكيل كان في الحقيقة رجلاً من أولئك الرجال الذين لا يستطيعون أن ينظروا إلى امرأة وحيدة دون أن يتساءلوا في السر عمّن تكون، وبماذا تفكر، وكيف هو جسدها. كانت روحه روح كلب رغم هيئته المهيبة ووجهه العريض الممتلئ وصوته الذي يعرف كيف يجعله صريحاً جذلاً. وبالرغم من دماثته الظاهرة، وكلماته اليسيرة، كان المزارعون يكرهونه، وكانوا كذلك يخشونه، لصعوبة مراسه وحدة مزاجه، ولجسمه الضخم، وقبضتيه الكبيرتين اللتين يضغط بهما على ساقيه عندما يساومونه أو يعارضونه. وعندما يرفع جفنيه يُظهر عينيه البراقتين الرهيبتين، السوداوين القاسيتين. ومع هذا كانوا يتفكهون معه أحياناً، لأنه حين يُعطى حصته دون مساومة كان يمازحهم ليضع البلسم على الجرح، ويعبر بطريقة لا يستطيع السامع لها إلاّ أن يضحك، ولو كرهها.

هكذا كان يبدي انشراحاً في ذلك اليوم عندما جاء إلى المنزل حيث كان يعرف أن المرأة تسكن وحدها. وخاطب ابنها البكر بطلاقة:

ـ أرى أنّ في وسع أمك أن تستغني عن أبيك، عندما يكون بقربها رجل مثلك، ليشتغل في الحقول!

تمايل الصبي بحذق ومرح وقال بخجل وتبجح:

ـ أي نعم، إني أعمل ما يُسند إليّ من أعمال.

ثم بصق بعيداً مقلداً بذلك الأشخاص الكبار، وأسند ذراعيه إلى ردفيه الضعيفين، وشعر بأنه أصبح رجلاً.

ضحك الوكيل ونظر إلى الأم باشاً ليبادلها التفكه من حال الصبي. ولم تستطع المرأة الشابة إلاّ أن تبادله الابتسام، وقدمت له الشاي الذي كانت قد حضرته، وذلك ما تفعله عادة مع كل ضيف غريب. وحين وجدت نفسها قريبة من عينيه الضاحكتين لم تتمكن من أن تمنع نفسها من النظر إليهما، وتركت ـ دون أن تدري ـ نهم قلبها الكبير الجائع يظهر في عينيها. فانكمش وتعضل. وتناول الكأس التي كانت تقدمها إليه،

ومس يدها، بصورة بدت عفوية. وفهمت المرأة معنى تلك اللمسة المحرقة.

أشاحت بوجهها، خجلة، ورفضت أن تصغي إلى صرخة قلبها، وباشرت في كيل الحبوب، وفجأة خافت من نفسها، وقالت لابنها بصوت خفيض:

ـ أسرع إلى بيت ابن العم، واطلب إليه أن يحضر.

وفكرت لتهدئ اضطرابها:

«عندما سيكون هنا.. عندما سيكون هنا ابن عمنا الطيب..».

لكن الصبي راح يجادل باعتزاز وعناد، قائلاً:

ـ إني هنا، يا أمي، وسأساعدك، لست بحاجة إلى أحد، أنا هنا.

ضرب الوكيل ركبته براحته، وأطلق ضحكة عريضة؛ قال منتهزاً براءة الصبي:

ـ بكل تأكيد، يا ولدي. في وسع أمك أن تستغني عن مساعدة أي رجل آخر!

حث هذا التشجيع الصبي على الاحتجاج بجرأة لعدم اقتناع أمه وقولها إن من الأفضل أن يكون ابن عمنا هنا. وأن يصرخ:

ـ لا، يا أمي! لن أناديه. أنا كبير بما يكفي.

تناول الميزان ومال وهو يملأ المكيال أرزًا، فضحكت المرأة، وهي منزعجة، لكن قوة كانت ترغمها على أن ترضخ. وتركته يفعل.

عندما تم وزن الحبوب، ملأت هي مكيالاً زيادة، لتعطيه الوكيل، فرفضها هذا الأخير بحركة نبيلة، وداعب شفته السفلى وهو يثبت نظرة شرهة على وجه المرأة، إذ لم يكن هناك أحد، سوى الأولاد والجدة التي كانت نائمة تحت طنف الباب، قال للأم:

ـ لا، لا أريد، أنت امرأة وحيدة، زوجك قد ذهب، وكل هذا ثمرة

جهدك. لن آخذ غير حصة المالك، كي أتجنب الملامة. أما من جهتي فلن أقبل منك أية إتاوة، يا معلمة.

فجأة انتاب الأم الخوف. كانت تشعر بالخجل، رغم - أو من جراء - عذوبة تلك النار التي كانت تتأجج داخلها. وألحت عليه كي يأخذ حصته، فرفض بحركة بدت عفوية، ووضع راحته على يد المرأة. وبعزيمة صارمة صب الأرز الذي خصص له في السلة التي تحتفظ المرأة فيها بأرزّها.

ولم تواتها القدرة على مزيد من الإلحاح، إذ كانت أساليب الرجل الباسمة، ووجهه السويّ، وثوبه الرمادي الأنيق، من كل هذا جميعاً تشع قوة عجيبة، تحت شمس الخريف الساطعة، تلف المرأة، وتلحسها كلسان من نار. وكفتاة غضة الإهاب أحنت رأسها ولزمت الصمت بعد أن رد لها حصته وابتعد ضاحكاً محيياً، فلم تستطع أن تتلفظ بكلمة واحدة. كانت منتصبة على رجليها العاريتين الغائصتين في نعلين مثقوبين، جامدة تفتل ثنية سترتها القطنية المرقعة.

وبعد أن رحل، رفعت عينيها وشاهدته يبتعد، وفي اللحظة نفسها التفت وفاجأ نظرتها، فحيّاها وضحك من جديد، لكن بطريقة جعلتها تأسف فيما بعد ألف مرة لأنها لم تبق ناكسة الرأس، لكن الإغراء في تلك اللحظة كان لا يقاوم. فقال ابنها مسروراً:

ـ رجل شهم، يا أمي، لأنه لم يشأ أن يأخذ حصته. إني لم أسمع قط بوكيل طيب إلى حد أنه يرفض تناول ما يقدم له.

وعندما توجهت المرأة الشابة إلى المطبخ - صامتة وحالمة بما جرى لها - لحق بها الصبي وكرر:

ـ أليس رجلاً طيباً، يا أم، لعدم قبوله شيئاً لنفسه؟

وبما أن الصبي لم يظفر بأي جواب صاح بنفاد صبر:

ـ يا أم، يا أم!..

اضطربت الأم على حين غرة وأجابت بعصبية:

ـ أوه.. بلى. يا بنيّ.

وتابع الصبي باندفاع ودون توقف:

ـ رجل طيب يا أم! انظري كيف أنه لم يشأ أن يقبل منك شيئاً لأنه يعرف كم أننا فقراء منذ رحيل أبي.

ووقفت الأم وجمدت، وغطاء القدر في يدها، وتأملت ابنها مليّاً، وشعرت بالخجل وهي تحت تأثير تلك الحمى العذبة التي أمرضتها.. شعرت بصدى غريب يهتز في أعماق فؤادها:

ـ ألم يشأ إذاً أن يقبل شيئاً مني؟

لكنها لم تجب الطفل.

*

لكن الوكيل أيضاً لم يتوصل إلى نسيان وهج المرأة. كان يختلق أعذاراً لا تنتهي ليعود إلى القرية. مرة، يريد أن يدقق في حساب خاطئ، ومرة أخرى ليتشكى من مزارع أنقص حصة المالك، وفي أغلب المرات كان يزور ابن العم الذي يجاور بيت الأم.. كان، في كل مناسبة، يحضر بذر قطن جديد برهن على صلاحيته الجيدة في بقاع أخرى، أو كان يقود وراءه رجلاً محملاً بالكلس لتسميد الأرض. وكان ابن العم مندهشاً لتلك الزيارات المتكررة، ويخشى مكيدة ما، بل يقلق لعدم اكتشافها. قال مرة لامرأته:

ـ من الممكن أن يكون الوكيل قد بيّت شرّاً لأحد ما حتى يبقى في القرية كل هذه المدة في هذه المرة.

وكان يراقب الوكيل بقلق، ويجلس أمامه لا يفارقه بالنظر إليه، ومع هذا فهو متلهّف جزوع على عمله، لكنه كان يخشى أن يقصّر بحق شخص يستطيع أن يضرّ به.

لكن ابن العم وزوجته لم يتنبّها إلى النظرات التي كان الوكيل يرسلها

إلى المرأة التي هي في الجانب الآخر من الطريق، كان لا يمكث سوى لحظة عندما تكون غائبة، لكنه إذا ما رآها اتخذ له مقعداً تجاهها وصاح بصوت جذل كذوب:

ـ يا صديقي الطيب، ليس عندي شيء آخر أقوله لك. إنني رجل طيب، أنا أيضاً، فلاح، يحب فوق كل شيء أن يستريح أمام باب مزارع شريف، وأن تغرقه أشعة شمس الخريف.

لكنَّ عينيه لم تكونا تفارقان المكان حيث ـ في الجانب الآخر ـ المرأة تخيط أو تغزل.

كان الفصل هو الفصل الذي تغوص فيه الطبيعة رويداً رويداً في خدر الشتاء. كان القمح ـ وقد بذر في أراضٍ جافة ـ ينتظر المطر لينبت. كان لدى الأم متسع، وكانت تجلس أمام الباب، ترقع الثياب القديمة وتصنع نعالاً جديدة. كان نظر ابنتها يزداد سوءاً ولم يكن من الممكن أن تأمل في مساعدتها. وهكذا كانت تجلس تحت أشعة الشمس التماساً للحرارة، تصغي، وهي نصف حالمة، لثرثرة الجدة وكلام أولادها. كانت شفتاها تلزمان الصمت، ولا تنفرجان عن حرف واحد. كان لون جلدها برونزياً بفعل تعرضه للشمس، وكان شعرها يلمع، أسود أثيثاً، وكان لديها متسع من الوقت لتمشيطه كل يوم، وهكذا كانت تبدو أصغر من سنها رغم أنها لم تكن قد بلغت الخامسة والثلاثين.

كانت تدرك تماماً أن الرجل موجود على بعد خطوات منها، في جانب الطريق الآخر، لكنها تتحاشى رفع عينيها، وأحياناً، حين تشعر بنظر الوكيل مصوباً عليها بإلحاح، كانت تنهض وتدخل البيت وتبقى فيه حتى ذهابه.

كانت تدرك جيداً لماذا يأتي ويتفرس فيها بهذا الشكل، ولا تستطيع أن تنسى هذا الرجل.

وطيلة أيام الشتاء كانت تفكر فيه، عندما اشتدت وطأة البرد كف عن

قطع المسافة رغم خطته، وعندما تساقط الثلج وراحت الرياح تعصف عنيفة جافة كان يمكنها أن تنساه.

لكنها لم تتمكن من نسيانه.

وحلّ رأس السنة مرة جديدة. وكما فعلت في السنوات السابقة فإنها ذهبت إلى المدينة، وباعت حباً، وبدلت العملة بقطع نقدية، وبحثت عن كاتب آخر ليكتب إلى عنوانها رسالة على أنها من زوجها. ولمرة جديدة أصغت القرية إلى الأخبار، وعرفت أن زوجها قد أرسل إليها مالاً.

على أنَّ الحسد كله الذي كانت تثيره، وكل الكلام والإطراء الذي كان يُكال لها لم يكن ليملأ فراغ روحها، حتى إنَّ الزهو لم يعد يكفيها. كانت تصغي إلى قراءة الرسالة ووجهها هادئ غير مُبال.

لكنها عندما حل المساء وضعت الرسالة في الفرن حيث يحترق العشب. وبعد ذلك ذهبت إلى غرفتها، ثم فتحت درج الطاولة الصغير وأخرجت الرسائل الثلاث، إذ كان غياب زوجها يعود إلى زمن بعيد! وحملتها ووضعتها في النار.

فاجأها ابنها فبادرها صائحاً مشدوهاً:

ـ هل تحرقين رسائل أبي؟

فأجابت الأم باردة برودة الموت؛ مثبتة عينيها على النار المتأجِّجة:

ـ نعم.

قال ابنها بلهجة دامعة:

ـ لكن كيف لنا أن نعرف أين هو؟

قالت الأم:

ـ أنا أعرف. هل تظن أني أستطيع أن أنسى؟

وهكذا أفرغت قلبها، ونظفت المكان.

*

لكن كيف يمكن لقلب أن يحيا عندما يكون فارغاً؟

وفي يوم، بعد فترة قصيرة، ذهبت إلى المدينة لتستبدل ورقتها المالية بقطع نقود معدنية، إذ باتت تقضي حوائجها وحدها، لا تطلب مساعدة ابن عمها إلاّ نادراً، وحين أخذت في يدها القطع الرنانة التفتت لتنصرف، لكن رجلاً كان يقف في الشارع بجوار الباب. كان يبتسم ويمس شفته السفلى. كان ذلك الرجل وكيل مالك الأرض.

لم تكن رأته على هذا القرب منذ آخر الخريف، ولم يكن أحد من حولهما يعرفهما.

نظر إليها مبتسماً نظرة جريئة وسألها:

ـ ماذا تفعلين هنا إذاً، يا معلمة؟

ـ كنت أستبدل قليلاً من المال..

وقطعت كلامها، كانت على وشك أن تضيف:

ـ المال الذي أرسله زوجي إليّ.

لكن الألفاظ لم تستطع الخروج من بين شفتيها، فلم تتلفظها.

قال وعيناه مسمّرتان عليها بإلحاح:

ـ ثم ماذا، بعد هذا؟

أخفضت رأسها وحاولت التكلم حسب عادتها:

ـ بودي أن أشتري دبوساً فضيّاً، أو ملبَّساً بالفضّة فقط، ليمسك شعري. لقد بلي دبوسي من كثرة الاستعمال، وانكسر البارحة.

كانت تقول الصدق، دون أن تشعر، فدبوسها قد انكسر فعلاً. ثم إنها ابتعدت عنه، إذ كانت تشعر بالحياء وهي تحادث رجلاً في وسط المدينة، حتى في مجتمع لا يعرفها. كان هو يتميز عن الآخرين بقامته المديدة، ووجهه المربع، وشحوبه. وبدأ المارة ينظرون إليهما باستغراب.

لحق الرجل بها، بينما كانت تتابع طريقها هادئة متواضعة، كانت تشعر بوجوده خلفها، وكانت تخشى ألا تطابق أعمالها أقوالها. ولذلك دخلت حانوت صياغة صغيراً كانت تعرفه، ووقفت خلف الطاولة وطلبت دبابيس من نحاس ملبّسة بالفضة. وبانتظار ذلك راحت تعبث بقرطين من فضة كانا تحت متناول يدها. وفجأة دخل الوكيل وتقدم، ودون أن يبدي معرفة لها، سأل الصائغ:

ـ كم تبيع هذين القرطين؟

أجاب البائع:

ـ سأزنهما، وأبيعهما لك بأمانة، تبعاً لوزنهما.

كان الوكيل يرتدي ثوباً حريرياً، وهو لا شك ـ بالنسبة إلى الصائغ ـ زبون أفضل من تلك القروية بسترتها القطنية الزرقاء، لذلك لم يبادر في عرض الدبابيس عليها. اكتفت المرأة بالتزام السكون، وأدارت رأسها كيلا ترى تلك النظرة السريعة الخاطفة. وانتظر الرجل بهدوء إلى أن زان الصائغ القرطين في ميزانه الصغير. ثم قال بصوت مرتفع:

ـ إنشان ونصف.

ثم أضاف متملّقاً، بصوت أقل ارتفاعاً:

ـ بما أنك تشتري هذين القرطين لسيدتك، فلماذا لا تضيف عليهما خاتمين؟ إنهما متجانسان معهما. ستكون هدية رائعة، تثلج قلب المرأة مباشرة.

ابتسم الوكيل وقال بعدم اكتراث:

ـ أضفهما.

ثم أضاف بابتسامة شارحاً:

ـ لكن ليس لي زوجة. لقد ماتت امرأتي منذ ستة أشهر.

أسرع الصائغ وأضاف الخاتمين، سعيداً لإبرام تلك الصفقة. وقال:

ـ اهدها إذاً لزوجة جديدة.

لم يجب الوكيل بكلمة، وإنما حدجه بنظرة وداعب شفته ولم يبد في أية لحظة أنه لاحظ وجود القروية، بل أخذ الحلي بعد أن وضعت في غلاف ضمن علبة وانصرف.

لكن ما كاد يدير ظهره حتى زفرت الأم وهي تشاهده يبتعد. كانت تشعر بغيرة غامضة من تلك التي ستقدم تلك الحلي إليها، لأنها كانت ترغب في أن تملك مثلها، حتى قبل زواجها، وكانت تلك تطابق كل المطابقة الحلي التي زعمت أنها أوصت عليها، حسب رغبة زوجها، إذ كثيراً ما كانت النسوة الثرثارات في القرية يسألنها:

ـ أين هي الخواتم التي تتحدثين عنها؟ أرينا شكلها.

وكانت الأم تجد نفسها مرتبكة أحياناً، وتجيب حائرة:

ـ لم ينته الصائغ من صياغتها بعد.

وفي مرة أخرى تقول:

ـ لقد نزعتها، ولا أذكر المكان الذي وضعتها فيه.

وقد اختلقت الأعذار في ذلك العام أيضاً، عندما سألتها الأرملة الثرثارة بخبث:

ـ ألن تضعي تلك الخواتم في أصابعك إذاً؟

أجابتها الأم:

ـ إن قلبي لا يطاوعني. سأضعها يوم يعود زوجي.

بعد أن اشترت الدبوس وشكته في شعرها، سلكت طريق العودة، ورؤية تلك الحلي الثمينة المصاغة بدقة تتمثل من جديد أمام عينيها، فأطلقت تنهدة لشعورها بأنها عاجزة عن شراء تلك الأشياء بمال تجنيه بكل ذلك الجهد. ثم إن أحداً لم يعد يهتم بما تضع أو بما لا تضع، وليس لها إلاّ أن تبقى كما هي.

كانت نُهبة تلك الخواطر الكئيبة عندما اجتازت باب المدينة وسلكت الطريق الريفي الضيق الذي يصل القرية بالشارع العريض.

كانت تفكر في بيتها، وفي العشاء الذي ينتظرها، لأن لذة الأكل غدت المتعة الوحيدة المتاحة لجسمها.

وفجأة ظهر الرجل في عتمة ذلك النهار الشتائي القصير. ظهر فجأة، مغطًى بالسواد وقبض على معصم المرأة بيده الكبيرة القوية. لم يكن ثمة أحد في الجوار. كانت الساعة هي تلك التي يكون الفلاحون فيها قد أووا إلى بيوتهم. كان هواء الليل ثلجياً، والجو بارداً، إلى حد لا يترك أحداً معه يتباطأ في الخارج، اللهم إلاّ من كان في حالة اضطرار. ومع هذا كان هو هنا، يمسك بمعصمها، ويضغط عليه. وكانت يد الرجل التي تثقل على يدها تخدرها، وتُشعرها بجمود مطلق.

ثم سحب علبة الحلي الصغيرة بيده الثانية ووضعها في يد المرأة التي كان لا يزال ممسكاً بها. وأطبق أصابعها عليها، وهو يقول:

ـ إني لم أشتر هذه الحلي إلاّ لك، لك وحدك. إنها لك.

ثم غاب في الظل المعتم خلف حائط المدينة، تاركاً إياها وحدها مع العلبة.

عندئذ ثابت إلى نفسها وعدت وراءه صارخة:

ـ هذا مستحيل.. إني لا أستطيع!

لكنه كان قد اختفى.

ودخلت باب المدينة ثانية، ونظرت حولها على ضياء الحوانيت المفتوحة المتذبذب؛ فلم تجده؛ ولم تجرؤ على التقدم أكثر داخل المدينة. كان يخجلها أن تجد نفسها وجهاً لوجه أمام الوكيل في ذلك الضياء المعتم. كانت تنتظر مرتابة مضطربة. وصاح فيها الجنود الذين يحرسون أبواب المدينة بنفاد صبر:

ـ يا معلمة، إذا كنت تريدين أن تجتازي الباب هذا المساء، فأسرعي،

إذ حانت ساعة إغلاقه بسبب الشيوعيين، قطاعي الطرق الجدد، الذين جاؤونا.

وسلكت طريقها إلى بيتها، صعدت التلة وهبطت الوادي. وبعد فترة خبأت الحلي بين ثدييها، وما كادت تغيب الشمس حتى أطل القمر، بارداً منيراً.

عندما دخلت المرأة المنزل كان الأولاد في السرير والجدة نائمة. وظل الصبي فقط مستيقظاً، حين شاهد أمه صاح:

ـ كنت قلقاً عليك، يا أمي، كان بودي أن أذهب إلى ملاقاتك، لكني خشيت أن أترك أخويَّ والجدة وحدهم.

لم يبعث ذلك الأسلوب في الإشارة إلى أخيه وأخته، كما لو كان هو رجلاً بالنسبة إليهما، لم يبعث في الأم حتى ابتسامة صغيرة، فأجابت:

ـ نعم، هذه أنا أخيراً، وتعبة جداً في الواقع!

وبحثت عن قليل من طعام وتناولته بارداً، والحلي مخبوءة في صدرها. بعد أن تناولت طعامها ألقت نظرة على السرير فوجدت، على ضوء الشمعة، أن ابنها البكر قد نام بدوره، فردت سجف السرير وجلست أمام الطاولة، وأخرجت من صدرها العلبة الصغيرة، ونزعت الورق الحريري الذي يغلفها، وفتحتها لتجد الخاتمين البيضويّين البراقين، والقرطين اللذين يتدلى من كل واحد منهما ثلاث سلاسل دقيقة معلق في آخر كل واحدة منها صورة. فأخذتهما الأم كي تتفحصهما عن كثب بين يديها الخشنتين. كان في نهاية إحدى السلاسل سمكة صغيرة، وفي الثانية جرس، وفي الثالثة كوكب مذنب. كانت تلك الحلية المصاغة بدقة تصلح لتجعل أية امرأة سعيدة، أما الأم فإنها لم تضع قط في كفيها الخشنين السمراوين أشياء بهذا الجمال. وظلت جالسة تتأملها، ثم زفرت زفرة طويلة، وردتها إلى علبتها، وهي لا تدري ماذا تفعل بها ولا كيف تردها إلى هذا الرجل.

لكنها عندما انسلت تحت الغطاء بجانب الأطفال لم تستطع النوم. كان جسمها بارداً من برودة الليلة الرطب، وكان خداها ملتهبين. وباتت أرقة أرقاً طويلاً قبل أن تغفو. وحلمت بغرض عجيب يلمع، وفي الوقت نفسه، بيد رجل حارة جداً تحطّ على جسدها الفاتر.

10

لم ترَ الرجل في ذلك الربيع، لكنها كانت تذكره. وظهر يوماً من جديد في بداية الصيف. كان القمح ملوّناً بلون الذهب، وكانت المرأة قد انتهت من غرس الأرز. وفي مربعات بلون اليشم كانت الحبوب تطل برؤوسها الخضراء الطرية التي كانت الجدة تحميها بسهولة من الطيور الشرهة بالنبت الطري. وكانت الأم خلال ذلك الوقت تشعر بثقل قلبها المهجور والملتهب.

في مطلع الصيف أشرق نهار صافٍ مشرب بحرارة خانقة. كانت الصراصر ترسل نداءها الصار للحب حتى النغمة الأشد حدة، ثم تتراخى الأصوات، وببطء تقع في الصمت. كانت الشمس تصب أشعتها، الشبيهة بالنبيذ الأحمر، في أعماق الوادي وعلى زقاق القرية الوحيد، وكانت الطريق المستوية تعكس الحرارة، ويلمع الهواء عليها ويرقص. كان الأطفال يركضون عراة ويلعبون بأجساد ملساء لماعة من العرق المنساب.

ولم تكن تهب أي نسمة.

كانت الأم واقفة أمام عتبة بابها تقول لنفسها إنه لم يسبق لها قط أن كابدت في الصيف حرارة مبكرة مباغتة وخانقة إلى هذه الدرجة. كان الصبي الصغير يركض حتى حافة المستنقع ويجلس في الماء. كان يضحك وينادي رفاقه كي يلحقوا به.

وكان الصبي البكر يخلع سترته ويرفع سرواله، ويضع على رأسه قبعة

عريضة من الخيزران كانت لأبيه، ثم يتوجه صوب الحقل حيث نبتت الذرة الصفراء على وجه الأرض.

وكانت البنت الصغيرة تلزم البيت، بحثاً عن العتمة، وكانت الأم تسمعها تتأوه. كانت المرأة العجوز وحدها فرِحَة تجلس في وضح النور وتتعرى حتى الزنار، وتترك أشعة الشمس تنفذ إلى عظامها البالية، ويتدلى ثدياها من صدرها كقطعتين من الجلد الجاف. وحين لمحت كنتها، قالت لها بصوتها الصافر:

ـ إني لم أخش قط أن أموت في الصيف، يا ابنتي، فالشمس تمنحني دماً جديداً وتجدّد عظامي، يا لي من مخلوقة مسنَّة مسكينة.

لكن الأم لم تكن تحتمل تلك الحرارة. كانت تشعر في جوفها بنار متأججة، وكان دمها يغلي في عروقها، فعزمت على الخروج وأعلنت قائلة:

ـ يجب أن أسقي منابت الأرزّ، فشمس هذا اليوم ستجففها، يا أمنا الكبيرة.

وتناولت معزقها، وعلقت دلوين فارغين على كتفها، وانحدرت إلى الممر الضيق الذي يوصل إلى مستنقع ثان يقع فوق المغارس. كان المشي مواتياً، والهواء منعشاً.

كانت المرأة الشابة تتابع طريقها دون أن تقابل أحداً، لأن الرجال في تلك الساعة كانوا يقيلون بعد الظهر. وإذا صادف وسبق فلاح الآخرين إلى الحقول فإنه كان نائماً، عاجزاً عن العمل، متمدداً في ظل شجرة يخفي وجهه تحت قبعته لتحميه من الذباب، وإلى جانبه يقف ثور مسترخي الجسم من الحرارة الحارقة المخدرة. ومع ذلك، كانت الأم تقاوم تلك الأشعة المحرقة التي تهبط من السماء، والتي هي أشد من أتون بين أربعة حيطان، بل أشد من ذلك الوهج الذي يلهب شرايينها.

نزعت بعض الأعشاب الضارة عن أغراس الأرز، ثم هدمت بآلتها

الإطار الخارجي لمربعات الأرض ووصلتها بخندق صغير إلى المستنقع، وراحت بعد ذلك تنزح الماء بدلويها وتفرغهما في الخندق الذي حفرته؛ ثم أعادت تلك الحركة عدة مرات، فاتخذت الأرض لوناً قاتماً وتشربت بالرطوبة. كان يخيل إليها أنها تسقي كائناً يهلك ظمأً، وأنها تمنحه الحياة.

خلال عملها توقفت لحظة، وضعت الدلوين وذهبت تجلس على حافة المستنقع لتستريح، وألقت نظرة شمالاً جهة القرية فشاهدت رجلاً يتوقف ويتحدث إلى الجدة ويتجه نحوها. فعرفته عندما اقترب. كان وكيل مالك الأرض. كانت حليه لا تزال في حوزتها، فأخفضت رأسها وهي تتساءل كيف تستطيع أن تحدثه في هذا الموضوع دون أن تجرحه. لم تجرؤ أن تذهب وتأتي بها لتردها إليه في رابعة النهار، على مرأى من مار أو من المرأة العجوز التي هي يقظة، وقد تلاحظ ما لا يعنيها.

كان الرجل يتقدم؛ عندما لحق بها نهضت ببطء، إذ كانت هي من طبقة اجتماعية دون، فضلاً عن أنه كان يجب على المرأة أن تقف للرجل.

خاطبها بلهجة طليقة قائلاً:

ـ جئت لأتفقد القمح فقط، ولأقدّر ما ستكون عليه المحاصيل حسب مظهره.

لكنه كان يقول تلك الكلمات، وهو ينزه أنظاره على جسم المرأة الشابة الذي لم يكن يستره غير ثياب خفيفة، من جراء حرارة الجو، وقد لصقت باللحم، سترة مفتوحة وسروال أزرق.

وأخفض عينيه على القدمين السمراوين الحافيتين. فقالت بلهجة جافة، خائفة من قلبها نفسه:

ـ الحقول هناك. انظر إليها وتفقّدها.

نظر إليها من بعيد، دون أن يتحرك، وأجاب بطريقة الحضريين المستحبة:

ـ حقول في حالة جيدة، يا معلمة، لقد شوهدت محاصيل أسوأ مما قد تكون هذا العام.

وأخرج دفتراً صغيراً وكتب عليه بوساطة عُصيَّة صغيرة، لم يسبق لها أن شاهدت مثلها، إذ كانت تجري بمداد أسود دون أن تغطس في الحبر، كما كان الكاتب يفعل. كانت الأم تنظر إلى الوكيل يكتب، وهي تحس بقليل من الفضول، لكن بكبرياء أيضاً. كانت تشعر باعتزاز لأنها استرعت انتباه رجل مهم ومثقّف رغم كون ذلك محظوراً. وقررت ألا تحدثه عن الحلي في ذلك اليوم.

حين فرغ من كتابته، ابتسم وداعب شفته وسألها:

ـ إذا كان لديك وقت فأرشديني إلى حقلك الآخر المزروع قمحاً، فأنا أخلط دائماً بينه وبين حقل ابن عمك.

فقالت، دون أن تعي ما تقول:

ـ حقلي من هذه الجهة وراء الجبل!

وأخفضت رأسها وتناولت معزقها وتظاهرت باستئنافها العمل.

ردّد الرجل قائلاً:

ـ وراء الجبل!

وابتسم. وداعب شفته العريضة الناعمة. وألحّ معيداً:

ـ قوديني إليه إذاً، يا معلمة!

وتفرّس فيها بطريقة نافذة وقحة زلزلت كيانها، فوضعت معزقها وتبعته، ماشية خلفه حسب العادة حين ترافق امرأة رجلاً.

كانت الشمس تسفعها مباشرة، وكانت الأرض، المفروشة بعشب أخضر طري، حارة تحت قدميها، وبعد مسافة قصيرة، شعرت المرأة، تحت وهج الشمس المحرقة، بتخدير مفاجئ عذب، ودون أن تفكر، شعرت بلذة عميقة في تعقب الرجل الذي يمشي أمامها وفي النظر إليه، كانت تتأمل رقبته القوية الشاحبة، اللماعة من العرق المتصبّب،

وأعضاءه التي تتحرك داخل ثوبه الطويل الفضفاض الصقيل، المصنوع من القماش الرقيق، وقدميه في جوربين أبيضين وحذاء من قماش أسود.

كانت تتبعه، حافية القدمين، تسير بصمت.

وحين اقتربت منه تنسّمت الرائحة التي تفوح منه، رائحة قوية جداً كي تكون عطراً، رائحة جسمه ودمه وعرقه، رائحة رجولته. عندما شعرت بها تداعب منخريها، انتابتها رغبة شديدة، وخافت من نفسها، وفزعت من الشيء الذي هي ذاهبة إليه. ووقفت على قارعة الطريق الخضراء وقالت بصوت مرتجف:

ـ لقد نسيت غرضاً لأمي العجوز.

عندما التفت ونظر إليها، رفعت صوتها جافة اللسان، وقد ضعف جسمها الممتلئ همة ونشاطاً، بصورة مفاجئة:

ـ نسيت شيئاً لا بدّ من إحضاره.

ورجعت أدراجها بسرعة قدر استطاعتها؛ وتركته هناك واقفاً ينظر إليها تبتعد.

عادت إلى بيتها فوراً، وتسلّلت دون أن يشعر بها أحد. كانوا جميعاً نياماً. وكانت الحرارة ترتفع كلما تقدم النهار. ومن جانب الطريق الآخر كانت ابنة العم نائمة، وهي جالسة، فاغرة الفم، ورضيعها نائم على ثديها، وفي البيت كانت الجدة نائمة أيضاً، كاشفة عن جذعها كما كانت عندما كانت تعرض جسمها للشمس. أما البنت فقد خرجت من الحجرة الخانقة، ونامت بدورها، مكوّمة حول حجر تستعمله كوسادة، وكذلك كان أخوها الصغير عارياً متمدداً تحت الصفصافة.

كان النهار قد تحوّل، فهو أقل صفاء، وكان سكون الهواء يزداد كلما ارتفعت الحرارة المحرقة، وفوق الجبال كانت سحب كبيرة سوداء منتفخة رهيبة، تزحف بحواشيها الفضية المضاءة بضياء داخلي. كانت حرارة سكون ذلك النهار ورحابته تخنق كل نفس، حتى حركة حشرة

بل سقسقة عصفور.

لكن الأم كانت بعيدة عن الشعور بالحاجة إلى النوم. دخلت بهدوء إلى الغرفة المعتمة الصامتة، وجلست على السرير. كان تدفق الدم يضرب في صدغيها، دم جسدها المتين الظامئ. كانت تعرف ماذا ألمَّ بها، ولم تكن تحاول أن تخدع نفسها، على طريقة نساء المدن اللواتي يزعمن حين يكن في مثل تلك الحال أنهن منحرفات المزاج.

كانت الأم طبيعية بسيطة أبسط من أن تخفي على نفسها شعورها: لم تشعر طيلة حياتها قط بمثل ذلك الفزع، لأنها أدركت أن ذلك الظمأ فيها سينقلب إلى جنون إن هي لم.. إن هي لم..

لم تعد تفكر في احتمال دفع الرجل عنها لإدراكها أن رغبتها شديدة بقدر شدّة رغبته. وأنّت عالياً وهي تقول لنفسها:

«ليته لا يرغب في.. أوه! بودي أن يطردني كي أستطيع أن أنجو»!

لكنها نهضت وهي تئن، تدفعها قوة على ترك السرير. وتركت القرية نائمة ورجعت إلى الحقول، عائدة أدراجها. كانت تتقدم تحت السماء على الطريق الطويلة التي تعرج على معبد صغير متهدّم.

وأمام الباب كان الرجل واقفاً ينتظرها.

كانت عاجزة عن تجاوز المعبد، أو تخطي الرجل إلى داخل المعبد.

لكنها تبعت الرجل حتى المدخل، وألقت نظرة على الداخل حيث المكان ظليل بلا نوافذ. كانت عيناها تلمعان في الظلام كعيني حيوان يترصد. وخطت إلى الأمام، بدورها.

كانا يتواجهان في العتمة، ينظر أحدهما في عيني الآخر، كانا كائنين غارقين في الحلم، محصورين في مكان يستحيل فيه الانسحاب، ماضيين إلى ما ليس في قدرتهما تلافيه، يتهيآن لما يجب أن ينجز!

ومع هذا، فقد ترددت المرأة لحظة.. صحت من حلمها ولمحت الآلهة الثلاثة في المعبد، فالأكبر شيخ وقور ينظر مباشرة أمامه، وعلى

جانبيه ينتصب رفيقاه. كانت آلهة صغيرة شريفة على حافة الطريق، قائمة هناك للذين يتوقفون في طريقهم ليتعبدوا أو ليلتجئوا. وتناولت المرأة الرداء الذي خلعته لتوها وألقت به على رؤوس الآلهة الثلاثة لتغطي عيونهم الجامدة...

11

في مساء ذلك اليوم، نشطت الرياح على حين غرة، وزمجرت كنمر بعيد في الجبل، وطاردت الغيوم في السماء حيث كانت معلقة، مثقلة بالمطر، وقد انطفأ ضياؤها منذ أمد بعيد. وهبطت السيول لتغرق حرارة بعد الظهر، وأخيراً عندما تبددت الأبخرة صحا الجو، لكن مع العاصفة والبرد نزل الموت الذي طال أمد إرجائه، فجأة، على الجدة. لقد نامت طويلاً وتعرى جسمها في أثناء ذلك وتلقى لفح الرياح عند غروب الشمس.

حينما عادت الأم عند الغسق، صامتة، كأنها تعود من الحقول بعد عمل شريف، وجدت المرأة العجوز في السرير، باردة تهزها رعشات أليمة، وتقول:

ـ إن روحاً شريرة استولت عليَّ، يا ابنتي! إن نفساً شريرة هبطت عليَّ.

وكانت تئن، ثم مدّت يدها الصغيرة المعروقة الذابلة، فأمسكتها الأم ووجدتها جافة وحارة.

شعرت الأم بنوع من الغبطة، كان يسعدها أن يشغلها ما لا يدعها تفكّر في قلبها وفي خطيئتها المستعذبة، فهمست:

ـ كانت السماء شريرة سوداء، كنت عازمة على الرجوع، خشية أن تبقي جالسة تحت تلك الغيوم المتجهّمة، لكني فكرت أنك ترين كم هي قاتمة وأنك تلتجئين منها.

أنّت المرأة العجوز، وقالت:

ـ بقيت نائمة، وعندما أفقت، كانت الشمس غائبة، وكنت باردة كالموت.

بادرت الأم على الفور وغلت ماء مع زنجبيل وأعشاب قوية، وسقتها هذا الشراب. ورغم ذلك، ارتفعت حرارتها في الليل. كانت تشتكي من جنّي شرير يجثم على صدرها، يمنعها من التنفس، ويغرز سكيناً في رئتيها، ثم صمتت عن الكلام وارتفع تنفسها أبحَّ من صدرها المضغوط.

كانت المرأة الشابة سعيدة لأنها مُنعت من النوم، راضية لاضطرارها إلى السهر طيلة الليل إلى جانب حماتها، كي تعطيها ماء عندما تطلب بأنة، أو كي ترد عليها الغطاء حين تدفعه وتصرخ أنها تحترق وسط اختلاجها.

في الخارج، كانت الليلة ليلاء، ووابل الأمطار يصفع السقف ويثقبه في أماكن عديدة، حتى أن الأم اضطرت إلى أن تسحب سرير الجدة من زاويته، إذ شرع الماء ينقط عليه. ومدت كذلك غطاء من خيزران على الأولاد النيام لتقيهم الماء الواكف من السقف. كانت تقوم بتلك الأعمال بسرور، فرحة لانشغالها الليلة بطولها.

وفي الصباح، ساءت حالة العجوز المسكينة، لم يكن ثمة من شك في ذلك. فأرسلت الأم ابنها البكر إلى ابن العم، الذي خف مسرعاً تصحبه امرأته وبعض الجارات.. نظروا إلى الجدة التي لم تكن تدرك جيداً، في أول الأمر، ما كان يجري حولها وقد أعمت بصيرتها الحمى والجهد المضني الذي تبذله للتنفس.

كان كل واحد يصرخ، ويشير على شيء أن يحاول، وعلى عقار أن يجرب. وكانت الأم تبادر إلى هذا وتسرع إلى ذاك، ساعية إلى تنفيذ جميع الإرشادات الواحد تلو الآخر.

وفي فترة من الفترات عادت الجدة إلى وعيها، وشاهدت الجمع المحتشد حولها، عندئذ قالت، بتنفس عسير:

ـ جنّي شرير يجلس فوق.. إنها ساعتي.. ساعتي.

فأسرعت الأم واقتربت منها، وفهمت أن المخلوقة العجوز تحاول أن تقول كلمات لا تتمكن من التلفظ بها، وهي تشد بيد مرتجفة على كفنها الذي ترتديه والمرقع أكثر من رقعة.

كانت تضحك في الماضي كلما أُضيفت رقعة إلى الكفن وتقول إنها ستعيش عمراً أطول من هذا الثوب. لكنها الآن تستمر في شده بتواتر، وعندما انحنت الأم قريباً من فمها سمعتها تقول بصوت واهن متقطع:

ـ هذا الكفن المرقع.. ابني..

تبادل الحاضرون النظرات متعجّبين، لكن الصبي البكر قال بسرعة:

ـ إني أعرف ماذا ترغب يا أمي.. إنها تريد كفنها الثالث الجديد، وأن تنام مرتدية ذلك الذي كان أبي قد وعد بأن يرسله إليها. كانت دائماً تؤكد أن الكفن الذي ترتديه سيبلى قبل أن تموت..

انبسطت أسارير العجوز هنيهة، وجميع الذين سمعوا وشاهدوا صاحوا:

ـ أية عزيمة في سنها!

وأضافوا:

ـ هذه عجوز شجاعة، سترتدي كفنها الثالث، كما كانت تقدّر!

وانطبع على القناع المتغضّن نوع من فرح الأموات، وتلفظت الجدة لاهثة:

ـ إني لن أموت.. قبل أن يجهز.. ويوضع علي..

وبسرعة تقرّر جلب القماش. ذهب ابن العم لشرائه، وقالت له الأم:

ـ اشتر خير ما تجد من قماش جيد، قطني، أحمر. وغداً سأرد لك المال.

كانت المرأة الشابة عازمة على أن تمنح حماتها أجمل وأجود قماش ممكن. وفي تلك الليلة نفسها، عندما نام أفراد العائلة جميعاً، حفرت هي الأرض وأخذت المال الضروري كي تحمل الأم العجوز إلى مثواها كما ينبغي.

ومع هذا، كان يبدو أن ذلك الشيء الذي كانت المرأة الشابة تأبى أن تفكر فيه، تلك الساعة التي كانت تطمر ذكراها في أعماق كيانها، وهي منهمكة في العمل بغبطة، تلك الفكرة الدفينة كانت تجعلها طيبة وراغبة في بذل نفسها من أجل ذويها.

فعندما كانت تتصرف بضمير حيّ كانت تشعر بتحرّرها من سرّها الدفين!

لم يغمض لها جفن خلال ليلتين، كانت تجود بنفسها ولا تكترث لراحتها، ولا تزجر أولادها، وتظهر عاطفة لامتناهية مع المحتضرة.

وعندما جاء ابن العم بالقماش قربته جدّاً من العينين اللتين ستنطفئان عما قريب، وصاحت عالياً، إذ كان صمم المرأة العجوز يزداد ساعة بعد ساعة، ويخبو نور بصرها:

ـ تماسكي، يا أمي، إلى أن أُنجز العمل.

وأجابت المخلوقة المسكينة بشجاعة:

ـ نعم، أنا لن أموت.

وكانت الأنفاس تعوزها كي تتكلم، بل لكي تتنفس، إذ أصبح كل نفس تصعّده أليماً وصافراً.

كانت الأم تخيط غاية وسعها، وكانت الإبرة تغرز بأسرع ما يمكن. كانت تصنع الكفن من القماش الجميل اللماع، الأحمر كسترة العروس، بينما كانت المرأة العجوز تنظر إليها، وعيناها مثبتتان على القماش البراق الذي يموج على ركبتيها.

لم تعد الجدة تستطيع أن تزدرد طعاماً أو تتجرع شراباً، بل حتى الحليب البشري الفاتر الذي حلبته جارة طيبة من ثديها بوساطة كأس، إذ سبق لهذا الحليب الطيب أن أنقذ كهلاً مرة. كانت الجدة تنتظر متمسكة بتلك النسمة الخافتة المترددة.

كانت الأم تخيط دون توقف، وكان الجيران يجلبون الطعام كي يوفروا لها الوقت. وأنهت مهمتها في نهار وشطر من الليلة التالية. وظل

ابن العم وزوجته وجارة أو اثنتان ينظرون إليها.

في الحقيقة، كانت القرية بأسرها ساهرة ترقب وتتساءل، أيهما سيربح الشوط: الأم أم الموت؟

وأخيراً، فرغت الأم من العمل، وكان ثوب الكفن القاني جاهزاً. رفع ابن العم الجسم الفاني بينما راحت الأم وابنة العم تلبسان الثوب الجميل الجديد تلك الأعضاء السمراء الذاوية والجافة كأغصان شجرة ميتة. لم تعد المخلوقة المسكينة قادرة على الكلام، إلاّ أنها فهمت.

وبعد حشرجة قصيرة فتحت عينيها جهد طاقتها وابتسمت لكفنها الثالث، ولتحقيق أمنيتها الأخيرة، وماتت منتصرة.

*

بعد يوم الدفن، أقبلت الأم على العمل بجهد كبير، رغم أن أي استعجال غدا دون طائل ولا شيء يستدعيه. كانت تعكف بإصرار وعناد أكثر من أي وقت مضى على أعمال الحقول. وعندما كان ابنها يريد أن يتابع عملاً، كانت قد بدأته، كانت تصيح بنبرة فظة:

ـ اتركني أعمل! الجدة العجوز خلّفت مكانها فراغاً أكثر مما كنت أقدّر، يخزني ضميري لأني لم أعد إلى البيت في ذلك اليوم العاصف كي أضعها في الدفء داخل البيت عندما غابت الشمس!

كانت تترك كل من في القرية يعتقد أنها تبكي حماتها نادمة. كان كثير منهم يفصح عن إعجابه بها على صدق حزنها، ويقول:

ـ يا لها من كنةٍ طيبة كي تأسف بهذا الشكل على حماتها العجوز!

وكانوا يعزونها ويردّدون:

ـ لا تحزني ولا تندبي يا معلمة! كانت قد بلغت من الكبر عتياً، لقد أنهت حياتها، ولماذا الحسرة على تلك اللحظة التي كُتِبت على كل منا حتى قبل أن يتعلم المشي أو الكلام؟ زوجك لا يزال حياً، ولديك صبيان، تشجعي يا معلمة!

كان في كلامهم عزاء للأم، إذ وجدت فيه مسوّغاً كي تخفي حزنها وخوفها المبهم. لقد كان لديها ما يقلقها. في الحقول كانت تجد متسعاً من الوقت لتنبش في أعماق قلبها وتفكر في ذلك الخوف الذي تطويه بين جنباتها منذ تلك الساعة، ساعة العاصفة الرهيبة. كانت في الأيام السابقة راضية نوعاً ما، بل لقد سرّها موت المرأة العجوز، إذ كانت تقول في نفسها بأسى:

«من الأفضل أن تكون المسكينة قد رحلت من أن تعرف ما أخشى وقوعه»!

مضى شهر وانتابها الخوف. ومضى شهران، وثلاثة أشهر، وحل موسم الحصاد، فعندما كانت الحبوب تدرس، غدا يقيناً ما كان في أثناء عملها اليوميّ تخشاه سرّاً. لم يبق أمامها أي مجال للشك. إن أسوأ ما يمكن أن يصيبها قد حل بها، هي، أم ولدين ذكرين، ربة بيت تحترمه القرية بأسرها.

ولعنت ذلك اليوم، يوم العاصفة، ولعنت وهجها الجنوني.

كيف أنها لم تشك بأن جسدها الذي كان ملتهباً متفتحاً بتأججه، وقلبها المأخوذ برغبة وحيدة جموح، بأن تلك اللحظة يجب أن تحمل ثمارها؟ والرجل، هو أيضاً، كان قوياً وصحيحاً، وسلطته غامرة، كيف استطاعت أن تخمّن بأن يكون الأمر بخلاف ما هو كائن؟

أمومة عجيبة تحافظ عليها في الخفاء، وتراقبها بذعر ووجوم في الليل بينما الأولاد نيام.

كانت الأم لا تجسر على أن تظهر انحراف صحتها، إذ كان هذا الشيء غريباً جديداً. فعندما كانت تحمل أولادها الشرعيين لم تكن تشعر بأي انحراف، أما الآن فلا تكاد تبتلع لقمة حتى يصيبها الغثيان. كان يبدو كأن تلك النطفة في رحمها تنمو بقوة العشبة الضارة، وتعامل جسمها بلا رحمة، ويجب أن يبقى كل هذا طي الكتمان.

وليلة بعد ليلة، كان التمدّد يضايق الأم، فتجلس على سريرها لتئن،

وتقول لنفسها:

«بودي أن أشعر بوحدتي من جديد، ألاّ أحس بهذا الشيء في أحشائي، بودي أن أكون كما كنت، لأكون سعيدة»!.

وغالباً ما كانت تخطر فكرة الانتحار على بالها، أن تشنق نفسها. لكن ذلك كان مستحيلاً. كانت تنظر إلى أولادها وهم نيام، أولادها من لحمها ودمها، وكانت لا تستطيع أن تتقبل فكرة حضور جيرانها لتفحص جسمها واكتشاف سبب انتحارها. لقد سُدّت السبل جميعها ولم يبق أمامها سوى الاستمرار في العيش.

ورغم آلامها ورغم الحقد الذي كانت تضمره عليه، فقد كانت لا تزال ترغب فيه، إذ لم تكن قد شفيت من الميل الذي يجذبها إلى ذلك الحضري؛ ويمكن القول إنه كان يمسكها بذلك المأخذ الخفي الذي كان ينمو في داخلها.

كانت نادمة لأنها استسلمت له وسلمت جسدها، ومع ذلك، ورغم الخجل الصادق، والأسف العميق، لأنها لم تقاوم، كانت تتحسر لبعده ليلاً ونهاراً. غير أنها ما كانت لتجرؤ على الذهاب للبحث عنه خشية أن يعلم أحد بذلك. ثم إن تلك الملاحقة تجعل منها، كما كان يخيل إليها، امرأة ساقطة، مستعدة أن تستجيب لرغبة أول عابر سبيل.

كان الرجل، لغرابة الأمر، قد اكتفى منها. لم يأتِ طوال فصل الصيف، ولم يظهر إلاّ بعد الحصاد، ليقوم بواجباته.

كان يجلس، صلباً وطماعاً كعهده الأول، يطالب بحصته كاملة غير منقوصة.

سأل الصبي أمه مدهوشاً:

ـ بِمَ أغظناه يا أم، لقد كان غاية في اللطف والرقة في الصيف الماضي!

أجابت الأم بعبوس:

ـ كيف لي أن أعلم؟

بيد أنها علمت واقع الأمر تماماً عندما رفض الوكيل أن ينظر إليها.

لم يلق عليها ولو نظرة عابرة يوم عيد الحصاد، مع أنها كانت قد اغتسلت، ومشطت شعرها ودهنته بالزيت وارتدت سترة وسروالاً نظيفين، وجوربيها الوحيدين والحذاء الذي صنعته لدفن حماتها. ارتدت كل ذلك مع أمل بائس في القلب، وضيق يصبغ وجنتيها بالاحمرار. وقد رد ذلك الخوف الرهيب الخفي نظرها محموماً. وذهبت إلى مكان الحفل وحامت حول الوكيل، كانت تخاطب معارفها يميناً ويساراً، وتجهد لتحدث ضوضاء وتظهر فَرِحَة. كان النسوة يدهشن لخديها المتورّدين، ونظراتها البراقة، إذ كنّ قد عهدنها هادئة ساكنة في حضرة الرجال.

ورغم كل ذلك، كان لا يعيرها أي التفاتة. كان يشرب نبيذ الأرز الجديد، يتذوقه ويتلمظه ويصيح بالمزارعين بصوت جهوري قوي:

ـ سآخذ منه جرة أو جرتين إذا كنتم تستطيعون أن تتنازلوا عنهما. اختموهما بالطين كي تحافظا على جودة الخمرة.

وكان يبدو كأنه لا يرى الأم، ولا يشعر بوجودها. وعندما مرت قربه ألقى عليها نظرة عابرة كما ينظر إلى أية قروية مجهولة منه.

كانت المرأة الشابة تدرك أنها ستشعر بالراحة إذا كفّ عن ملاحقتها، إلاّ أنها لم تكن تتحمّل تلك الفكرة، فكرة اكتفائه منها. وعادت إلى البيت بعد الظهر، عند منتصف الحفلة، وأخرجت من مخبئها، بيد مضطربة، الحلي التي كان قد أعطاها إياها. وعلقت القرطين في أذنيها مكان الخيط الحديدي الصغير الذي أبقته طوال أعوام كي يمنع الثقب من أن يلتئم، وضمت الخاتمين في أصابع خشنة غليظة، وعادت إلى الحفلة ووقفت قريباً من المائدة مع النساء اللواتي يقدمن الطعام إلى الرجال، ساعية جهدها كي تسترعي انتباه الوكيل.

كانت الأرملة الثرثارة مسرورة في ذلك اليوم، وكانت تعرض أكثر ما

تستطيع نعليها الجديدين، وعندما شاهدت الأم صاحت:

ـ هذه أنت يا معلمة! لقد اشتريت حليّك أخيراً رغم كل شيء، وتزيّنت بها رغم أن زوجك لا يزال غائباً!

قالت ذلك بصوت عال لفت انتباه النساء جميعاً إليها، ورحن يضحكن، وضحك الرجال متمتعين بانشراح النساء، وعندما سمع الوكيل الضحك، والهزء الناعم الموجه إلى الأم، رفع رأسه بعجرفة وتكبّر من فوق زبديته، وألقى على الأم نظرة، وهو ممتلئ الفم بالطعام ثم استمر في المضغ. وبعد ثانية سأل بعدم اكتراث، لكن بصوت مرتفع كي تسمع:

ـ ومَن هي هذه المرأة؟

نظر إلى وجهها القاني، وأدار عينيه كأنه لم يسبق له قط أن رآها، وراح يزدرد طعامه.

شعرت المرأة بوجهها يشحب بسرعة، فتوجهت بخفة إلى الباب، وخرجت مهرولة، بينما كان النساء يتسلين بهزيمتها المخجلة أمام ضحكهن.

اعتكفت الأم اعتباراً من ذلك اليوم. بقيت وحدها مع أولادها، وأخفت نمو ذلك الكائن الوحشي الذي كان يكبر في أحشائها. كانت تتساءل ليل نهار ماذا عساها تفعل؟ كانت تشتغل كعادتها، في الظاهر، ترفع الحبوب، وتجهّز كل شيء لمقدم الشتاء.

وفي عيد نصف الخريف، عندما كانت القرية بأسرها في نشوة، وكان كل بيت ينال نصيبه من فرحته الخاصة، وكان الزقاق الصغير في بهجته وفي طربه، وكان الطعام وافراً في كل مكان، كانت الأم، رغم حزنها، تقدم لأولادها حلوى على شكل أقمار. كانوا يأكلونها تحت شجر الصفصاف، عندما طلع القمر وراح يسطع واضحاً كالشمس.

لكنهم أكلوا بعبوس. كان يبدو كأنهم يشعرون بنقصان السعادة في

بيتهم جراء مزاج أمهم السيئ. وفي النهاية، قال الصبي البكر بلهجة جادة:

ـ أحياناً، أتصور أن أبي قد مات بما أنه لا يعود أبداً.

اضطربت الأم وأجابت بحيوية:

ـ يا لك من ابن عاق، يتكلم عن موت أبيه!

لكن فكرة خطرت له، فقال الصبي بعد قليل:

ـ غالباً ما تنتابني الرغبة في الذهاب للبحث عنه. وأستطيع أن أذهب بعد حصاد القمح هذا العام، إذا أردت أن تعطيني قليلاً من المال، سأحمل ألبسة شتوية على ظهري، قد أحتاج إليها إذا طال البحث وتأخرت في العثور عليه.

تملّك الأم الخوف، وقالت لتغيّر مدار تفكيره:

ـ خذ لك قطعة حلوى أخرى، يا بني، وانتظر سنة أخرى أو أكثر. ماذا أصنع أنا بدونك؟ ماذا أصنع إذا ما اختفيت أنت أيضاً بدورك؟ انتظر ريثما يكبر الصغير، ويستطيع أن يحل محلك.

لكن الصغير صاح بعزم، جامحاً كعادته عندما يريد شيئاً:

ـ إذا ذهب أخي فسأذهب معه.

ومدّ شفتيه وهو ينظر إلى أمه بغضب، وعاتبت الأم ابنها البكر قائلة:

ـ أنت ترى ماذا يحدث عندما تتكلم هكذا، أو تحرك خياله.

ورفضت أن تصغي إليهما أكثر من ذلك.

أدارت المرأة الشابة الفكرة التي خطرت لها؛ ها هي الآن وحدها منذ خمسة أعوام، لو كان زوجها على قيد الحياة لكان قد أعانها. خمسة أعوام.. لقد مات بكل تأكيد. إنها أرملة ولا شك منذ زمن طويل، دون أن تدري.

والوكيل لم يتزوج ثانية وهي أرملة!

كانت تتذكر أنها سمعته يقول إنه فقد زوجته في السنة الفائتة. وفي

ذلك الحين لم تكن تتصور نفسها حرة، ولم تعر لكلماته تلك أية قيمة. لكن الآن، يجب أن تكون هي أرملة!

وتأملت القمر عالياً في السماء، كان الأولاد نياماً، وكانت القرية هاجعة، ما عدا كلباً أو كلبين ينبحان في ضوء الكوكب العظيم. وكلما كانت الأم تزيد الوضع تفكيراً كلما ازدادت الأسباب لتكون أرملة. وعندئذ، إن قال إنه يريد أن يتزوج بها، فهل يكون ذلك مبكِّراً؟

كانت العقد تستعجل الحلول. واضطرت هي إلى أن تبادر إلى العمل. كان ابنها البكر لا ينسى ذكر مشاريعه، وهو الآن يحرث الأرض بنشاط ويبذر القمح، وبعد ذلك، يريد الذهاب للبحث عن أبيه. لقد صارت قامته بطول قامة أبيه تقريباً، نحيفاً، رشيقاً، صلباً كغصن الخيزران. كان يشعر بأنه صار كبيراً إلى درجة لا يقبل معها أن يُرفض له طلب. وكانت طبيعته هادئة عنيدة، لا يتراجع إذا عزم. قال لأمه مرة:

ـ اتركيني أذهب لملاقاة أبي. قولي لي اسم المدينة التي يقطن فيها، الناحية وعنوان البيت الذي يعمل فيه.

قالت له أمه بيأس لتحول دون تنفيذه فكرته:

ـ لقد أحرقت رسائله، ويجب أن تنتظر الرسالة القادمة في رأس السنة.

صاح:

ـ لكنك وعدتني بأن تتذكري!

فأجابت بهدوء:

ـ كنت أقدر على ذلك في حينه، لكن الأمور ازدحمت في رأسي ونسيت. أضف إلى هذا موت جدتك المسكينة! لو أني استطعت أن أتذكر عنوانه، عندما كانت تحتضر، لأرسلت إليه كلمة.

عندما وجّه الفتى إليها نظرة لوم وعتاب صاحت بغضب:

ـ هل كان لي أن أفكر في أنك تريد الذهاب وترك العبء عليّ وحدي في الوقت الذي تصبح فيه يافعاً؟ هل كان لي أن أتصور أنك ستهجر

أمك؟ إني متأكدة من أني سأتلقى رسالة منه في رأس السنة كما كانت الحال في المرات السابقة.

وهكذا وجد الفتى نفسه مضطراً الى الإقلاع عن مشروعه في الوقت الحاضر، وانتظر عابساً، راغباً في رؤية أبيه. كان لا يتذكر أباه جيداً، إلاّ أنه احتفظ له بصورة غامضة لرجل لطيف بهيج. وكان يشعر في ذلك الحين برغبة في ملاقاته، لأن عطفه على أمه قد فتر، إذ كانت تبدو ثائرة ضده على الدوام، وما كانت تفهم شيئاً مما يقال لها، وتحسّر لغياب أبيه وتنهّد.

كانت الأم تجد نفسها مرتبكة جداً، لا تعرف إلاّ شيئاً واحداً، هو أنه يجب أن تتصرف بسرعة، وإذا لم تصل رسالة في رأس السنة فإن ابنها سيعذبها ويجبرها، عاجلاً أم آجلاً، على أن تعترف له بالحقيقة كاملة. وكيف لها أن تتوصل لتبرهن له على أن الأكذوبة التي كانت قد اخترعتها في البدء، لتنقذ اعتزازها كامرأة، قد صارت أمراً واقعاً بتلك الأهمية كلها، وأنها ضربت جذوراً في الزمن منذ أعوام وأصبحت عسيرة التصحيح؟

راحت تعزي نفسها من جديد قائلة إن الرجل يجب أن يكون قد مات بالفعل. ولم يسبق قط أن سُمع عن زوج لا يرجع من تارة إلى أخرى ليرى أولاده وبيته القديم إن كان في قيد الحياة. لقد مات بكل تأكيد. ورددت ذلك وكررته إلى أن انتهت بها الحال إلى تصديقه. كان يكفيها الآن إعلان خبر وفاته حتى يتيقن الفتى ويصدق أبناء القرية.

وقصدت، حسب عادتها، المدينة لمرة جديدة، واختارت كاتباً لا يعرفها، ورجته، وهي تزفر، أن يكتب إلى زوجة أخيها:

ـ قل لها إن زوجها قد مات. وعلى هذا النحو: قضى في حريق حين قلب رفيق مصباحاً فاشتعل المنزل واحترق الرجل في أثناء نومه وتبدّد رماده، ولم يبق منه بقية لإرسالها إلى ذويه.

وطلبت إليه أن يكتب اسمها مكان زوجة الأخ المزعومة. واخترعت

اسماً غريباً، في مكان مرسل الخبر. ولقاء زيادة في الأجرة قبل الكاتب أن يغيّر مصدر الرسالة. بدا له في القضية ما يريب، إلاّ أنه لم يقل شيئاً، فالقصة لا تهمه ما دام يتقاضى ثمن صمته.

شعرت المرأة بأنها أنقذت نفسها، لكنها كانت نافدة الصبر لتتأكد من نجاتها، كان عليها أن تخبر الوكيل، وضلّت هنا وهناك، وسألت عن بيت مالك الأرض السابق، إذ يجب أن يكون الوكيل معروفاً في الجوار. كان همها الأول خلاصها، ويبدو لها أن الآلهة كانت تحميها في ذلك اليوم، إذ التقت به أمام المنزل في اللحظة التي كان يريد أن يدخل، فأطلقت صوتاً ووضعت يدها على ذراعه، فأخفض هو نظره عليها وعلى الأصابع المتمسكة بكمه، وسأل:

ـ ماذاوراءك يا امرأة؟

همست:

ـ يا سيدي. أنا أرملة. لقد علمت اليوم بترمُّلي!

دفع يدها وقال بصوت عال:

ـ وهل يهمني هذا الأمر؟

وعندما نظرت إليه نظرة جريحة أضاف بقسوة:

ـ لقد دفعت لك الثمن، لقد دفعت لك الثمن جيداً!

ومر في الشارع أحد معارفه على حين غرة وناداه ضاحكاً:

ـ ماذا أرى يا صديقي الطيب؟.. خليلة حسناء، فاسقة جداً، كي تهجم على رجل بهذا الشكل!

لكن الوكيل أجاب بفتور بالغ وهو يرفع جفنيه بجهد:

ـ نعم، إن كنت تحبها سوداء وسوقية، أما أنا فلا!

وتابع طريقه.

تسمّرت المرأة الشابة في مكانها، إذ أربكها الذهول ولبسها

الخزي، ودون أن تفهم ما أراد بالثمن، لكن كيف دفع لها الثمن؟ وتذكرت فجأة الحلي التي أهداها لها. ترى أهذا هو الثمن؟

نعم، إن تلك الحلي تحرره تجاهها.

*

ماذا يجب أن تفعل الآن، الآن وقد أدركت كل شيء؟ سلكت طريق العودة بخطى ثابتة، بقلب بارد، كانت تردد دون انقطاع:

ليس الآن أوان البكاء، فالوقت لم يحن بعد.

وحبست دموعها، رغم أنها تجمعت في محجريها، وجعلت جسمها كله يختلج، لكنها لم تسمح لها بالانحدار.. تماسكت، وقسا قلبها في الصمت، حتى جاء الخبر المنتظر، فبعد يوم أو يومين وصلت الرسالة التي نصّتها. وذهبت بها إلى كاتب القرية. قالت له دون أن يرف لها جفن:

ـ أخشى يا عم أن يكون فيها أخبار غير سارة. فليس هو التاريخ المعتاد.

أخذ الكهل الورقة، قرأها، وقال بانقباض:

ـ إنها أخبار سيئة، يا معلمة، استعدي لها!

سألت باللهجة الصارمة نفسها:

ـ هل هو مريض؟

وضع الكهل الرسالة، ورفع نظارتيه وقال بوقار وهو ينظر إليها:

ـ مات!

عندئذ غطت الأم رأسها بمئزرها وبكت. لم يعد ثمة ما تخشاه. بكت وبكت دون توقف كما لو أنه كان قد مات فعلاً. كانت تبكي سنوات وحدتها، حياتها المضطربة، المهجورة، قضاءها الحزين، ورحيل زوجها. كانت تبكي أيضاً لأنها لم تجرؤ على الاعتراف بالجنين الذي تحمله في أحشائها، وتبكي أخيراً لأنها امرأة محتقرة. وأخذت

تسيل في تلك اللحظة جميع الدموع التي طالما حبستها خوفاً من أن يسمعها ولد من أولادها أو أحد من جيرانها.

وحين شاع الخبر بين نساء القرية أسرعن إليها يعزينها. كنّ ينصحنها بألا تقع مريضة من الحزن، فقد بقي لها أولادها، صبيان طيبان. وذهبن وجئن بهما ليشدا من عزمها. ووقف الصبيان أمامها: الولد البكر، صامتاً شاحباً، كأنما اعتل فجأة، والولد الصغير نائحاً لأن أمه كانت تبكي.

وفجأة وسط البلبلة العامة ارتفع عويل ونواح أعلى من بكاء المرأة الشابة وصياحها. كانت الأرملة الشابة، وقد عدتها الغصة، تصرخ بصوت متحشرج، ودمعها يسيل بغزارة على خديها:

ـ انظري إليّ إذاً، أنا المخلوقة المسكينة، حالي أدعى إلى الرثاء، ليس لي ولد، أنا أكثر منك تعاسة يا معلمة، وأشقى من أية امرأة أخرى!

كانت تستحضر أحزانها القديمة، وتعول عالياً حتى التفتت النساء إليها ورحن يعزينها، وانتهزت الأم الهرج والمرج لترجع إلى بيتها يتبعها ولداها، واستمرت تبكي بصوت خفيض عاجزة عن التوقف.

وعادت تبكي أحر البكاء بعد أن جلست على عتبة الباب. كان الولد البكر يسكب الدموع دون أن يتفوه بكلمة، ويمسح عينيه بقفا يده، وكان أخوه يقلده، دون أن يفهم معنىً لموت أب لم يعرفه أبداً. وكانت البنت تضغط بأصابعها على أجفانها وتئن بلا رنين:

ـ يجب عليّ أن أبكي، بما أن أبي مات، لكن الدموع تحرق أجفاني وتؤلمني، ومع هذا يجب أن أبكي أبي.

لكن، لم تكن الأم تستطيع أن تستمرّ في البكاء، سيكون ذلك ممكناً عندما ستبلغ هدفها. وهكذا توقفت، وبينما كانت تفكر فيما بقي عليها أن تفعل كان صمتها يعزي الأولاد قليلاً.

لقد اعتقدت أن أمامها سبيلاً واحداً ممكناً، هو الموت. لكن، كان

هناك سبيل آخر، وهو أن تستأصل من جسمها هذه الحياة الوحشية التي تشعر بها تنمو. إلاّ أنه لم يكن في وسعها أن تتخلص من تلك الحياة بمفردها، وينبغي لها مساعدة، والمرأة الوحيدة التي كانت الأم تجرؤ على أن تطلب مساعدتها هي امرأة ابن العم. كانت الأم تفضل أن تتصرف دون شاهد، وألا تكشف سرها لأحد. لكن ابنة عمها كانت كتوماً ممتازة، طيبة، تعرف الأمور الأرضية، وتصرفات الرجال، وتفهم متطلبات الجسد الغريزية لامرأة خصبة متعطشة للولادة. ورغم ذلك، فالاعتراف لها سيكون أمراً صعباً.

وسنحت فرصة الكلام بينهما بيسر. وجدت المرأتان نفسيهما في زقاق تتجاذبان الحديث حول حادث عرضي. فقالت ابنة العم بصوتها الخشن الطيب:

ـ أقبلي على الطعام إذاً، كلي وكفى حزناً، أنت صفراء كما لو كان في بطنك دود.

وفكرت الأم، وأجابت همساً بمرارة:

ـ في جوفي دودة تلتهم حياتي!

وإزاء نظرة ابنة العم الدَّهِشَة ضغطت الأم على بطنها وقالت مترددة:

ـ شيء ينمو فيَّ، لكني أجهل ما هو، لعله ريح شريرة!

سألتها ابنة العم قائلة:

ـ دعيني أرى؟

وفتحت الأم سترتها وكشفت عن بطنها. ووجدت ابنة العم البطن ضخماً، فلمسته، وقالت بذهول بالغ:

ـ ما أشبه هذا الانتفاخ بطفل، لو كان لك زوج، لأيقنت أنك حامل!

وصمتت الأم بمسكنة. كانت واقفة خافضة الرأس دون أن تجرؤ على رفع عينيها. وشاهدت ابنة العم بطن الأم يتحرك، حركة خفيفة، فصاحت هَلِعة:

ـ أقسم أنه طفل! لكن، كيف يمكن ذلك، إلاّ إذا كان الحبل من روح، بما أن زوجك غائب منذ عدة سنوات؟ لقد سمعت أن هذا يحدث أحياناً لنساء قديسات، ولا سيما في العهود الخالية، أن يحملن من الأرباب. ومع هذا، فأنت لست قديسة حقيقية، يا ابنة العم! امرأة طيبة فعلاً، محترمة جداً، لكن مندفعة في أغلب الأحيان، وطبيعتك حيوية جداً. هل شعرت بوجود إلّه إلى جانبك؟

ودّت الأم لو تخترع أكذوبة جديدة، كان بودها أن تقول إن إلّهاً زارها عندما التجأت من العاصفة إلى معبد على حافة الطريق، لكنها عندما فتحت فمها رفضت الكلمات أن تخرج. كانت تخشى أن تختلق قصة سوداء وتسندها إلى الإلّه الشريف الشهم الذي كانت قد غطت وجهه مع رفيقيه. ثم أحست أنها تعبة جداً كي تكذب أيضاً. كانت تنظر إلى ابنة عمها بمسكنة، وكان احمرار الخزي والعار يصبغ خديها الشاحبين. كانت لتهب نصف حياتها لقاء إمكانية خداع ابنة عمها، لكن ذلك كان مستحيلاً. وكانت المرأة الطيبة التي تواجهها وتنظر إليها قد فهمت، واكتفت بالقول دون أن تلقي أي سؤال:

ـ استري جسمك يا أختي كي لا يصيبك البرد.

وتابعت المرأتان طريقهما، بصمت.

قالت الأم أخيراً، بمرارة شديدة:

ـ لا يهم من هو الفاعل، لن يعلم أحد باسمه. لكن، إذا مددت إليّ يد المساعدة، يا ابنة العم ويا أختي، فلن أنسى لك جميلك ما عشت.

وأجابت ابنة العم همساً:

ـ لم أعش كل هذه الأيام دون أن أرى امرأة تتخلص مما يزعجها!

ولأول مرة لمحت الأم بصيص أمل، فسألت همساً:

ـ لكن كيف.. كيف ذلك؟

وشرحت لها ابنة العم:

ـ يجب شراء عقاقير، إن كنت تستطيعين دفع ثمنها، وأعشاب قوية جدّاً، قد تقتل الأم والجنين أحياناً. وعلى كل حال إن ذلك أشد إيلاماً من الوضع. لكن إذا كانت المقادير كافية، فالعملية تكون ناجحة.

فأجابت الأم:

ـ حتى إذا كان ذلك قاتلي، فأنا أيضاً، أريد أن أنتزع هذا الشيء، كيلا يدري به أولادي والناس من حولي.

وقفت ابنة العم وواجهت الأم، ونظرت في عينيها وقالت:

ـ نعم، لكن الآن، وزوجك قد مات، ألن تتكرر العملية؟

فأقسمت الأم وصاحت بغصة:

ـ أوه، لا! بل الأولى بي أن ألقي بجسدي في المستنقع كي يترد إلى الأبد ولن أدع ذلك الوهج يصعد فيَّ، كما فعل في هذا الصيف.

بعد السهرة، سحبت الأم من الحفرة نصف المال الذي ادخرته. وعندما سنحت الفرصة أعطت المبلغ ابنة العم لشراء ما اتفقتا عليه.

بعد أن اشترت الأعشاب وغلتها جاءت ابنة العم، في ليلة، لتقول للأم التي كانت تنتظرها:

ـ أين تريدين أن تتجرعي هذا الشراب؟ لا يمكنك تجرعه في المنزل، فسيجري دم كثير!

تذكرت الأم المعبد، على حافة الطريق، المنعزل في النهار، والمهجور في الليل. توجهت إليه المرأتان.. تجرعت الأم الشراب واستلقت على الأرض تنتظر.

بعد فترة، في العتمة، عصرها ألم عنيف لم تعرف له مثيلاً حتى ذلك الحين. واستسلمت للموت. كان العذاب هائلاً إلى حد أنها فقدت إدراكها بكل شيء ما خلا ذلك العذاب الواقع، ومع ذلك كانت تتذكر أن عليها ألاّ تصرخ لتخفف من ألمها. ولم يكن ممكناً إضاءة أي نور أو إضرام أي نار، خشية أن يلمح أحد من بعيد ضياء في المعبد.

كان على الأم أن تتحمل عذابها، كان العرق يقطر من جسمها كالمطر المنهمر، وكانت لا تعي إلاّ عذابها الفظيع، كما لو أن وحشاً ينتزع منها الأعضاء الحيوية من كيانها. وأخيراً في لحظة معطاة حدث تمزق فعلي، وأطلقت صرخة.

أسرعت ابنة العم وتناولت ما يجب أن يُنتزع ووضعته على حصيرة كانت جلبتها معها. جسّته قبل أن تغلفه، وتمتمت بصوت حزين:

ـ كان صبياً.. أنت أم مختارة، لا تحملين في الغالب إلاّ ذكوراً.

كانت الأم تئن، قالت:

ـ لن يكون ثمة حمل بعد اليوم مطلقاً.

ثم تمدّدت على الأرض واستراحت قليلاً. وبعد ذلك، عندما تمكنت، رجعت إلى بيتها، كاتمة آلامها، متكئة على ذراع ابنة العم النصيرة. وعندما مرتا بجوار المستنقع ألقت ابنة العم الحصيرة وما فيها.

*

لزمت الأم فراشها لأيام عديدة، سقيمة واهنة. وكانت ابنة العم تساعدها على قدر ما تستطيع. وظلت الأم طوال الشتاء ضعيفة شاحبة لا تقدر على رفع حمل ثقيل. وكان أخذ حمل إلى السوق عذاباً فوق طاقتها تؤديه، وأخيراً، شعرت ببعض التحسن مع قدوم الأيام الجميلة، وراحت تجلس تحت أشعة الشمس. وفي الربيع، تحسّنت صحتها، إلاّ أنها ظلت تشعر بأنها لم تعد كما كانت، وغالباً ما كانت ابنة العم تحضر لها طعاماً شهياً لتغريها بالأكل. فتضع الأم يدها على صدرها وتقول:

ـ يخيَّل إليَّ أني لا أستطيع أن آكل. أشعر بشيء ثقيل هنا. إن قلبي يثقل عليَّ بين ثديي إلى حد يمنعني من أن أبتلع ريقي. إن قلبي يرزح تحت عبء آلام جسيمة، ولا أستطيع أن أخفف بدموعي من حدّتها. ليتني أستطيع لمرة واحدة أن أبكي ملء جفوني فأشفى.

وبالرغم من رغبتها الشديدة في البكاء فإن عينيها ظلتا جافتين. لم

تستطع طوال فصل الربيع أن تبكي، ولا أن تعمل كسابق عهدها. كان ابنها البكر يبذل غاية جهده ليقوم بالأعمال الضرورية. وكان ابن العم يساعد بمنتهى جهده. وكانت الأم ساكنة جامدة، جامدة الحركة وجامدة الدموع.

ظلّت حالها على هذ النحو حتى جاء يوم أحنت فيه السنابل رؤوسها. وكانت المرأة الشابة جالسة في أشعة الشمس سقيمة المظهر، شعثاء الشعر، إذ كانت تجد نفسها أتعس من أن تستطيع تسريح شعرها في الصباح. وما إن سمعت وقع أقدام، ورفعت رأسها حتى رأت الوكيل. وشاهده ابنها البكر وتقدم إليه قائلاً:

ـ يا سيدي، لقد مات أبي، وأمي مريضة منذ أشهر، إن كنت قد جئت لفحص وتقدير محصول هذا العام فإني سأرافقك، لأنها عاجزة عن مرافقتك.

عند ذلك ألقى الرجل الحضري، بشعره المسرح، وذقنه الحليقة، نظرة مباشرة على الأم بعين راغبة عنها، وأدرك تمام الإدراك ما جرى عليها. وأحست هي أنه قد علم، فأخفضت رأسها. لكن الوكيل قال بلا مبالاة:

ـ تعال إذاً، يا ابني.

وابتعد كلاهما وتركاها وحيدة.

أدركت أن ليس لها أن تنتظر من هذا الرجل شيئاً، ومن جهتها، فإنها كفت عن الميل إليه منذ ضعف جسمها، لكن تلك النظرة الأخيرة أعطتها الصدمة الضرورية، وأحست أن ذلك الثقل الذي تسميه قلبها قد تفتت، بشكل من الأشكال، وبالدموع تنبع من مآقيها. فنهضت وسلكت ممراً منعزلاً في الحقول، واتخذت سبيلها جهة قبر مجهول كانت تعرف مكانه، قبر مجهول عفّى عليه الزمان، ولا يدري أحد رفات من يضم.

جلست الأم على الأرض الخضراء المعشوشبة وانتظرت طويلاً، وأخيراً بكت!

بدأت دموعها شحيحة تقطر صافية وبمرارة، ثم إنها سالت مدراراً.

وعندئذ أسندت رأسها إلى القبر، وبكت كما تبكي النسوة اللواتي غصّت قلوبهن بأحزان الحياة، وفاضت آلامهن ورحن يتعزين كما يستطعن، إذ إن وجودهن يسحقهنّ سحقاً. وكانت نسائم الربيع تحمل أصداء شهيقها وزفيرها إلى القرية الصغيرة. وعندما سمعتها الزوجات والأمهات في بيوتهن ردّدن لأنفسهن:

ـ اتركنها تبكي، هذه النفس الحزينة، وتتحرر من ضرها. إذ إنها لم تعصر دموعها منذ ترمّلها. يجب ألاّ يحول أولادها بينها وبين بكائها.

وتركنها تبكي.

*

لكن بعد فترة طويلة سمعت الأم حركة خفيفة بجوارها، فرفعت رأسها وحدقت في العتمة، إذ إنها ظلت تبكي إلى ما بعد مغيب الشمس. كانت ابنتها تتقدّم تتلمّس طريقها إليها.

قالت البنت:

ـ أوه، يا أماه! ابنة العم قالت إن دموعك تفرج كربك، ألم تبكي بعد ما يكفي؟

عندئذ أفاقت الأم من غفلتها وخرجت من خبلها، ونظرت إلى الطفلة واستوت وهي ترفع شعرها، وتمسح عينيها المنتفختين، ثم نهضت واقفة، ومدت البنت يدها باحثة عن يد أمها، وقالت بصوت شاكٍ:

ـ بودي ألاّ أبكي أبداً، فالدموع تحرق أجفاني حروقاً موجعة.

أعادت هذه الكلمات الأم إلى نفسها وطهرتها، هذه الكلمات التي انطلقت من فم ابنتها في آخر النهار. وهذه اليد التي تبحث عن يدها أنقذتها فجأة من اليأس الذي كانت تتخبط فيه منذ أشهر. وشعرت بأمومتها من جديد، ونظرت إلى ابنتها. وأخيراً خرجت من عزلتها وقالت:

ـ عيناك، هل ازداد وجعهما، يا ابنتي؟

فأجابت البنت:

ـ أظن أنهما على حالهما، كما كانتا في السابق، ولكن صار النور يحرق أجفاني أكثر، ولم أعد أميز وجوهكم بوضوح، كما كنت من قبل. ومنذ كبر أخي صرت لا أفرق بينه وبينك، إلاّ بجرس صوته.

عندئذ قادت الأم ابنتها بحنان، وهي تئن في داخلها قائلة:

ـ آه، أين كنت تلك الأيام كلها؟

ثم قالت:

ـ يا ابنتي، سأذهب غداً منذ الفجر لأشتري لك مرهماً، طالما حدثتك عنه، ليشفي عينيك.

في ذلك المساء، شعر الأولاد جميعهم أن أمهم رُدّت إليهم، وكأنها عادت من مكان بعيد. عادت إلى سيرتها القديمة، وضعت على المائدة الزبادي الممتلئة بالطعام المعتنى به، كان الهدوء يبدو على وجهها الشاحب، ومسحة من سلام عليل. كانت تبدو وكأنها لم تر أولادها منذ عام أو عامين، وكانت تتفحصهم الواحد تلو الآخر. ألقت نظرة على أصغرهم وقالت:

ـ يا بني، سأغسل لك سترتك غداً. لم ألاحظ أنها متسخة إلى هذه الدرجة، ومتمزقة. أنت طفل بهيّ الطلعة، ولا يصح أن تتجول في هذه الثياب الخلقة، أنت الذي هو ابني.

وسألت الابن البكر:

ـ قلت لي بالأمس إنك جرحت أصبعك، وإن الجرح تقيّح.

وبعد أن غسلت يده وطلت أصبعه بالزيت، أضافت قائلة:

ـ كيف حدث ذلك؟

فتح الفتى عينيه دهشاً وشرح لها:

ـ لقد سبق وأخبرتك، يا أمي، أني جرحته وأنا أسن المنجل على الحجر. كنت أهيّئه للحصاد.

وأسرعت الأم وقالت:

ـ إني أذكر الآن، كنت قلت لي هذا.

شعر الأولاد بأنهم محاطون بحرارة الأمومة بغتة، وأن تلك الحرارة تشع من أمهم. كان السرور يغمرهم، وراحوا يتحدثون إليها بطلاقة وانشراح، ويروون لها حدثاً بعد حدث. قال أصغرهم:

ـ لدي قرشان، ربحتهما اليوم، وأنا ألعب لعبة الوجه أو القفا في الزقاق. أنا جد محظوظ، أربح دائماً!

تأملته الأم ووجدته وسيماً وقوياً، ودهشت لأنها لم تلاحظ ذلك من قبل. قالت له، في دفقة من حنان غامر:

ـ يا للصغير المهذب الذي يحافظ على قروشه بدلاً من أن يصرفها على السكاكر أو يبذرها.

فكر الولد وقال ببعض الاضطراب:

ـ إني أحافظ عليهما اليوم فقط، وغداً سأصرفهما. ولماذا أدخرهما بما أني أستطيع أن أربح كل يوم؟

وانتظر أن توبّخه، إلاّ أنها قالت بعذوبة متناهية:

ـ اشتر سكاكر إذا شئت، بما أن المال لك.

وأقبل البكر، وهو الصموت عادة ليضيف:

ـ يا أمي، لديَّ شيء غريب أقصه عليك. بينما كنا نتجول اليوم، الوكيل وأنا، قال لي إنها المرة الأخيرة التي يأتي فيها إلى القرية، وإنه ذاهب للبحث عن الرزق في مكان آخر. إنه يزعم أنه تعب من المشي في أزقّة الريف، وأنه ضجر من المزارعين العوام ومن نسائهم. العمل نفسه يتكرر في كل فصل، وفي ذلك رتابة مملّة بالنسبة إليه، هو راحل إلى مدينة بعيدة.

سمعت الأم تلك الكلمات وفكّرت فيها. كانت جالسة تنظر بسكون إلى فتاها على ضوء الشمعدان الضعيف الذي أشعلته في ذلك المساء

ووضعته على الطاولة. وعندما انتهى، انتظرت، كي تسمح للكلمات أن تدخل قلبها، كما تغوص قطرات المطر في التراب الجاف الظامئ، قبل أن تسأل بصوت متلهف مخنوق:

ـ هل قال لك هذا حقاً، يا بني؟

ثم أضافت على عجل، كأن سؤالها لا يهمها أبداً:

ـ يجب أن نذهب الآن لننام ونستريح، لأني منذ الغد سأذهب إلى المدينة لأشتري مرهماً لمعالجة عيني أختك.

كان صوت المرأة الشابة رناناً ومطمئناً من جديد. اقترب الكلب منها جائعاً مستطعماً، فقدمت له وجبة وافرة، دون حساب. كان يلتهم طعامه فرحاً، وراح يلهث برضى بعد أن شبع.

في تلك الليلة نام الجميع، الأم والأولاد، نوماً هنيئاً.

12

طلع نهار الغد رمادياً ساكناً، وفي الجو تعبق رائحة مطر الصيف. كانت السماء وطيئة، محملة بالماء، تثقل على الوادي وتخفي الجبال. ومع ذلك، نهضت الأم في ساعة مبكرة عازمة على أن تصحب البنت إلى المدينة. فبعد أن انتظرت شهوراً وشهوراً، بل سنوات وسنوات، لم تعد تستطيع ن تصبر يوماً واحداً دون السعي إلى مداواة عيني ابنتها. ومن تلك الأمومة التي طهرتها الدموع، لن تكون الأم حانية كما يجب لترضي قلبها.

أمّا الفتاة فكانت ترتجف من إلاثارة، وهي تسرح شعرها الطويل، والذي ضفرته بشريط وردي، وارتدت سترة نظيفة زرقاء بأزهار بيضاء، إذ إنه لم يسبق لها في حياتها أن تهندمت. كانت تقول وهي تهيئ نفسها:

ـ بودي أن أرى بوضوح اليوم، كي أتأمل عجائب المدينة.

وأجابها أخوها الأصغر عن قصد:

ـ نعم، لو كانت عيناك صحيحتين لما كان ثمة داع لذهابك إلى المدينة.

أصاب هذا الرد عين الصواب، فابتسمت البنت كما تفعل دائماً إزاء جميع فكاهات أخيها. لكنها لم تجب، إذ ليس عندها حضور بديهة. كانت بليدة الخاطر والحركة وعذبة في كل ما تفعل. وبعد أن فكرت لحظة قالت:

ـ أظن أني أفضّل ألاّ أذهب إلى المدينة أبداً، وأن أرى بوضوح.

لكن هذا الجواب جاء متأخراً إلى حد أن الصبي كان قد نسي سبب تعليقه. كان عصبي المزاج، نافد الصبر، مستعداً دائماً ليترك لعبة إلى أخرى، أو أن يبدل عملاً بعمل آخر من الأعمال البسيطة التي يقوم بها. ومن بين الأخوة الثلاثة كان الصغير أشد ما يكون شبهاً بوالده.

لم تكن الأم تصغي إلى كلمة مما يقولان، منهمكة في استعداداتها. وقفت لحظة أمام الدُّرج ثم سحبته وأخرجت علبة صغيرة، فضّت غلافها وتأملت فيها الحلي، ثم قالت لنفسها:

«هل يجب أن أحتفظ بها أو أن أبيعها، لقاء مال»؟

ترددت فترة ثم قالت:

«الناس يعتقدون أني أرملة، وأن من المستحيل عليَّ التزيّن بها. اللهم إلاّ إذا احتفظت بها حتى زواج ابنتي».

وفكرت وهي تتأمل الحلي في كفها، وفجأة عندما استعادت ذكراها أصابها الغثيان، ولم تعد تريد إلاّ التخلص منها، ونسيان ما تثيره من ذكرى.

قالت في نفسها وقد حزمت أمرها:

«لن أحتفظ بها. ثم إن من الممكن أن يعود.. قد يعود زوجي، وإذا ما شاهدها فلن يصدق أني اشتريتها».

وغيّبت العلبة الصغيرة بين ثدييها، ونادت على ابنتها للرحيل.

سلكتا الطريق الريفي، واجتازتا القرية الهاجعة في تلك الساعة

المبكرة. كانت الأم تتقدم بخطى ثابتة، وقد استعادت قواها من جديد. كانت تمشي بطلاقة وسط الضباب، رافعة الرأس، تمسك بيد ابنتها. وكانت البنت تجهد للحاق بأمها وتكتشف إلى أية درجة أنها لا تبصر طريقها. ففي بيتها، وفي الأمكنة التي اعتادت عليها كانت تسير بثقة دون أن تدرك أنها كانت تستدل على غرضها باللمس والشم، لا بالبصر. أما هناك، فعلى تلك الطريق المجهولة المزروعة بالحدبات والحفر فكانت تتعثر، وقد كادت تقع أرضاً، لولا يد أمها المسعفة.

ولاحظت المرأة الشابة تعثّرها، وانتابها الخوف من مواجهة تلك التجربة الجديدة. قالت:

ـ أخشى أن يكون الوقت قد فات، يا طفلتي المسكينة. لكنك لم تقولي لي أبداً إنك لا ترين! كنت أعتقد أن الماء الذي يسيل من جفنيك يلقي غشاوة على بصرك.

وأجابت البنت وهي تكاد تصرخ:

ـ وأنا أيضاً، كنت أظن ذلك يا أمي، وإني مرتبكة من هذه الطريق التي تصعد وتهبط، ثم إني لست معتادة على أن أمشي بهذه السرعة.

خففت الأم من سرعة خطاها. وتابعتا طريقهما دون أن تقولا شيئاً. وعندما اقتربتا من الصيدلية، عجلت الأم لتبلغها بسرعة.

كانت الساعة مبكرة، وكانت الأم أولى المشترين. كان الصيدلي يرفع الألواح الخشبية عن واجهات حانوته، دون استعجال. كان يتوقف عدة مرات ليتثاءب أو ليغرز أصابعه في شعره الطويل الأشعث ويحك رأسه. عندما رفع عينيه وشاهد القروية وابنتها أمام الطاولة الطويلة، صاح دَهِشاً:

ـ ماذا تريدين في هذه الساعة المبكرة؟

أشارت الأم إلى ابنتها وسألت:

ـ هل عندك مرهم لهاتين العينين؟

نظر الرجل مليّاً إلى البنت، وتأمل تينك العينين الميتتين بجفنيهما المحمرين اللذين لا ينفتحان إلاّ بجهد، وسأل:

ـ كيف حدث هذا؟

قالت الأم:

ـ في البداية، اعتقدنا أن ذلك متأت من الدخان. مات زوجي، وكنت مضطرة إلى القيام بأعمال الرجال في الحقول، ثم إن الصغيرة كثيراً ما كانت تشعل الفرن حين كنت أتأخر في العودة. لكن في السنوات الأخيرة، يجب أن يكون هناك أسباب أخرى، لأني وفّرت عليها هذا العمل. بدا كأنّ في داخلها ناراً تحرق عينيها، لست أدري أي نوع من نار هي، إذ لا وجود لفتاة أطيب منها، إنها لا تعرف سوء المزاج!

هز الرجل رأسه وتثاءب وتمطّى. ثم قال بلامبالاة:

ـ كثيرون لهم مثل هاتين العينين، من جراء نار داخلية. وهناك نيران متعددة الأنواع. ليس من مرهم يداوي هذه الحميات. وهذا يزداد على الدوام، ولا دواء له.

وقعت هذه الكلمات كالرصاص على القلبين اللذين كانا يأملان في الشفاء، وقالت الأم بحيوية بصوت خفيض:

ـ لعله يوجد.. يجب أن يكون هنا طبيب. هل تعرف طبيباً ماهراً وغير مشتط في الطلب، لأننا فقراء؟

لكن الرجل المكسال هزّ رأسه الأشعث، وهو يتناول مخدراً من علبة خشبية صغيرة، وأجاب:

ـ لا وجود لعلاج يرد لها البصر. إني واثق، لأني شاهدت العديد من هذه الحالات، في كل يوم يأتي أناس بعينين على هذه الحال، ويشتكون من حمى داخلية، ويظهر أن الأطباء الأجانب أنفسهم لا يعرفون علاجاً ناجعاً. لقد شقوا الجفون وقلبوها، وحكّوا جوفها بحجر سحري، وتمتموا برقًى وأدعية، لكن تعود النار من جديد وتأتي على العيون، لا

يستطيع شيء أن يطفئ هذه النار، لأنها تحترق في الداخل، في مركز الحياة نفسه. على كل حال خذي هذا.. كحل مبرد، يسكن فترة من الزمن، لكنه لا يشفي.

وتناول حبات صغيرة شبيهة بالحنطة الطرية، وأدخلها في ريشة إوزة مسدودة من طرفها الآخر بالشمع، وردد مرة أخرى:

ـ نعم، إنها عمياء، يا معلمة.

لكنه عندما لاحظ وجه الفتاة التي أجفلتها تلك الكلمات، كطفل فوجئ بلطمات، أضاف بشيء من الشفقة:

ـ ما جدوى الحزن، إنه القدر. لعلها ارتكبت وزراً في حياة سابقة، أو أنها تأملت شيئاً محظوراً فأنزل عليها اللعنة، أو ربما ارتكب أبوها إثماً، أو ربما أنت، يا معلمة. مَن يدري ما في خفايا القلوب؟ لكن مهما تكن الأسباب، فاللعنة حلّت عليها، ولا يمكن لأحد أن يبدّل أحكام السماء.

وتثاءب، وقد توقف اندفاع شفقته، وأخذ القروش التي أعطتها الأم له، وغاب وهو يسحب رجله وراء باب.

صاحت الأم وقد أثارها الغضب:

ـ إنها ليست عمياء! مَن الذي سبق له أن سمع برمد يطفئ بصراً؟ كانت عينا أم زوجي مريضتين منذ طفولتها، لكنها لم تمت عمياء.

ودون أن تترك له وقتاً ليجيب، أخذت بيد ابنتها وقبضت عليها بقوة كي تمنع البنت من الارتجاف، وتوجهتا إلى حانوت صائغ مجهول، رجل ملتحٍ. وأخرجت الأم علبة صغيرة من صدرها، وقالت بصوت خفيض:

ـ استبدل لي هذه بمال، مات زوجي ولم أعد أستطيع أن أتزيّن بها.

وبينما كان الصائغ الكهل يزين الحلي ليثمنها، راحت البنت تئن ببطء، وهي تخنق أنينها في كمها، وتقول بصوت متقطع:

ـ لا أظن أني كفيفة البصر حقّاً يا أمي، إذ يخيل إليَّ أني أرى شيئاً يبرق على الميزان، فلو كنت عمياء لما لمحته، أليس كذلك؟ ما هو؟

أدركت الأم من هذه الملاحظة أن ابنتها عمياء حقّاً، إذ كانت الحلي تبرق قريباً جداً من وجهها. وتحسرت في داخلها وهي تجيب:

ـ أنت على حق يا ابنتي، إنه خاتم كان عندي، ولم أعد أستطيع وضعه في أصبعي، لذلك سأستبدله بمال نستفيد منه.

وهذا الأسى الجديد منع الأم من أن تفكر بالحلي التي تبيعها، أو بالمعنى التي كانت تمثل بالنسبة إليها، لأنها بالرغم من بريق الحلي فإن البنت لم ترها. هذا هو الشيء المهم. وأخذ الصائغ الحلي وعلقها في خزانة صغيرة ممتلئة بأساور وخواتم وأطواق، وزينة من جميع الأصناف. كانت المرأة الشابة لا تفكر بحليها التي فقدتها. لم تعد تمثل تلك الحلي في عينيها إلاّ أشياء براقة لم تميزها ابنتها الكفيفة.

*

كان بقي على الأم شراء غرض، لأن الحالة كانت قد بلغت ذلك الدرك. وأخذت بيد ابنتها لتحميها، إذ إن الشارع غص بالجموع التي جاءت تشتري وتبيع. كان المزارعون والبستانيون يبسطون سلال الخضر الطرية الخضراء على جانبي الشارع، وصيادو الأسماك يعرضون صيدهم على ألواحهم.

تابعت الأم طريقها إلى أن بلغت أحد الحوانيت، وتركت ابنتها أمام الباب ودخلت وحدها.

سألها البائع عما ترغب في شرائه فأشارت بيدها إلى غرض وقالت:

ـ هذا.

كان المقصود أسطوانة نحاسية ومطرقة من خشب، يستعملها مكفوفو البصر في تجوالهم ليعلنوا عن عاهاتهم. وضرب البائع عليها، قبل أن يلفها، مرة أو مرتين ليجرب جودتها. وحين سمعت الفتاة ذلك الصوت رفعت رأسها فجأة وصاحت:

ـ يا أمي، يوجد في النواحي أعمى، إذ إني أسمع صوتاً جليلاً كصوت قرع جرس!

انفجر البائع بالضحك، إذ كان يرى حال عيني البنت، وشرق بضحكه ليقول:

ـ لا يوجد هنا غير...

لكن الأم قطعت عليه الاسترسال في تعليقه بنظرة رهيبة جمدت الألفاظ في حنجرته، واكتفى بأن أعطاها الأسطوانة وهو ينظر إليها تنصرف نظرة بلهاء، دون أن يفهم.

وعادتا إلى المنزل. كانت البنت مسرورة لعودتها، إذ مع تقدّم الصباح في المدينة كانت الضجة والحركة تزداد، والأصوات الغريبة التي تفزعها، ويتعالى صراخ البائعين، وتتضاعف حركة أناس لا تراهم يدفعونها بطريقهم بعنف، وكانت هي تسير بينهم بنعومتها، واضعة قدمها الصغيرة مرة هنا ومرة هناك، مبتسمة لاشعورياً، رغماً عنها، ولكن الحزن كان يفطر قلب الأم في سرها، وهي ممسكة بيدها الثانية على الغرض الذي كانت قد اشترته لتوها: شارة العميان.

*

مع هذا، وبالرغم من شرائها الأُسطوانة الصغيرة، كانت لا تجرؤ على إعطائها لابنتها، لأنها كانت ترفض أن تعترف بأنها عمياء كلياً. وانتظرت فصل الصيف بطوله، وحصدت الحبوب من جديد، وكيلت بحضور وكيل مالك الأرض الجديد: ابن عم بعيد له، أو أحد أقربائه الفقراء. وكان هذا متقدم في السن.

وجاء الخريف بدوره، ولم يكن رأي الأم قد استقرّ بعد. كانت تريد أن تحاول مسعى جديداً، أن تتوسل إلى الآلهة. كان وجود الكفيفة الصغيرة يذكرها كل يوم بكلمات الصيدلي: «ربما ارتكب أبوها إثماً.. أو ربما أنت، يا معلمة.. من يعلم ما في خفايا القلوب؟». كانت تقول إنها ستزور معبداً، لا المعبد القائم على حافة الطريق، لأنها لن تتوجه

بالدعاء إلى آلهة كانت قد ألقت بردائها على وجوهها، وإنما معبد بعيد، يقع على مسافة أكثر من عشرة أميال حيث يوجد، كما يزعمون، إلّهة طيبة وقادرة تصغي إلى النساء عندما يدعونها من أعماق بؤسهن.

أفضت الأم بعزمها إلى ولديها اللذين تأثرا أشد التأثر لما أصاب أختهما. ولاحظ البكر على طريقته، طريقة الشيوخ الصغار:

ـ كنت أتهيّب منذ زمن طويل شيئاً غير طبيعي لديها.

لكن الابن الأصغر قال باستغراب:

ـ لم ألاحظ قط أن عينيها ليستا على ما يرام، لأني اعتدت أن أراها على هذه الصورة دائماً.

وأفضت الأم إلى ابنتها بعزيمتها، قالت لها:

ـ إني ذاهبة إلى معبد في الجنوب، حيث توجد إلّهة حية، تلك التي وهبت ولداً لزوجة «لي» السادس بعد أن ظلت عاقراً طيلة حياتها، وبعد أن تجاوزت سن الخصوبة. كان زوجها قلقاً، غاضباً من عقمها، إلى حد أنه أراد أن يتخذ خليلة، ذهبت إلى الآلهة الحية تضرّعت إليها، واستجيبت لما طلبت، وولدت ابنها، ذلك الولد البهي.

أجابت البنت:

ـ إني أذكر ذلك جيداً يا أمي، وأذكر أنها صنعت خفين من حرير للإلّهة وقدمتهما لها عندما ولد ابنها. نعم، يا أمي، اذهبي. إذ إنها حقاً إلّهة كريمة.

انطلقت الأم إلى المعبد. وطوال نهار كامل صارعت الرياح التي كانت تعصف دون توقف في ذلك الشهر، تلك الرياح التي تجلب معها برد صحاري الشمال، وتُذوي أوراق الشجر، وتجفف العشب، وتقضي على كل حيّ. لكن ما هو أثقل من الرياح وأشد مرارة هو ذلك الخوف الذي كان ينتاب الأم، الخوف من أن يكون وزر إثمها قد وقع على ابنتها. عندما وصلت إلى المعبد لم تفكر في التمتع بالنظر إلى

عظمة بنيانه، وروعة منظره، وإلى جدرانه المطلية باللون الأحمر الوردي، وإلى إلَهته المذهبة التي كانت الجماهير، آتية غادية، تسجد أمامها، بل دخلت إلى الداخل تبحث عن تلك الإلَهة التي كانت تقصدها. اشترت قليلاً من البخور عند الباب، وسألت أول رجل دين أشيب رأته:

ـ أين هي الإلَهة الحية؟

اعتقد رجل الدين، من هيئة المرأة، أنها إحدى تلك المخلوقات العديدات اللواتي يأتين في كل يوم ليبتهلن من أجل ولد. فأشار إلى جهة زاوية مظلمة، ينتصب فيها تمثال إلَهة عجوز متّسخة جالسة بين دميتين أقل اعتباراً منها. اتجهت الأم صوبها وانتظرت ريثما تفرغ امرأة عجوز منحنية كلياً من تضرّعها. كانت تتضرع إلى الإلَهة من أجل ابنها، وتشرح لها أنه ملازم سريره منذ سنوات لا يقدر على الحركة وعاجز عن إنجاب ولد. كانت المرأة العجوز تدعو قائلة:

ـ إن كان في منزلنا ثمة إثم لم يكفر عنه، فدليني عليه يا سيدتي، وإن كان شلل ابني من جراء ذلك فإني سأكفّر عنه، سأكفّر عنه!

ثم نهضت العجوز وانصرفت وهي تسعل وتزفر.

وركعت الأم بدورها لتعبّر عن رغباتها، لكنها لم تستطع نسيان كلمات العجوز، وكان يخيل إليها أن الإلَهة تتخذ هيئة قاسية صارمة، وأن نظرها بقي مثبتاً على وجهها الذهبي السوي ولن يلين للخاطئة التي تدعوها قبل أن تكفّر عن إثمها!

وأخيراً نهضت الأم وشهقت شهقة عميقة. كانت تجهل مآل التماسها، لكنها أحرقت البخور وعادت أدراجها.

بعد أن قطعت العشرة الأميال من جديد ووجدت نفسها أمام باب بيتها، تعبة تشعر بالبرد، هبطت على منصب، وأجابت بحزن أولادها الذين جاووا يستفسرون عن الطريقة التي تقبلت الإلَهة بها طلب الالتماس:

ـ وكيف لي أن أعرف ما الذي أمرت به السماء؟ لقد صليت فقط. ستكون النتيجة حسب إرادة الآلهة، علينا أن ننتظر.

لكنها من أعمق أعماقها كانت تتمنى لو أنها لم تأثم. وكلما ازدادت رغبتها كلما زاد تساؤلها لماذا تصرفت ذلك التصرف. ذلك الرجل بوجهه الأملس كان يثير فيها الغثيان، كانت تكرهه بسبب خطيئتها التي لا يمكنها مسحها أبداً. وفي تلك الساعة، في أثناء ذلك الاشمئزاز العميق، كانت المرأة الشابة تتبرأ من لهب رغائبها ومن شبابها الراحل. ولم يبق بالنسبة إليها في هذا العالم أي رجل بمعنى الرجولة. لم يبق لها إلاّ أولئك الثلاثة، أولادها، وكان أحدهم كفيفاً.

13

كانت الأم قد أضاعت شبابها. كانت في الثالثة والأربعين، وعندما كانت، في أثناء الليل أحياناً، تحصي الزمن الذي انقضى منذ رحيل والد أولادها كانت تعد أصابع كلتا يديها وتضيف إليها أصبعين. أما السنوات التي اعتُبرت فيها أرملة، في القرية، فإن عددها يزيد على عدد أصابع يد واحدة.

رغم كل ذلك ظلت ممشوقة ومشيتها مستقيمة، فقامتها لم تتغير، أمّا سواها من النساء فقد ذبلن أو ترهّلت لحومهن: كابنة عمها مثلاً، التي كانت تزداد بدانة عاماً بعد عام، وكذلك الأرملة الثرثارة. لكن الأم حافظت على رشاقتها وقوتها كعهدها أيام الشباب، إنما ثدياها كانا يضمران ويجفان، وعندما كان ينظر إلى وجهها في وضح ضياء الشمس تظهر عليه تلك التجاعيد الصغيرة حول العينين من جراء العمل تحت أشعة الشمس المتوهجة، الصارخة والحادة. وازدادت سمرة جلدها كذلك وقد أحرقته تلك الأعوام التي أمضتها في العراء تعمل في الحقول. وفقدت كذلك كثيراً من رشاقتها، وغدت أقل نشاطاً من السابق لأنها لم تستطع أن تعود وتشعر أنها هي التي كانت قبل أن تقتلع

من جسمها تلك الحياة الوحشية التي أوتها؛ وعندما كانت تدعى في القرية لولادة، وكان ذلك يحدث كثيراً، بما أنها كانت أرملة، ومعدودة بين المتقدّمات، كانت تشعر ببعض الصعوبة أحياناً للتحرك بسرعة. وفي مرة أو مرتين كان على النفساء أن تلتقط هي بنفسها وليدها. ثم إن الأم تركت وليداً في أحد الأيام يفلت من يدها ويسقط على الأرض. كان صبياً، ولحسن الحظ لم يصب إلاّ برض في رأسه دون أن يمس دماغه.

كان أولادها بنسبة ما يكبرون يعتبرونها مسنّة جدّاً. كان البكر يتوسّل إليها، باستمرار، أن تستريح وألاّ ترفع الأدوات الكبيرة بعد الحرث، وأن تتركها له يرفعها، إذ إنه عمل يسير بالنسبة إليه، وقد بلغ سن الرجال وهو بكامل قوته، كان يجهد ليسند إليها الأعمال الخفيفة، ولا شيء يرضيه قدر مشاهدته إياها جالسة في الظل على منصبها في يوم صيف تخيط ساكنة، بينما هو يذهب إلى الحقول.

لكنها لم تكن في الواقع مسنّة بالقدر الذي كان ابنها يريد أن يعتقد. كانت تفضل دائماً العمل في الحقول على سائر الأعمال. كان ينبغي لها أن تعمل في الحقول لتعود مساء إلى البيت ندية البدن بعرق نظيف ترطبه نسمات ريح، والأعضاء تعبة بتعب صحيح. كانت عيناها معتادتين على مشاهد الحقول والجبال والآفاق ولا يمكن لحدقتيها أن تضيقا بسهولة بقياس إبر دقيقة.

كان البيت يفتقر فعلاً إلى امرأة نشيطة بعينين ثاقبتين، إذ صار الجميع يعرفون الآن أن فتاة البيت عمياء. وأدركت المسكينة هي نفسها ذلك منذ اليوم الذي ذهبت فيه برفقة أمها إلى المدينة. كانت الأم والبنت لا تضعان ثقة كبيرة في عون الإلّهة، ذلك لأن الأم كانت تخشى عاقبة خطيئتها القديمة، ولأن البنت كان يبدو لها أن قدرها أن تكون عمياء.

وسألتها أمها ذات يوم:

ـ هل بقي عندك كحل في ريشة الإوزة؟

وأجابت البنت بهدوء من على عتبة الباب حيث كانت جالسة، إذ إن

النور لم يعد يوجعها مذ صارت لا تراه أبداً:

ـ لقد استهلكته كله منذ زمن بعيد.

أضافت الأم قائلة:

ـ يجب أن أشتري لك واحداً من جديد، لماذا لم تخبريني بذلك؟

هزت الفتاة رأسها، وعندما نظرت الأم إليها، توقّف قلبها عن الخفقان. كانت الكلمات تتدفق سيّالة من ذلك الفم العذب:

ـ أوه! يا أمي! إني عمياء، أعرف يقيناً أني عمياء. أنا لا أراك أبداً، وإذا ما اجتزت حاجز الباب فإني لأعجز عن السير خطوة واحدة. ألم تلاحظي أني لا أبتعد عن البيت أبداً، بل لا أقدر حتى على الذهاب إلى الحقول؟

وسال دمعها، وهي تعض على شفتها من الألم، إذ ظل البكاء يؤلمها، وكانت تحاول قدر استطاعتها ألاّ تذرف دموعاً.

لم تجب الأم.. ماذا يمكنها أن تقول لابنتها العمياء؟.. وبعد فترة نهضت، وذهبت إلى غرفتها، ومن جرّار الطاولة، الذي كان يحوي قديماً حليها، تناولت الأسطوانة التي كانت قد اشترتها، وعادت إلى ابنتها، وقالت:

ـ يا ابنتي، كنت اشتريت هذا الغرض، ليوم..

ولم تستطع أن تتم كلامها، ووضعت الأسطوانة بين أصابع الفتاة، التي أمسكت بها، وعرفت ما هي لتوها، فأجابت هادئة بصوت حزين:

ـ نعم، إني بحاجة إليها، يا أمي.

وعندما رجع ولدها البكر في ذلك المساء، رجته أمه أن يقطع غصناً قاسياً وأن يصقله ليد أخته، كي تستطيع، بالشارة المنبهة من جهة وبالعصا من جهة أخرى، أن تسير بحرية أكثر، وبخوف أقل، كما يفعل العميان.. فإذا أصابها ضر، أو دُفعت عن غير قصد، أو وقعت فلا تقع الملامة على الأم، إذ إنها أعطتها شارة العميان، وهي ظاهرة لعيون الجميع.

منذ ذلك اليوم لم تعد الفتاة تخرج من منزلها دون هذين الغرضين: عصاها وأسطوانتها الصغيرة التي تعلمت كيف تقرع عليها نغمة عذبة وواضحة. كانت تمشي بخطى ثابتة وهادئة: فتاة مليحة الشكل، بوجه صغير حزين، وقسمات أضفت العاهة عليها تلك السكينة.

ومع ذلك، كانت الضريرة على جانب عظيم من المهارة في رواحها ومجيئها، في البيت، لا تحتاج إلى الشارة والعصا. كانت تغسل الأرز وتطبخه، لكن أمها لم تكن تتركها تشعل النار. كانت تكنس البيت وباحة المنزل، وتجلب الماء من المستنقع، وتخرج البيض من أمكنته المعهودة. كانت تستدل بالشم وبالصوت على المكان الذي تقبع فيه البهائم، وتعرف كيف تقدم العلف إليها. وتمكنت من القيام بكل الأعمال، ما عدا الخياطة وأعمال الحقول. كان ينقصها القوة لأعمال الأرض، وكأن آلامها منذ سنها المبكرة قد أوقفت نموها.

حين كانت الأم تشاهد ابنتها تروح وتجيء كان قلبها يتفطّر ألماً، وتتساءل بغصة عن المصير المكتوب لها عندما ستضطر إلى تزويجها. إذ سواء على شكل أو على شكل آخر يجب أن تقدم على الزواج في نهاية المطاف، خشية ألاّ يعتني بها أحد بعد موت أمها. فالمرأة لا تنتمي إلى البيت الذي ولدت فيه، إنما إلى بيت الزوج. كانت الأم تفكر في ذلك وتتساءل: مَن يقدم على الزواج بعمياء؟ وإذا لم يرض أحد بها فإلام سيؤول حالها؟

عندما كانت تتحدث في هذا الموضوع، كان ابنها البكر يقول:

ـ سأتعهدها يا أمي، ما دامت تقوم بنصيبها من العمل.

كان ذلك يعزي الأم بعض العزاء. ومع ذلك، كانت تعرف ألاّ سبيل إلى معرفة الرجل معرفة حقيقية إلاّ بعد معرفة ما تساوي امرأته. وكانت الأم تفكر في ذات نفسها:

«يجب أن أجد أحداً يقبل بأن يهتم بصغيرتي الكفيفة، وأن يكون شفوقاً بها. عندما سأشرع في البحث عن كنة يجب أن أختار واحدة

تبذل نفسها لتعتني بشخصين، بزوجها وبأخته».

*

كان الوقت قد حان كي تفكر الأم في البحث عن زوجة لابنها البكر. كان قد بلغ التاسعة عشرة من عمره، ومع ذلك، فإنه لم يفضِ قط برغبته في الزواج ولم يظهر ما يدل على حاجته إلى زوجة. لم يكن من الممكن العثور على ابن أفضل منه ولا أعذب. كان يشتغل شغلاً مُجهداً، لا يطلب شيئاً أبداً، وإذا ما ارتاد حانة الشاي من حين إلى آخر، أو ذهب إلى المدينة في يوم عيد، فإنه ينتهز الفرصة ليقضي في الوقت نفسه بعض الأعمال، لكنه لا يشترك قط في أية سهرة خليعة بل حتى في لعبة ميسر، وإنما يكتفي بالنظر من بعيد. وكان يلزم الصمت دائماً تجاه من يكبره سناً.

كان ابناً كامل الأوصاف، لم يكن لديه سوى منقصة واحدة بعد أن تخلى عن جميع زلات الطفولة: لا يريد أن يرحم أخاه الأصغر. كانت هذه المنقصة مدعاة للاستغراب فعلاً، أن يكون هذا البكر السوي الخلق، حسن المعاملة مع الناس أجمعين، بل حتى مع البهائم، السكوت إلى حد لا يجيب أمه عندما تريد أن تشتري له سترة جديدة حين تسأله عن اللون الذي يرغب، أن يظهر هذا الفتى نفسه كل تلك القسوة إزاء أخيه. كان يصب جام غضبه على الصبي الصغير إذا ما فترت همته في العمل قليلاً، أو إذا شاهده يلعب. كان يجبره بقسوة على القيام بجميع أنواع الأعمال في الحقول. كان البيت ضاجّاً بالشجار. كان الأصغر صاخباً ضاجًّا لا ينقطع صراخه، وكان الأكبر يلزم الصمت قدر استطاعته، وعندما يطفح عنده الكيل يرمي أخاه بكل ما يقع تحت متناول يده، أو ينهال عليه ضرباً بيديه العاريتين ضرباً مبرحاً إلى أن يتملص الصغير ويفر وهو يبكي ويتسلل بين الأشجار ويلتجئ إلى بيت ابن العم. وعمّت أخبارهما حتى إن القرية بأسرها أخذت تلوم الأخ الأكبر لقسوته، وتأخذ بيد الصغير. وتلك المناصرة شجعت الصغير على

ترك العمل، وجعلته يقضي أغلب وقته في بيت ابن العم، بين العديد من أولاده، الصبيان والبنات، الذين كانوا يترعرعون كما يطيب لهم. وكان الصبي لا يرجع بحرية إلى البيت إلاّ عندما يشاهد أخاه قد غادره، وذهب إلى عمله.

كان السخط يتجمع أحياناً في قلب الأخ الأكبر، فيرجع إلى البيت قبل الوقت ليجد فيه أخاه فيقبض عليه ويضع رأسه تحت ذراعه ويضربه ضرباً شديداً حتى تقبل أمه صارخة:

ـ اتركه الآن، اتركه! إن من العار عليك، يا بني، أن تضرب أخاك الصغير على هذا النحو، وأن تفزع أختك!

لكن الفتى كان يجيب بغلظة:

ـ أليس من واجبي أن أقوّم اعوجاجه؟ أبوه غائب وأنا الأكبر. إنه ليس إلاّ خاملاً، كسولاً، يقامر كلما سنحت له الفرص. أنت تعلمين ذلك حق العلم، يا أمي، لكنه الابن المفضل لديك.

وفي الحق، كانت الأم تشعر بميل خاص نحو صغيرها. كان يحرك قلبها. لقد شب بكرها عن الطوق سريعاً، وهو سكوت دائماً لا يتفوه بكلمة إلى أحد. كانت الأم لا تقدّر أن التعب هو الذي يختم على فم ابنها الأكبر، وأن ما كانت تحسبه مزاجاً كئيباً عنده ليس إلاّ منتهى الإجهاد.

وكانت تحب ابنتها بحنان، لكن ذلك الحنان كان أليماً، إذ إن عينيها المغمضتين تؤنبانها دائماً على فعلتها. كانت لا تستطيع أن تنسى أن الإلّهة الحية لم تصغ إلى الدعاء، وكانت لا تجرؤ على إعادة الكرة خشية أن تقع تبعة خطيئتها على رأس ابنتها. وما كانت هي تستطيع أن تتحمل ذلك. ورغم أن قلبها كان دائم الانقباض بشفقة ورحمة على ابنتها، إلاّ أن هذه لم تكن تمنحها أية بهجة. وكانت أحياناً تقترب باسمة من أمها، وتجلس إلى جانبها بعطف، لتصغي إلى صوتها. لكن الأم كانت تجد عذراً لتنهض وتهتم بشيء آخر، إذ كانت عاجزة عن تحمل النظر إلى هاتين العينين النديتين المغلقتين الفارغتين. كان ابنها الصغير سليماً،

قوياً، مرحاً. كان يشبه أباه، والحب الذي كان يخفق بين جوانح الأم نحو زوجها قد تحول إلى هذا الابن. كانت تحبه، وتقف غالباً حاجزاً بينه وبين أخيه، عندما كان الفتى يقبض على الصبي وينهال عليه ضرباً، وتتلقى عنه الضربات حتى يخجل الكبير من ضربه لأمه ويتوقف، ويتسلل الصغير وينهزم.

وراح هذا الصغير ينهزم أكثر فأكثر. فبعد أن كان يلتجئ إلى بيت ابن العم، صار يختبئ هنا وهناك، بل حتى في المدينة، كان يختفي يوماً أو يومين ثم يعود إلى بيت ابن العم، ويرصد مزاج أخيه، ويرجع إلى البيت كأنه لم يغادر المنزل المواجه طيلة ذلك الوقت. وعندما كان يبيت في ذلك المنزل كانت أمه تنتظر رحيل أخيه ثم تذهب إليه وترجعه بالتملق والملاطفة والوعود. ومع هذا كانت تخشى ابنها البكر، فكان يحدث لها أن ترافقه إلى الحقول ومنها ترجع إلى البيت قبله كي تقدم الطعام إلى الأصغر قبل مجيء الأكبر. كان ينتقي أفضل ما في الطعام وأطيبه، وكانت أمه تحبه إلى حد أنها تتركه يفعل. كانت تحبه بسبب كلماته المرحة، وطريقة تكوينه، ووجهه السوي المستدير، وذلك الجسم الرشيق الذي كان كجسم أبيه. أما البكر فكانت يده قاسية وبطيئة، كان يمشي محدودب الظهر، جراء أعماله الشاقة. لكن الصبي كان حيوياً، أسمر اللون، أملس الجلد، خفيفاً كقط صغير، ولذلك كانت أمه تحبه.

كان الابن البكر، رغم بطئه وثقله، يشعر بذلك الحنان الحار الذي تظهره أمه نحو أخيه، وكان يتألم من ذلك، ويتذكر كل يوم عمل، وكل المشقات التي وفرها على أمه، وكان لا يعرف قلباً أقسى من قلب هذه المرأة التي لا تحسب أية قيمة لكل تلك الجهود التي بذلها من أجلها منذ طفولته. وكانت المرارة تتجمع في قلبه شيئاً فشيئاً. ومن ثمَّ راح يكره أخاه.

14

كان الحقد على الأخ الصغير يتعاظم عند البكر، ولم تلاحظ الأم كم كان حقده عميقاً إلاّ يوم انفجر، جارفاً كنهر يحجزه سد، وقد حطم هذا السدّ وتدفق طاغياً.

حدث ذلك أيام حصاد الأرز في آخر فصل الصيف، في وقت كان يتطلب عملاً قاسياً من الفجر إلى الغسق، وأن يعمل جميع من ليسوا أغنياء كيلا يستأجروا عوناً. وقد اشترك الأصغر في العمل أيضاً، فهو عادة يجد عذراً في مثل تلك الظروف ويبتعد. إلاّ أن أمه، في هذه المرة، اجتذبته سرّاً بالوعد والملاطفة، وهي تداعب يده الصغيرة، قالت له:

ـ اشتغل جيداً في أثناء الحصاد، وأظهر لأخيك الأكبر ما تستطيع أن تفعله، إذا وُفّقت إلى إرضائه فسأشتري لك غرضاً رائعاً عند انتهاء العمل، وحسب اختيارك.

وُعد الصبي. وانكب على العمل، بلا إفراط ولا تفريط، لكن بطريقة ينقذ معها جلده، عندما كانت أنظار أخيه تتوجه صوبه.

في ذلك اليوم، كان المطر خطيراً مهدِّداً وكانت جميع الحزم لم ترفع بعد. كانوا يعملون إلى ما بعد الساعة المعتادة. تعبت الأم، ولم تعد تستطيع الاستمرار فتوقفت ـ فقد أصبحت أقل مقاومة منذ تلك الليلة المظلمة التي شربت فيها تلك الأعشاب المرة لتنقذ شرفها ـ زفرت وقوّمت ظهرها بألم وقالت:

ـ يا بني، إني راجعة إلى البيت لأحضّر عشاءً ساخناً ريثما تأتي. أنا تعبة ومتألمة.

فأجاب ابنها البكر بلهجة بدت فظة، لكن دون قصد منه، إذ إنه لم يدفع أمه قط إلى العمل أكثر مما تتحمل قواها:

ـ ليكن، انصرفي.

انصرفت وتركت الأخوين وحدهما. كانت الساعة متأخرة حتى لأولئك اللاّقطين الذين كانوا يتعقبون آثارهم طيلة النهار، ويجمعون ما أهملوه.

ما كادت الأم تضع الطعام على النار حتى جاءت الفتاة تقول لها إنها تسمع أخاها الصغير يبكي. عندما خرجت الأم من المطبخ سمعت صوت استغاثة، فأسرعت إلى الحقل الذي أمضت نهارها فيه، ووجدت ابنها البكر قابضاً بخناق ابنها الأصغر بيد قوية ويضربه بلا رحمة بمنجله الكبير. وكان الصغير يصرخ، يرد بقبضاته، يتفض، يقاوم، ويحاول عبثاً أن يتخلص من القبضة القوية ومن الضرب الأليم.

هجمت الأم على ابنها بغضب، وتعلّقت به، وتضرعت إليه:

ـ أوه، يا بني! إنه ليس إلاّ طفلاً يا بني!.. أوه! يا بني!

وفي أثناء ذلك تملص الصبي وفر كأرنب في الحقول، وضاع أثره في الظلام. وبقيت الأم وحدها وجهاً لوجه مع ابنها المشتعل غضباً، قالت بصوت مضطرب:

ـ إنه لا يزال غلاماً، في الرابعة عشرة، ومن حقه ألاّ يفكر بغير اللهو.

فأجاب البكر:

ـ وهل ما كنت أنا غلاماً في الرابعة عشرة؟ هل كنت ألهو في أثناء الحصاد؟ بل هل كنت بحاجة إلى أن تغريني بوعود، الخواتم، والثوب الجديد، وما لا أدري أيضاً، عندما لا أكسب عيشي!؟

عندئذ، علمت أن الصبي الأحمق تبجح أمام أخيه الأكبر بما وعدته به أمه. وظلت واقفة فاغرة الفم، مثبتة العينين على ابنها، لا تنبس بكلمة، بينما كان هو يصرخ بمرارة:

ـ نعم، إنك تحفظين المال، وأنا أعطيك ما أربحه كله. إني لا أُبقي قرشاً واحداً لي، ولم أشتر قط لنفسي أي غليون أو أدفع ثمن كأس نبيذ أو أية غرض آخر. ومع هذا، فإنك تريدين أن تعطيه ما لم أنله أنا قط. ولِمَ

ذلك؟ لكي تدفعيه إلى القيام بعمل يجني من ورائه ثمن طعامه ولباسه.

قالت الأم بصوت خفيض مرتعش:

ـ إني لم أتحدث عن خاتم أو ثوب!

كانت تشعر بالخوف أمام هذا الابن الذي هو عادة رضي هادئ، والذي لم تعد تعرفه، الآن، غاضباً.

قال بحدّة:

ـ بلى، بلى. بل ربما أسوأ من ذلك، فقد زعم أنه سيتلقى كل ما يعجبه بعد بيع المحاصيل. إنه يؤكد على أنك وعدته بذلك.

قالت بخجل أمام هذا الابن الطيب:

ـ كنت أفكر في هدية بسيطة بقرشين.

ثم استجمعت جرأتها، إذ إنها أمه، قبل كل شيء، وأضافت:

ـ إن كنت قد وعدته فلكي أنقذه فقط من غضبك الذي ينصب جامّه عليه مهما فعل. أنت تحتقره بنظراتك، وبكلماتك القاسية، والآن بضربك له!

لم يشأ أن يجيب بكلمة، بل عاد إلى حزمه. أقبل على العمل بحمية كأنه مأخوذ. كانت الأم تنظر إليه مرتبكة. مهما وجدته قاسياً تجاه أخيه الصغير، فهي تشعر بأنها مخطئة تجاهه. وبينما كانت تراقبه لاحظت أنه على وشك أن يبكي، ويشد على فكيه كي يخنق صرخته. عندما رأت ذلك الانفعال عند كائن لا يظهر من ذلك شيئاً في العادة، إذ يبدو دائماً عادياً، قانعاً، دون أية رغبة، عطف قلب الأمومة فيها ولان، لكنها لم تظهر شيئاً، كما تفعل دائماً كلما جرحت شعور أحد أولادها، رغم أنها كانت تشعر برأفة كما لم تشعر من قبل. قالت على عجل:

ـ لقد أخطأت يا بني، إني أسأت التصرف بحقك في الأيام الأخيرة. أنا لم ألاحظ أنك تكبر، وأنك أصبحت رجلاً. إني أدرك ذلك الآن، وستحتل مكانك في البيت، الأول، كما كنت في العمل دائماً. إني

ألاحظ ذلك، وسأتلافى ما فرطت في الحال لأني تأخرت كثيراً. سأفتش لك عن زوجة، وقد جاء دوركما، هي وأنت. إني أفهم أن تجري الأمور هذا المجرى.

بهذا الأسلوب طلبت منه الصفح. فتمتم ببعض كلمات مبهمة، وأدار ظهره واستأنف العمل دون أن يتلفظ بحرف. إلاّ أنها شعرت بإزاحة حمل عن كاهلها بتلك التنازلات. وانصرفت وهي تصيح:

ـ سيكون الأرز محروقاً، على أغلب الظن!

كانت تحاول بهذه الكلمات أن تخفف انفعال تلك اللحظة وأن تظهر أنها طبيعية.

عندما رجعت شغلت نفسها بشيء، وبشيء آخر، وزال تعبها. وعندما سألتها ابنتها:

ـ ماذا حدث يا أمي؟

ردت بسرعة:

ـ لا شيء خطيراً، يا ابنتي. كان أخوك الصغير يرفض أن يقوم بنصيبه من العمل، أو على الأقل، من ذلك كان يشتكي الأخ الكبير. الأخوة يتشاجرون دائماً فيما بينهم.

وبادرت إلى طبخ طعام يحبه ابنها. اقتلعت فجلاً وقطّعته ورشت عليه خلاً وزيت سمسم ومرق فول. كانت تفكر في الوقت نفسه، راضيةً لأنها كفّرت عن أخطائها. كان يبدو لها عدلاً أن تزوج ابنها، وتلوم نفسها لاعتمادها عليه دون أن تمنحه امتيازات سنه. كانت عازمة على الوفاء بوعودها.

عاد الشاب أخيراً إلى المنزل، متأخراً كعادته، كان الوقت ليلاً فلم تلمح وجهه إلاّ عندما اقترب من المائدة حيث وضعت عليها شمعة مضاءة. وراقبته عندئذ عن قرب، دون أن يشعر، فوجدته على عادته. كان يبدو راضياً عما قالته له، لقد امحى كل أثر للغضب من وجهه.

وعندما شاهدت وجهه الهادئ الرائق نادت على الابن الأصغر الذي كان يتردد أمام الباب، وقد شدّه الجوع، لكنه كان لا يجرؤ على الدخول قبل أن يعرف مزاج أخيه الأكبر. صاحت الأم:

ـ ادخل، يا صغيري!

دخل، وعيناه مثبتتان على أخيه الذي لم يعره أي انتباه، وقد سكنت فورة غضبه. كانت الأم تشعر بسعادة، لتأكدها من أنها تصرفت بتعقل واهتمت بوضع خطتها موضع التنفيذ.

*

وكما اعتادت في كل مرة، كلما كانت تصطدم بالحيرة، قصدت بيت ابن العم. كانت هي، شخصياً، لا تعرف أية فتاة، ولم يكن من الممكن اختيار واحدة من القرية، إذ كن جميعهن أقرباء له، بالدم وتحملن اسمه. وفي المدينة لم تكن تعرف أحداً عدا الباعة الصغار الذين كانوا يشترون منها القليل الذي تعرضه. وهكذا دخلت مساء على ابنة العم. كان الجو حاراً رغم اقتراب الخريف، كان الزوجان جالسين يتحدثان بينما كانت ابنة العم ترضع مولودها الأخير، وأخيراً أفضت الأم إليها برغبتها، فقالت:

ـ يا أختي، ألا تعرفين فتاة في القرية التي كنت تقطنين فيها قبل زواجك؟ فتاة مثلك رضية ترضيني، حسنة المزاج، ولوداً، حاذقة في عملها. في وسعي أن أقوم بأعمال البيت خلال أعوام عديدة بعد، لذلك لا بأس إذا لم تكن ماهرة جداً من هذه الناحية.

انفجرت ابنة العم الطيبة بالضحك، ونظرت إلى زوجها وقالت:

ـ لا أدري إن كان هو يجد أن امرأة مثلي بركة على ابنك، أو بالعكس.

رفع الرجل رأسه بحركة بطيئة، كان في فمه سنبلة أرز، أجاب بعد لحظة تفكير:

ـ أوه! نعم، لا بأس..

ضحكت امرأته من جديد دالة على فتوره، ثم قالت:

ـ أظن أني أستطيع أن أذهب إلى هناك لأبحث، يا أختي. ففي تلك القرية، التي فيها سوق، قرابة مائتي عائلة، لعلي أجد فتاة مناسبة.

ودار الحديث بينهم حول هذا الموضوع، وأعلنت الأم أنها لا تستطيع أن تتعهد بأي مصاريف، وأضافت:

ـ إني أعرف جيداً أني لا أستطيع أن أطمع في الكمال، بما أننا فقراء، وليس لدى ابني غير قطعة أرض صغيرة. إننا نستأجر أكثر مما نملك.

أعلن الرجل كلمة في الموضوع:

ـ على كل حال، أنتم تملكون أرضاً، وهذا شيء لا يستهان به في هذا الأيام التي لا يملك الكثيرون فيها أرضاً. إني أفضل أن أزوج ابنتي برجل يملك أرضاً وهو فقير على أن أزوجها بغني لا يمشي على أرض يملكها. رجل شهم وأرض طيبة، هذا ما أتمناه لابنتي!

عندئذ، قالت زوجته له:

ـ يا أبا أولادي اتركني أذهب، سأقضي يوماً أو يومين في تلك القرية، وسأستعلم.

وصوّب رأيها بكلمات موجزة، حسب عادته، قال:

ـ إني أسمح لك. لقد كبرت البنات كي يحللن محلك من وقت إلى آخر.

بعد وقت قصير، ارتدت ابنة العم ثياباً نظيفة وحملت الرضيع واستأجرت نقالة، واصطحبت معها واحداً أو اثنين من صغار أولادها لتقدمهما إلى عائلة زوجها، وكذلك بنتين كبيرتين لتساعداها في الاعتناء بالصغار، وامتطت هي الحمار الرمادي الذي لن يحتاج إليه زوجها، إذ كان قد فرغ من الحصاد. ذهبوا جميعاً وغابوا ثلاثة أيام، وعند عودتها كانت ابنة العم لا تفكر إلاّ بتلك الفتيات اللواتي شاهدتهن. قالت للأم التي خفت لزيارتها حين علمت بعودتها:

ـ في تلك القرية عدد كبير من الفتيات، إذ إننا لا نقتلهن أبداً كما يُفعل ذلك في بعض المدن عندما لا يكون الوليد ذكراً. هنا، يسمحون للبنات أن يكبرن حتى لو كان عند الأم العديد منهن، لذلك فالقرية مليئة بهن. لقد شاهدت ما يزيد على عشر فتيات كنت أعرفهن أنا نفسي، يا أختي، جميعهن مقبولات، لحومهن جيدة ولونهن حسن، تصلح كل واحدة منهن أن تكون زوجة لأي من أولادي، لكن كان يجب عليّ اختيار واحدة. تفحصتهن الواحدة تلو الأخرى، ثلاث منهن أعجبنني خاصة، وتأملتهن من جديد، فاكتشفت أن أولاهن تسعل وأنفها مخاطي، ولم تظهر لي عينا الثانية صحيحتين، أما الثالثة فقدرت أنها أفضلهن، فهي فتاة مستقيمة وذكية، إني متأكدة أنها متقنة في أفعالها وفي أقوالها، يزعمون أنها تخيط أسرع من جميع فتيات البلدة، إنها تخيط ثيابها لنفسها، وثياب أفراد عائلة أبيها، وتربح بعض قطع فضية في الخياطة لأناس غرباء. ربما كانت كبيرة السن بعض الشيء بالنسبة إلى ابنك، إذ إنه سبق لها أن خُطبت، لكن الخطيب مات، ولولا ذلك لكانت اليوم متزوجة. وقد يكون ذلك حسن، لأن أباها يرغب رغبة بالغة في تزويجها بطريقة أو بأخرى، ولن يكون متشدّداً في شروطه. قد لا تكون جميلة كالأخريات، فوجهها أصفر من كثرة ما انحنت على الخياطة، لكن عينيها سليمتان.

أجابت الأم بحيوية:

ـ في بيتنا ما يكفي من العيون المريضة، أؤكد لك، ولم تعد عيناي كسابق عهدهما. يلزمنا شخص يجيد الخياطة ويحب هذا العمل. رتبي الأمور مع هذه، يا أختي، ففيه الخير، إن كان عمرها لا يتجاوز سن ابني أكثر من خمس سنوات في أبعد تقدير.

اتُّخذ القرار، وراحوا يقارنون أيام الشهر، والسنة، وساعة ميلاد كل منهما على طاولة ضارب الرمل في المدينة. وظهرت النتيجة إيجاباً موافقة، ولو أن الشاب في برج الحصان، والفتاة في برج القط. وهكذا

فهذان الحيوانان لا يلتهمان الواحد الآخر، وذلك ما يسمح بالوفاق والانسجام بينهما في الحياة الزوجية. كان الحظ ملائماً. وقدمت الهدايا حسب العادة المتبعة.

أخرجت الأم من كنزها الصغير بعض قطع فضية وبرونزية، واشترت قماشاً قطنياً جيداً، وخاطت هي نفسها ثوبين للفتاة. وتبعاً للتقاليد المتعارف عليها رغبت في أن يقص ذلك القماش شخص معروف بحظه السعيد، امرأة تكون حياتها رضية مرضية، مقسمة بين زوجها وأولادها. ولم يكن في القرية شخص أفضل من ابنة العم. حملت الأم القماش وذهبت إليها وقالت:

ـ ضعي يدك هنا، يا أختي، واجلبي السعادة لامرأة ابني.

وفعلت ابنة العم كما طلبت إليها؛ وقصت الثوبين عريضين فضفاضين كي يظلا صالحين حين تحمل المرأة الشابة.

وأخرجت الأم أيضاً قطعاً أخرى لتستأجر محملاً، وكذلك لتشتري إكليلاً، وقرطين بلآلئ زائفة، وكل ما يلزم للعرس، وخصوصاً ما يجب على كل عروس أن ترتديه ليلة عرسها: سروالاً أحمر.

وكان التاريخ قد حدّد، ثم اقترب، ثم أخيراً حل. كان ذلك في يوم صاف وبارد في منتصف الشتاء.

يا لليوم الغريب الذي كان يجب فيه على الأم أن تكون سيد البيت وسيدته، وأن تستقبل تلك الفتاة الغريبة. كانت واقفة على عتبة الباب، مرتدية أجمل ثيابها تنتظر العروس. وفجأة خيل إليها أنه لم يمض غير زمن قصير منذ أن حُملت على محمل مثل هذا، أمام الجدة وابنها، العريس حينئذ، الذي كان يقف في المكان الذي يقف فيه ابنها اليوم إلى جانبها.

كانت نادراً ما تفكر بزوجها، فقد تكوّن الانطباع لديها بأنه قد مات فعلاً. لكن في تلك الساعة، اشتدت فيها رغبة مدهشة إليه، لم تكن رغبة جسدية، فتلك قد عفّى عليها الزمان، ومضت إلى غير رجعة، وإنما هي

حاجة مختلفة، الحاجة إلى أن يكون بقربها شخص من سنها، يكملها، إذ كانت تشعر بالوحدة.

كانت تنعم النظر في الشاب الواقف بجانبها، لم يعد ابنها فحسب إنما هو زوج امرأة أخرى أيضاً. كان ساكناً، خافض الرأس قليلاً، متوتر الأعصاب في ثوبه الجديد الذي خاطته له، غير متهيّب، أو أنها كانت تظن ذلك على الأقل قبل أن تشاهد ارتعاش يديه. وتنهّدت مرة أخرى وهي تتذكر زوجها كما بدا لها حينما ألقت عليه خلسة نظرة من بين أستار محملها. لقد وجدته لفورها بهياً لطيف المنظر إلى حد أن قلبها قفز من صدرها. وفكرت، نعم إنه كان أجمل من ابنها، وإنها لم تقابل رجلاً أجمل منه قط.

غير أن الوقت لم يسمح لها إلاّ بعاطفة أسى غامضة وخاطفة، إذ كان الموكب يقترب: في الخط الأول مختلف أنواع الفاكهة لحفلة العرس، ثم الديك الذي كانت أرسلته إلى العروس، والذي يجب، حسب العرف، أن يعاد مصحوباً بدجاجة، ثم المحمل الذي أوقف أمام الباب. وتقدمت ابنة العم ومعها الأرملة الثرثارة ونساء أخريات متقدمات في السن من القرية، تقدمن ليمسكن بيد العروس ويجرّرنها. وأبدت هي تأدباً وتمنُّعاً، خافضة العينين لم ترفعهما مرة واحدة.

انسحبت الأم عندئذ إلى بيت ابن العم، كما يقضي العرف، إذ يقولون إنه ينبغي للعروس ألا ترى بسهولة في البدء حماتها خشية ألاّ تحترمها كما يجب فيما بعد. وهكذا أمضت الأم يومها كله في بيت ابن العم.

ومع ذلك فإنها لم تبتعد عن الباب أبداً، يدفعها الفضول إلى سماع ما يقوله الناس عن العروس. وسمعت شخصاً يقول:

ـ فتاة ممتازة وتبدو رصينة.

وشخص آخر يعلق:

ـ يقولون إنها تخيط بشكل رائع، إن كانت قد صنعت هي نفسها

الحذاء الذي تنتعله فأؤكد لك أن أصابعها العشرة من ذهب.

كانت النساء يقتربن منها ويمسسن ثياب العرس الحمراء، ويرفعن السترة ليتفحصن ما تحتها. وكان كل شيء يبدو لهن متقناً. وكن يتهافتن على الأم ليقلن لها:

ـ إنها امرأة شابة ماهرة، وكما ينبغي، ولائقة جداً، يا معلمة.

لكن كان بعض الرجال يعلّق بفظاظة، وأعلن أحدهم:

ـ صفراء جداً، ونحيلة جداً بالنسبة إلى ذوقي!

ردّ آخر:

ـ في الواقع، انتظر فقط بضعة أشهر، ويزول نحولها يا أخي. لا شيء يوازي رجلاً لينفخ فتاة.

ووسط تلك الأقوال الجذلة والخليعة دخلت المرأة الشابة بتواضع بيتها الجديد. وتزوجت!

كان يجب على الأم أن تترك السرير الذي تنام عليه منذ سنوات طويلة. وحسب التقاليد هيأت كنتها لها سريرها في المكان الذي كانت تنام فيه العجوز المتوفاة، خلف الستار الأزرق.

وكانت البنت الكفيفة تنام على فراش إلى جانبها، وينام الصبي في المطبخ عندما كان يعود إلى البيت.

واعتباراً من تلك الليلة، صار الابن البكر ينام إلى جانب زوجته على السرير الرئيسي.

*

لم تتنازل الأم برضى ويسر للزوجين عن المكان الذي كانت تشغله إلى جانب زوجها. وفي الليل كانت متمدّدة على سرير الجدة وتحسب أنها شاخت جداً. وما دام النهار مستمرّاً فإنها كانت تشعر بنفسها، كعادتها، مشغولة هنا وهناك، في هذا وفي ذاك، آمرة هؤلاء وناهية هؤلاء، ولسانها مستعد دائماً ليصلح أو ليزجر، لكن عندما كان الليل

يهبط ترجع وتمسي عجوزاً. كانت غالباً ما تستيقظ في الليل عاجزة عن التصور أنها هي نفسها التي ترقد في تلك الزاوية، بينما ينام الزوجان على سريرها هي، كانت تقول لنفسها بخبل:

« لقد شعرت المخلوقة المسكينة التي حللت مكانها ما أشعر به الآن عندما كنت امرأة شابة، ودخلت إلى هذا البيت ونحّيتها عن سريرها كي أحل محلها بدوري مع ابنها. والآن تنام امرأة أخرى إلى جانب ابني».

كان هذا الأمر يبدو عجيباً، ذلك الدوران لدولاب خفي لا نهاية له، ذلك المرور من حلقة إلى أخرى ليكوّن سلسلة خالدة. كانت الأم مبهورة، رغم أنه لم يكن لديها إلاّ إدراك غامض لتلك الأشياء، لأن طبيعتها لم تكن مهيأة للتفكير بالأحداث إنما لقبولها كيفما أتت. وكانت تشعر بنفسها أنها تضاءلت في عين نفسها، وأنها قد انتزعت منها ملكيتها، رغم أنها كانت مستمرة في الأمر والنهي، وفي الاحتفاظ بالمكانة الأولى.

كانت تراقب كنّتها. كانت المرأة الشابة تظهر لها إجلالاً وإعزازاً، وتأتي كل صباح لتنحني أمامها إلى أن تملّ هذه منها وتصرخ:

ـ هذا يكفي.

لم تكتشف الأم فيها أية نقيصة. ثم بدا لها أن هذا الكمال نفسه نقيصة. وتمتمت:

«يجب أن يكون فيها بعض نقائص لم أكتشفها بعد!».

إذ إن امرأة ابنها لم تمط اللثام عن نفسها للوهلة الأولى، كما تُظهر بعض الطبائع. لقد برهنت على همة واعتناء، كانت تشتغل بسرعة وإتقان، وعندما كانت تفرغ من أعمالها كانت تجلس وتخيط لزوجها، وكانت تطبع على كل ما تفعله طابعها المميّز.

ولكن لا وجود لامرأتين في العالم تقومان بمهمة ما بالطريقة عينها. كان لا يخالج الأم شك في ذلك أبداً. كانت مقتنعة بأن كل امرأة

تتصرف كما هي تتصرف، وعلى العكس فكنتها تتصرف حسب هواها. إنها تسلق الأرز بمزيد من ماء مثلاً، وذلك ما يجعله مثل العجين، وهذا ما لا تحبه الأم. وأفضت بملاحظتها هذه إلى كنتها، التي عضت على شفتها الشاحبة برفق واكتفت بالقول:

ـ إني أحضّره دائماً هكذا.

واستمرت تسلقه كما كانت تفعل، على طريقتها الخاصة.

وتجدد التباين فيما يتعلق بكل شيء. كانت المرأة الشابة تحدث تغييرات في المنزل لا تعجب الأم، وبنظام وصبر، ودون تهافت، ودون أن تثير الغضب. وعلى هذا، كانت رائحة البهائم لا تطيب لها في الليل، اشتكت من الأمر إلى الرجل، دون أن تتحدث عنه إلى حماتها. ومنذ ذلك الشتاء شرع في بناء غرفة في البيت، حيث يستطيعان أن ينقلا إليها سريرهما ويناما وحدهما. كانت الأم تنظر بذهول إلى ذلك السلوك المستحدث.

في البداية، قالت للكفيفة إنها لن تغضب على كنتها أبداً. وبالفعل كان من الصعب أن ينفد صبرها معها في ذلك الحين، إذ كانت المرأة الشابة تظهر اعتناء وإتقاناً في عملها، وكان من العسير القول عن شيء تأتي به «هذا لا يجوز». أو أن يقال لها «لقد أسأت صنع هذا».

لكن أشياء عديدة لم تكن ترضي الأم، ولا سيما ذلك الأرز العجيني. كانت تتذمر غالباً. وانتهى بها الحال إلى القول بصوت عال:

ـ إني لا أشعر بالشبع بهذا الطعام الرخو. إني لا أجد شيئاً أمضغه تحت أسناني. إنه ممتلئ ماء ويزلج إلى معدتي كالريح. هذا لا يبقى، كما يجب أن يفعل طعام مغذٍ!

وعندما شاهدت أن كنتها لا تعير لأقوالها أذناً صاغية، ذهبت بالخفية لملاقاة ابنها في الحقول وقالت له:

ـ يا بني، لماذا لا تطلب إليها أن تطبخ أرزاً أكثر قسوة وجفافاً؟ إنك

في أغلب الظن تفضله كما أقول.

استند الشاب إلى معزقه، وأجابها بصوت هادئ:

ـ إني أجده جيداً بالطريقة التي تحضّره.

انتاب الغضب الأم وصاحت:

ـ كنت تجده سيئاً في السابق. وها أني أرى بوضوح أنك تنضم إلى صفها، لا إلى صفي. إن من المخجل أن تحب امرأتك كل هذا الحب، وأن تقف معها ضد أمك!

احمر وجه الشاب وقال ببساطة:

ـ حقاً، إني أحبه هكذا.

وعاد يقتلع الأعشاب الضارة.

منذ ذلك اليوم أدركت الأم أنهما، كليهما، سيّدا البيت. وكان ابنها لا يظهر لطفاً أقل من السابق تجاهها. كان مستمراً في عمله وتلقي المال. وكان لا يصرفه، لا هو ولا امرأته، إذ كانا كلاهما مقتصدين. وبصفتهما زوجين، فإليهما تعود ملكية المسكن والأراضي. كانا يعتبران الأم كامرأة البيت العجوز. عندما كانت تتكلم عن الحقول، وعن البذار، وعن جميع الأعمال التي تعرفها حق المعرفة، كانا يتركانها تتكلم، ثم يتصرفان بمقتضى فكرتهما. كانت تشعر جيداً بأنها لم تعد شيئاً يؤبه له، وأن حكمتها لم يعد يحسب لها حساب في هذا المنزل الذي كان ملكها.

كان ذلك الوضع يؤلم أي إنسان. وعندما أتم بناء الغرفة، وانتقل الزوجان إليها، همست الأم إلى الكفيفة التي كانت تنام بجوارها:

ـ إني لم أرَ قط في حياتي تصنُّعاً كهذا. يظهرفعلاً أن رائحة البهائم الشريفة قد أصبحت فاسدة، إني أقسم أنهما بنيا هذه الغرفة كي يبتعدا عنا، وكي يتحدثا عن مشاريعهما دون أن نستطيع سماعهما. إنهما لا يخبرانني بشيء أبداً، البهائم ليست إلاّ عذراً منتحلاً.. إن من الخزي أن

يحبها أخوك هذا الحب كله! إنهما لا يهتمان بكِ ولا بالصبي، بل حتى بي، إني على يقين.

لم تنبس الفتاة بحرف، فسألتها أمها:

ـ ألستُ على حق فيما أقول يا ابنتي؟

تردّدت الكفيفة ثم أجابت من أعماق العتمة:

ـ يا أمي، بودي حقاً أن أقول لك شيئاً، بيد أني لا أجرؤ، خشية أن أحزنك.

قالت الأم:

ـ تستطيعين أن تتكلمي يا ابنتي، لقد ألفت الأحزان!

وبصوت ضعيف استأنفت الفتاة تسأل:

ـ ماذا قررت أن تفعلي بي، يا أمي، عمياء كما أنا؟

فوجئت الأم بهذا السؤال. ثم إنها لم تكن تقدّر أن ابنتها تستطيع أن تعيش إلاّ إلى جانبها، أو على الأقل في هذا الوقت. فسألتها:

ـ اشرحي لي ماذا تقصدين؟

أجابت الفتاة:

ـ أنا لا أريد أن يُعتقد أن زوجة أخي تعوزها الطيبة، لا، إنها ليست قاسية، يا أمي، إنما هي تتصور أنك ستزوجينني قريباً. لقد سمعتها تسأل أخي الصغير، منذ أيام، إلى من أنا مخطوبة، وعندما قال إني لم أرتبط بعد بأحد، صاحت بدهش «إنها فتاة كبيرة وآن لها أن يكون لها حماة!».

قالت الأم:

ـ لكنك كفيفة يا ابنتي، ومن الصعب تزويجك.

قالت الفتاة برويّة:

ـ إني أفهم جيداً.

وبعد هنيهة أضافت بصوت بدا يخرج من فم جاف، وبأنفاس محرقة:

ـ لكنك تعرفين أني أستطيع القيام بأعمال لا بأس بها. فلعل رجلاً فقيراً، أو أرمل، يقبل بي، إن لم يطلب إليه أن يدفع شيئاً من أجلي! على الأقل، سأكون في بيتي، وإذا أنت رحلت، فسيكون لدي أحد أستطيع أن أهتم به ويهتم بي. إني لا أظن، يا أمي، أن أخي يريد الاحتفاظ بي.

أجابت الأم بعصبية:

ـ يا ابنتي، لا أريد أن تذهبي إلى بيت بهذه الصورة لتسدي ثقباً. إننا فقراء، هذا حق، لكن في هذا البيت ما يكفي لإطعامك. الأرامل هم غالباً أقسى الأزواج، وأشدهم طمعاً، يا صغيرتي. لذلك انسي كل هذا ونامي. أنا لا أزال متينة البنية، وعازمة على أن أعيش طويلاً. وأخوك لم يكن قط شريراً معك، حتى في طفولتك.

قالت الفتاة متنهّدة:

ـ إنه لم يكن متزوجاً في ذلك العهد، يا أمي.

ثم لزمت الصمت وبدت كأنها نامت.

لكن الأم لم تستطع إلى النوم سبيلاً.. مع أن نومها كان طبيعيّاً وعميقاً في العادة. ومع هذا ظلت متمدّدة تفكر، كانت تستعيد الأيام الماضية يوماً بعد يوم، وتبحث عن صحة ملاحظات ابنتها. ورغم أنها لم تتذكر أي حادث معين، إلاّ أنها كانت تشعر بنقصان العطف لدى كنتها. لم تظهر المرأة الشابة قط أقل حرارة ودٍ تجاه ابنها الصغير، أو تجاه الأخت الكفيفة، اللذين يعيشان في بيت زوجها. وكان على الأم أن تتحمل هذه المرارة الجديدة.

15

كانت الأم لا تكف عن مراقبة ما يجري يومياً كي تتأكد من أن ابنتها

لم تخطئ. لم يكن في أقوال المرأة الشابة سفاهة أو فظاظة. وكانت تبدو باشة على الدوام. لكنها كانت تمطر الكفيفة بوابل من إبر ودبابيس خفية. كانت تقدم لها طعاماً غير كافٍ - في عين الأم، على الأقل - وضعت مرة على المائدة أكلة طيبة، ولم تعرف الفتاة بها، ولم تفكر زوجة الأخ أن تقدم لها منها. وكاد الحادث يمر دون تعليق، إذ كان شغل كل فرد إملاء بطنه، لولا نظرة الأم الحادة وسؤالها:

ـ يا ابنتي، ألا تحبين رئة البقرة هذه، المطبوخة في الحساء اليوم؟

وأجابت الفتاة بصوت عذب:

ـ كنت لا أعرف أن طعامنا هو هذا. إني أحبها كثيراً.

وراحت الأم تملأ ملعقتها باللحم والمرق وتفرغها في زبدية ابنتها. كانت تفعل ذلك علانية وضاجّة كي تلاحظ كنتها التي كانت تنظر باحتشام وتأكل، وهي لا تكاد تحرك شفتيها الغليظتين، رغم شحوبهما:

ـ أطلب إليك السماح يا أختي، كنت أظن أنني قدمت لك هذه الأكلة.

لكن الأم كانت تعرف تماماً أن كنتها تكذب.

وفي أحيان أخرى، عندما كانت المرأة الشابة تخيط حذاء لأخت زوجها - إذ كان عليها أن تصنع أحذية لجميع أفراد العائلة - كانت تفعل ذلك على عجل، وتضع له نعلاً رقيقاً، وتتحاشى تطريز زهرة عليه. وعندما كانت الأم تشاهد ذلك تقول:

ـ حقاً، ألن يكون على حذاء ابنتي أصغر زهرة، بينما تضعين أزهاراً على جميع أحذيتك؟

فتحت زوجة الابن عينيها السوداوين الذاويتين وقالت:

ـ سأفعل، إن كانت تلك رغبتك يا أم، إنما فكرت بما أنها لا تميز الألوان، وأن علي أن أخيط كثيراً لهذا الصبي الذي يبلي زوجين تقريباً كل شهر، في رحلاته إلى المدينة.

كانت الفتاة الكفيفة جالسة على عتبة الباب تسمع ذلك الحوار وشكوى زوجة أخيها من أخيها الصغير، فتدخلت بحمية لتقول:

ـ يا أم، أنا لست بحاجة إلى أعمال تطريز، أختي على حق. أي معنى للأزهار بالنسبة إلى المكفوفين؟

لم يكن يبدو عليهن أنهن يتشاجرن أبداً، فإن ذلك الأخذ والعطاء لا يشبه الشجار. وفي يوم، بينما كانت الأم تلف زاوية المنزل لترمي بالنفايات، لحق بها ابنها وقال لها:

ـ يا أمي، لا أريد أن أُجبر أختي على ترك المنزل، ولا أن أذكرها بأنها لا تملك شيئاً هنا، إنما يجب على الرجل أن يفكر بأهله. إنها شابة، وأمامها الحياة، ولا يزال لها مستقبل. هل يجب أن أطعمها حتى النهاية؟ إني لم أرَ في بيت آخر رجلاً يعيل أخته، اللهم إلاّ في بيوت الأغنياء حيث الطعام وفير. إن واجب الرجل هو أن يقوم بأود والديه وزوجته وأولاده. أختي شابة، قد لا تموت في كنفي من الجوع، لكن سيكون شقاء بالنسبة إليها إذا بقيت بنتاً. إن من الخير دائماً أن تتزوج الفتاة.

نظرت الأم إلى ابنها متّهمة، وقست ملامحها من الغضب:

ـ هي امرأتك التي أدخلت هذه الفكرة في رأسك، يا بني. إنك تنام وحدك معها في تلك الغرفة. أنتما تتحادثان معاً في الليل. إنها تسممك بأقوالها وتثيرك ضد أهلك. وأنت كسائر الرجال رخو وطيع عندما تنام مع امرأة.

وأشاحت الأم وجهها عن ابنها وهي نُهبة مرارة أليمة. ورمت إلى الخنزير بطعامه ونظرت إليه يغرس خطمه ويغب بشراهة، لكنها لم تكن تراه في الحقيقة، رغم السرور الذي تناله عادة من النظر إلى تلك الحيوانات تلتهم طعامها بنهم. ثم قالت له بحزن:

ـ أي رجل يريد أختك؟ ومن نستطيع أن نؤمله أن يتزوجها اللهم إلاّ إذا كان شخصاً فقيراً جداً وعديم الطيبة والرأفة، أو أرمل لا يملك شراء زوجة صحيحة ثانية؟

أجاب الفتى بسرعة عجيبة:

ـ إني حين أقول ما أقول أفكر فيها أيضاً. فعلاً، إني أعتقد أن من الخير أن يكون لها زوج، حتى إذا اقتضانا الحال أن نقبل برجل دون، بما أنها ذات عاهة!

رغم ذلك ظلت الأم طويلاً مصرة على عدم تزويج ابنتها. كانت تقول لنفسها، وتعيد على الكفيفة وتردد لابنها الأصغر ولابنة العم ولكل من يريد أن يسمع، بأنها لا تشعر بالعجز والوهن كي تتنازل عن إرادتها وتتخلى عن مكانها في البيت. كانت سنها لا تزال تسمح لها بأن تعطي أوامر لأولادها، حسب هواها. لذلك كانت تعارض ابنها وكنتها، وتحمي ابنتها، وتسهر على ألاّ تُمس بأي ضرر، وعلى ألاّ تحرم أبداً مما يناله الآخرون.

كانت الكنة بنسبة ما تخالط أهالي القرية وتعاشرهم تزداد أقوالها جرأةً. وغالباً، عندما تكون وسط مجموعة نساء أمام عتبة الباب يعملن تحت الشمس كانت تعلن:

ـ وماذا أنا فاعلة، إني لأتساءل، عندما يولد الأولاد ، بما أني أخيط لجميع أهل البيت؟ أمي تشيخ، وإني أعرف أن واجبي يقضي بأن أخدمها، أن أضع في خدمتها عيني، يدي، رجلي، وكل ما يمكنني أن أفيدها به. لقد لُقّنت هذه التعاليم، وإني أتصرف بمقتضاها. أرجو أن أظل وفية لواجبي. لكن هناك الأخ الأصغر، وهو صبي لا يشبع من الأكل، ولا يشتغل أبداً، بل ما هو أسوأ من هذا أيضاً.. إذ إنه قد يتزوج على الأقل، وسيكون دور زوجته أن تلبسه وتطعمه، إنما تبقى العمياء، وإني لا أستغرب ألاّ أبقى أخدمها طيلة حياتي، بما أن أمها ترفض تزويجها.

عندما كانت المرأة الشابة تقول تلك الأقوال، يتفرّس الجميع الفتاة الكفيفة إن كانت حاضرة، إلى حد أنها تشعر بالأنظار المثبتة عليها فتحني رأسها خجلاً لكونها تعيش عالة على زوجة أخيها.

وأحياناً تبادر إحداهن بالكلام لتقول:

ـ يوجد عميان كُثر، وغالباً ما يتعلمون قراءة البخت، أو يكون لهم موهبة أخرى تسمح لهم أن يربحوا بعض المال من وقت إلى آخر. العميان يملكون نظرة داخلية ويرون ما يخفى علينا. إن عاهتهم تصبح قوة مخيفة. يمكن لهذه الفتاة أن تتعلم كشف المستور أو التنبؤ أو ما شابه ذلك.

وكانت أخرى تقول:

ـ هناك بيوت فقراء فيها ابن لا يملك مالاً ليتزوج. وهذه البيوت ترضى بامرأة بلهاء أو عمياء أو عرجاء أو خرساء. ومثل تلك خير من لا شيء بالنسبة إلى الابن، شريطة ألاّ يطلب إليه دفع مال.

وتقول زوجة الابن عندئذ بلهجة حزينة:

ـ ليتني أعرف أحداً من هؤلاء. إذا صادف وسمعت يا جارة من يتكلم عن أحد، فإني أعتبر كرماً منك وفضلاً إذا أعلمتني به.

وكان النسوة يعدن المرأة الشابة بالبحث عن طيب خاطر. وهن يعترفن أنه في الأوقات العصيبة والقاسية، حين يندر المال، يصبح من العسير إيواء شخص وإطعامه، وأن على الكفيفة أن تعيش في بيت آخر.

وفي يوم، جاءت الأرملة الثرثارة إلى الأم وقالت لها:

ـ يا معلمة، إن كنت تريدين تزويج ابنتك العمياء فإني أعرف عائلة تسكن الجبل، ويجب أن يكون ابنها الآن في السابعة عشرة. كانت العائلة قد جاءت إثر مجاعة من إقليم شمالي واستوطنت في أرض بور، أبعد من قريتنا. وقد لحق بها أخ لها وهو يسكن معها. البلد فقير، والناس فقراء، لكن أنت يا معلمة، عندك ابنة عمياء. فإذا أردت أن تدفعي لي أجرة السفر رحلت لأستعلم بدلاً منك. في الحقيقة، كان بودي منذ زمن طويل أن أزور بيت أهلي، لكن لا أجرؤ على طلب المبلغ الضروري لذلك من أخ زوجي. إنه لأمر شاق أن تعيش أرملة في بيت الآخرين.

لكن الأم رفضت في البدء، وصاحت عالياً:

- إني قادرة على القيام بأود ابنتي الضريرة!

لكنها عندما نقلت هذا الحديث إلى ابن عمها، ارتسمت على محياه أمارات الجد وقال:

- كان من الممكن أن يكون الأمر كذلك لو أنك تعيشين أبداً، يا أختي، لكن عندما تموتين، ونموت نحن أيضاً، أو حين نطعن في السن ولا نغدو أسياداً في بيوت أولادنا، اللهم إلاّ بالاسم، فمن سيعتني بابنتك؟ الآباء يفكرون أولاً بأولادهم. فكري بما قد يحدث إذا حلت سنوات قحط، أو بعد أن نكون نحن لقينا حتفنا.

ولزمت الأم الصمت.

لكنها بعد مدة قصيرة أدركت أنها لن تعيش إلى الأبد، وأن حياتها قد يتهددها الموت في كل ثانية. ثم إنها لم تكن قد استرجعت قوتها الأولى منذ تلك الليلة السرية.

في ذلك العام، كان الزحار في الجو، وأصابها الزحار(*). كانت الأم دائماً تتلذذ بكل ما تأكل وتأكل بنهم كل ما يقدم إليها. لكن في ذلك الصيف، اشتد الحر بصورة استثنائية، وسقط الذباب، سقوط بلية من السماء، بكثرة بالغة، ودفعته الرياح إلى الطعام دفعاً. وكان الذباب يمتزج بالطعام مهما اتّخذ من احتياطات. وفي الأخير، صاحت الأم أن ليس لنا إلاّ أن نتركه وشأنه، إذ غدا قتله لا يجدي ومضيعة للوقت. وكان يعود، أسراباً أسراباً بأعداد متكاثرة. كان الفصل وقت البطيخ، الأحمر والأصفر. ولم ينبت قط بتلك الوفرة.

كانت الأم تحب تلك الفاكهة حباً جماً. كانت تأكل منها ولا تشبع، تأكل التي لا تباع منها أو التي سفعتها الشمس. كانت تلتهم منها قدر ما

(*) الزُّحار والزَّحير هو استطلاق البطن أو تقطيع فيه يُمشّي دماً ويسبّب ألماً، وهو «الديسنطاريا».

تستطيع، ثم تعود وتأكل منها كي لا تتلف ويُلقى بها. قد يكون المسبب تلك الفاكهة التي أكلت منها كميات تجاوزت الحد المعقول والمقبول، أو قد يكون السبب ريح مهلكة، أو أذية من السحر، رغم أنها لم تكن تعرف أحداً يمكنه أن يكرهها بصورة جدية، اللهم إلاّ تلك الإلّهة التي حزرت خطيئتها. وكانت على كل حال قد أُصيبت بالزحار الذي انتزع أحشاءها وطرحها في الفراش خلال أيام كانت فيها لا تتناول أي طعام وتقيء حتى جرعة الشاي التي تتناولها لتسند أمعاءها.

وفي أثناء مرضها، حين كانت معذبة ومنهكة، كانت كنتها تقوم على خدمتها، وتعتني بها، وتقدم لمداواتها معرفتها كلها، ولم تقصر بأقل واجب تجاه أم زوجها. وكانت الكفيفة تسعى جهدها بمسكنة لتقدم خدمة لأمها، إلاّ أنها كانت بطيئة جداً ولا تعرف تماماً ما هو ضروري. وغالباً ما كانت زوجة أخيها تنحّيها جانباً قائلة:

ـ اجلسي أيتها البنت الطيبة، ابقي بعيداً عن طريقي، أؤكد لك أنها خير وسيلة لمساعدتي.

كانت الأم تعتمد في ضعفها، بالرغم عنها، على المرأة الشابة الخفيفة والمتقنة. كان التعب الذي تشعر به يمنعها من الدفاع عن ابنتها العمياء. كان ابنها الصغير لا يأتي إلاّ نادراً لعيادتها، وسرعان ما يبتعد من جديد حين يشاهد أن أمه تعوزها القوة الضرورية لتتوسط لصالحه عند أخيه الكبير. كانت الأم تجد نفسها في حالها تلك، من الضعف والضنى، متوكئة على كنتها اليقظة والنشيطة. وحين فارقها الزحار أخيراً ليحل في شخص آخر مقدر عليه، قامت الأم وهي تستند إلى ذراع كنتها المتينة. كان وجود المرأة الشابة ضرورياً لرعايتها، رغم أن الأم كانت لا تضمر لها حباً كبيراً.

واستعادت الأم عافيتها ببطء شديد. غير أنه لم يعد لها قوتها ونشاطها القديمان أبداً، وأصبح من المستحيل عليها أن تأكل الملفوف الذي تحبه، والبطيخ بجميع أصنافه، بل حتى الفستق الأرضي الذي كانت

تأكله نيئاً في سابق أيامها. كان يجب عليها أن تراقب طعامها وتبحث عما يلائم أمعاءها. عندما كانت تثور على تلك الدقائق المفروضة عليها وتصيح أنها ستأكل ما تشتهي، وأن على بطنها أن تتكيف وتعتاد، كان الزحار يعاودها. وكانت إذا ما أجهدت نفسها في العمل قليلاً، أو إذا ما جلست في مجرى ريح بارد، سرعان ما تنتكس العلة وتردها مُقعدة خلال مدة من الزمان.

وبسبب العجز الذي كانت تجد نفسها فيه أدركت أنه يجب عليها أن تزوج ابنتها إذ كانت غير مرغوب فيها هناك. فعندما كانت الأم مريضة ومنهكة جداً كي تحتج لصالح ابنتها، لمست ضيق الكفيفة التي كانت لا تجد لنفسها مكاناً في البيت. وفي يوم كانت الأم وحدها، قالت لها الفتاة:

ـ يا أمي، لا أريد أن أبقى هنا، عند أخي. آه يا أم، إني أقبل أن أتزوج في أي مكان يرضى بي.

وانتهى الأمربالأم بقبول تلك الفكرة. وشدّت ببعض عبارات عزيمة ابنتها. وفي يوم شتوي من ذلك العام، حين استعادت بعض قواها، إذ كانت صحتها تتحسن في أيام البرد، ذهبت لزيارة الأرملة الثرثارة، التي وجدتها عند عتبة الباب تطرز بعض الأزهار على قطعة من قماش، لكن بخيط غليظ، وكانت أطراف الأوراق تثير الضحك. ولم تعد الأرملة الثرثارة ترى بعينيها كما كانت في السابق، رغم أنها كانت ترفض أن تعترف بقصر بصرها. اقتربت منها الأم وأفضت إليها بلهجة واهنة:

ـ إن ما كنت قلته لي سابقاً كان حقاً. إني أرى أن من الأفضل لابنتي أن تكون متزوجة، ولنفترض أن تكون في البيت الذي كنت حدثتني عنه. إني أشعر بإنهاك كي أبحث في مكان آخر. إني تعبة دائماً لسبب أو لآخر منذ أصابني ذلك الزحار لعام خلا أو عامين.

فرحت الأرملة الثرثارة للمهمة الجديدة التي لن تكلّفها شيئاً. واستأجرت نقالة، وقطعت العشرة الأميال تقريباً التي تفصلها عن

الوادي، حيث كان أبوها يعيش، ثم طلبت أن تقاد إلى القرية حيث أمضت يومين أو ثلاثة أيام. وعند رجوعها إلى بيتها زارت الأم وحدثتها على انفراد همساً:

ـ لقد جرى كل شيء على ما يرام، يا معلمة، بعد شهر يمكن أن يتم كل شيء. إني أشعر بالتعب أنا أيضاً. لكن أعتقد أني قدمت لك خدمة، وأننا أصبحنا صديقتين الآن.

أخرجت الأم من بين ثدييها قطعة فضية، كانت قد احتفظت بها لهذه الغاية، ورجت الأرملة الثرثارة أن تقبلها. لكن هذه نحّت اليد الممدودة، وأقسمت أنها لن تقبلها، وأن هذا لا يجوز بين صديقتين. ورفضت واحتجت وأعادت وكررت ثم أخذتها في آخر المطاف.

عندما تم الاتفاق على كل شيء، وأقنعت الأم نفسها أن الخير هو فيما يكون، أخبرت بقرارها كنتها التي لم تخف رضاها، لكنها لم تعدم أن أضافت:

ـ لم يكن من الضروري أن تتعجلي يا أم، إني لا أبغض أخت زوجي، لو كان الأمر منوطاً بي لكان في وسعها أن تقضي هنا عاماً أو عامين آخرين، بل حتى العمر كله. إنما فقرنا يفرض علينا أن نحصي الأفواه التي نطعمها.

وأظهرت بعد ذلك عطفاً أشد، وتطوعت بنفسها لخياطة ثياب الفتاة الجديدة: ثلاث قطع بمجموعها، سروال وسترة زرقاء، وسروال أحمر يجب على كل عروس، حتى أفقرهن، أن ترتديه يوم زفافها. وأضافت زوجاً أو زوجين من الأحذية، طرزت عليهما زهرة صغيرة وورقة باللون الأحمر.

لكن لم يحتفل بالعرس، ولم تقم أية حفلة بما أن الفتاة تتزوج مجاناً، ولم يرسل العريس حتى هدايا لأنه لم يجر صفقة رابحة في ذلك الزواج. أما العروس فلم تفه بكلمة طوال الوقت. كانت تصغي بسكون، دون أن تجيب، إلى ما كانت أمها تريد أن تقوله لها.

وفي ليلة، مدت يدها تتلمس وجه أُمها إلى جانبها وهمست:

ـ يا أمي، هل البيت قريب؟ وهل تأتين لتري ماذا جرى عليَّ؟ إني عمياء، ولا أستطيع أن أقوم بالرحلة على طريق مجهولة تمر في جبال ووديان.

عندئذ مدت الأم يدها وأحست باختلاج ابنتها فسالت دموعها خفية، وفي الظلمة مسحت دموعها بغطائها ورددت عدة مرات:

ـ سأجيء يا ابنتي، بكل تأكيد، سأجيء.. ستروين لي كل شيء، إن كانوا يسيئون معاملتك، سأسهر بعزم على منع معاملتك بقسوة.

ثم أضافت بعذوبة متناهية:

ـ وهل بت ليلتك دون أن تنامي يا ابنتي؟

أجابت الفتاة:

ـ نعم، والليالي الماضية أيضاً.

قالت الأم بحنان:

ـ لا تخافي يا صغيرتي العزيزة، أنت الكفيفة الأكثر حيوية والأكثر مهارة التي أعرفها. إنهم يعلمون أنك لا ترين، ولا يمكنهم أن يلوموك، ولا أن يزعموا أننا أخفينا الأمر عليهم.

ونامت الفتاة نوماً خفيفاً. وظلت الأم مستيقظة طويلاً، فريسة ندامة ثقيلة، إذ كانت تشعر أن زلة اقترفتها هي تقع تبعتها على ابنتها. كانت تأسف لأنها لم تحاول أن تجد مكاناً أقرب لتزويج ابنتها، ومَن يدري لعله لقاء بعض المال كان يمكن أن ينتقل رجل فقير ليعيش في القرية. وعندما فكرت الأم في هذا كله راحت تئن وتتساءل بحسرة: هل كان يمكن لابنها وكنّتها أن يرضيا بالتنازل عن أصغر مبلغ، إذ صارا يحتفظان بالمال الآن؟ وكانت تقول لنفسها بحزن بالغ: «ومع هذا، إني لا أستطيع أن أؤمل ألاّ تُضرب أبداً. إن بيوتاً قليلة جداً فقط، مثل بيتنا، لا تتلقى القادمة الجديدة فيه الضربات من زوجها أو من حماتها. إذا ما ضُربت

ابنتي الكفيفة أمام عيني، أو إذا كانت قريبة مني وبلغني الخبر، فذلك سيمزق نفسي ويؤلمني أشد الألم. إني لا أستطيع تحمله، وسأجدني عاجزة عن نصرتها عندما تكون متزوجة. الأفضل إذاً أن تبتعد كي لا أعلم شيئاً، وأوفر على نفسي ذلك العذاب. ففي حالة الجهل أستطيع على الأقل أن أؤمل.

بقيت الأم فترة من الزمان بعد ذلك ساكنة، وهي تشعر بعبء حياتها يثقل عليها، ثم مرت بخاطرها فكرة: ستعطي ابنتها بعض قطع فضية، كما تلقت هي من أمها ساعة وداعها.

وفي الظلام، مع الفجر، قامت الأم بحذر شديد، خشية أن تفزع البهائم والطيور، واتجهت إلى الحفرة، ونبشت التراب وسحبت الصرة الصغيرة حيث تحتفظ فيها بذخيرتها الثمينة. فضتها وأخرجت خمس قطع فضية، غيبتها في صدرها، وردت التراب من جديد على الحفرة. وسلت بعض السلوى وهي تحس بذلك المال بين ثدييها وقالت لنفسها:

«قليل من الفتيات يخرجن من بيت فقير ويحملن ذخيرة شخصية كهذه. سيكون لابنتي على الأقل هذا العزاء».

وتمكنت أخيراً من النوم وهي تهدهد نفسها بتلك السلوى البائسة.

وهكذا مرت الأيام، خلواً من المسرات، كانت الأم فيها لا تبتهج حتى لزيارات ابنها الثاني، ولا تهتم لمجيئه ورواحه. كانت تلاحظ فقط أنه كان يبتسم ويبدو سليماً معافىً منهمكاً في قضية تجهلها.

واقترب يوم الرحيل، وكانت الأم تنتظر بقلب شجي الشخص الذي سيحضر ليصحب الكفيفة إلى بيتها الجديد. كانت تريد بأعصابها المتوترة أن تحاول فهم طبيعة الرجل الذي ستعهد بابنتها إليه.

وجاء يوم، في مطلع الربيع، قبل تفتح الطبيعة، كان الفصل متميزاً ببعض الأعشاب المطلة التي يقتلعها أولاد القرية ويأكلونها. كانت

الأرض لا تزال تحافظ على مظهر الشتاء العقيم، وكان القمح لم ينبت بعد، وكانت الريح باردة.

جاء في ذلك اليوم رجل كهل راكباً على حمار رمادي يجلّله معطف قذر مهترئ كان بمثابة سرج. اقترب من بيت الأم وسمى نفسه. شعرت الأم بقلبها يتوقف وجيبه، كانت سحنة الكهل منفرة إلى أبعد الحدود. كان يحاول الابتسام ليضفي على سحنته هذه مظهراً طبيعياً، لكن الطيبة كانت معدومة في ذلك الوجه، وجه ثعلب هرم، بعينين نافذتين غائصتين بين أخاديد عميقة، بشعرات بيضاء محيطة بفم لا شفتين له، تهبط زاويتاه كثيراً لتعطي انطباع إخلاص. كان يرتدي ثياباً رثة، غير نظيفة وغير مرقعة. وكان تصرفه يفتقر إلى أبسط آداب المجاملة، تلك التي من المفروض أن يعرفها الرجل المتعلم والرجل الجاهل على السواء. اجتاز الباحة وهو يعرج على رجل أقصر من الثانية، وقال بصوت خشن:

ـ جئت لآخذالعمياء، أين هي؟

وسألت الأم، إذ إنها كرهت هذا الرجل من أول نظرة:

ـ ما هو دليلك على أنك أنت هو الذي يصحبها؟

قهقه الكهل من جديد وأعلن:

ـ إني أعرف تلك المرأة البدينة التي جاءت إلينا تقول إننا نستطيع أن نأخذ البنت لقاء لا شيء. إننا نريد تزويجها من ابن أخي.

عندئذ قالت الأم له:

ـ انتظر ريثما أنادي هذه المرأة.

وأرسلت في طلبها ابنها الأصغر الذي كان يتسكع في ذلك اليوم حول البيت. وجاءت الأرملة الثرثارة بالسرعة التي واتتها ساقاها الهرمتان بها. نظرت إلى الرجل وانفجرت بالضحك وصاحت:

ـ نعم، إنه عم الولد. كيف الحال، يا معلم؟ هل أكلت اليوم؟

أجاب الكهل وهو يفتح فمه الأدرد:

ـ نعم، لكن ليس جيداً، أؤكد لك.

كانت الأم تنظر في عينيه مباشرة. ثم قالت للأرملة الثرثارة بلهجة جافة:

ـ سير الأمور على هذا الشكل لا يعجبني. كنت أرجو أفضل من هذا لابنتي!

وأجابت الأرملة الثرثارة وهي تضحك:

ـ لكن يا معلمة ليس هذا هو العريس. ابن أخيه هو أفضل الفتيان، وأقلهم أذىً وأكثرهم وداعة.

وأقبلت ابنة العم بدورها، وتبعها الابن البكر وامرأته، وجمع من أهالي القرية، ووقفوا جميعاً على أرجلهم يتأملون الكهل. لم يجده أحد منهم مقبولاً أو لطيفاً بحال من الأحوال. لكن العهد كان قد قطع. ولاحظ بعض الحضور:

ـ ينبغي تذكيرك يا معلمة أن ابنتك كفيفة.

أضافت الكنة:

ـ الأمر قد تقرر الآن، وأُعطيت الكلمة يا أمي، إن من الصعب النكث بالوعد، فإن ذلك يجلب ضراً على الجميع.

وكان زوجها يصغي إليها ويلزم الصمت.

أدارت الأم عندئذ عينيها مستنجدة بابن العم الذي حوّل عينيه وحك رأسه حائراً. كان رجلاً بسيطاً وطيباً، لم يوح الكهل بالثقة إليه أيضاً. ومع ذلك، فإن من الصعب الجزم أحياناً إن كان الفقر والشر متلازمين دائماً، ربما تكون الأسمال الخلقة التي يرتديها هي التي تجعل سحنته على هذا السوء! ثم كيف يجوز قول «لا» بما أن كل شيء كان تقرر؟ لذلك لم يعرف ابن العم بماذا يجيب فسكت، وأدار رأسه والتقط تبنة وراح يلوكها.

أدركت الأرملة الثرثارة أن المسألة متعلقة بشرفها، بالوعد الذي

قطعته، واستمرت تردّد:

ـ لكن ليس هذا هو الزوج، يا معلمة!

وأخيراً، صاحت، إذ إن تراجعاً في تلك الساعة الراهنة يصمها بالخزي:

ـ ابن أخيك طيّب كطفل، أليس كذلك يا صاحبي؟

تغضن وجه الكهل وهز رأسه بالإيجاب، وقال ضاحكاً ضحكاً جعل الألفاظ تخرج من فمه كفحيح الأفعى:

ـ أي نعم، يا معلمة، عذب، كوليد صغير!

وفي الأخير أضاف نافد الصبر:

ـ يجب أن أذهب إذا كان يجب أن أصطحبها هذا المساء.

لم يكن أمام الأم حل آخر، فأركبت الضريرة ظهر الحمار. كانت الفتاة قد ارتدت ثيابها الجديدة، ووضعت أمها صرة النقود الصغيرة في يدها، خفيةً، وهي تسر في أذنها على عجل:

ـ هذه لك وحدك يا ابنتي، لا تتركي أحداً يأخذها منك.

عندما لكز الكهل الحمار بقبضته ليتحرك صاحت الأم بغصة مفاجئة:

ـ سأمضي إلى هناك يا ابنتي، قبل مضي شهور، سأرى كيف تعاملين. احفظي كل شيء في قلبك، وسترونه لي عندما آتي إليك، لن أخشى إرجاعك إلى البيت إذا كانت الأمور تسير سيراً سيئاً.

أجابت الكفيفة بألفاظ تخرج من بين شفتين جافتين مرتجفتين:

ـ نعم، يا أمي، هذه الفكرة ستشد من عزمي.

لكن الأم كانت عاجزة عن أن تنفصل عن ابنتها، كانت تبحث بيأس عن سبب، عن جملة، لتؤخرها قليلاً. قالت للكهل وهي متعلقة بابنتها:

ـ لا تستطيع ابنتي أن تشعل النار، إن ذلك محظور عليها ويؤلم عينيها.. الدخان..

التفت الكهل وتفرّسها، وبعد أن فهم قصدها قهقه، وقال:

ـ حسن، سنرى، سأقول هذا لهم.

ولكز الحيوان من جديد، ومشى إلى جانبه.

هكذا رحلت الفتاة، شارة العاهة في يدها، وصرة ثيابها مربوطة خلفها على ظهر الحمار. كانت أمها واقفة تنظر إليها تبتعد، وقلبها يتعذب عذاباً يستحيل فهمه، كانت الدموع في عينيها، ومع ذلك كانت لا ترى كيف يمكنها أن تتصرف بطريقة أخرى. ظلت ساكنة إلى أن ارتفع الجبل بين ابنتها وبينها، وأخفاها عن عينيها.

16

هل ستتمكّن الأم من تزجية أيامها بما يكفي لتهدئ قلقها وتنسى الفراغ الذي أحدثه رحيل الضريرة؟ كان البيت صامتاً، وساكناً، كذلك الزقاق، حيث كان يسمع صدى الرنة الشاكية والصافية من الأسطوانة الصغيرة التي تضرب الفتاة عليها عندما كانت تخرج. كان ذلك السكون أكثر مما تتحمل أعصاب الأم. فانطلقت إلى الحقول رغم احتجاج ابنها حين حملت معزقها، قال لها:

ـ يا أمي، أنت لست بحاجة إلى أن تعملي، إنك تلحقين بي الخزي حين يراك الجميع تشتغلين في الأرض، وأنت بهذه السن!

لكنها أجابت بعنفها السابق:

ـ أنا لست مسنّة إلى هذا الحد. ثم دعني أبذل نفسي، هذا يسرّي عنها. ألا تفهم أني بحاجة إلى ذلك؟

عندئذ أصر ابنها:

ـ إنك تحزنين عبثاً يا أمي، إذ لا جدوى من النواح سلفاً على مصائب قد لا تقع أبداً.

ألقى الابن على أمه نظرة قلقة، لكنها تناولت معزقها، ودون أن تجيب، توجهت إلى الحقول.

غير أنها لم تعد تستطيع على العمل الشاق صبراً، كان العرق يتصبّب من جسدها بغزارة، وكان يبرد مع أول نسمة فاترة تهب. وسرعان ما عاودها المرض؛ وعندما شفيت اضطرت إلى الركون، وإلى السكون، والجلوس بلا عمل على عتبة الباب. لم يكن ثمة عمل في البيت يتطلب وجودها، كانت كنتها تقوم بكل الأعمال بإتقان وعناية.

كانت المرأة الشابة فعلاً تقوم بجميع أعمال البيت خير قيام، وكانت حماتها، بالرغم عنها، مضطرة إلى الاعتراف بأنها لا تترك لها مجالاً لتلومها أو لتأخذ عليها مأخذاً، اللهم إلاّ عقرها. كانت الأم بلا عمل، تثبت عينيها باستمرار على العتبة حيث كان أولادها فيما مضى يتدحرجون في لعبهم. كانت تستعيد تلك الساعات الماضية: كانت ترى نفسها في المكان نفسه، شابة ممتلئة حياة ونشاطاً. وكان لها زوجها، وصغارها. كانت هي المرأة الشابة، وكانت امرأة أخرى هي المرأة العجوز. وبعد ذلك تركها زوجها ولم يرسل أي خبر عنه. كانت تختلج لهذه الذكرى وترجع من ثمّ إلى وحدتها الراهنة: كان ابنها البكر خارج البيت على الدوام، ليعمل في الأرض أو ليجادل عن المحاصيل مع الوكيل - شخص حديث، ابن عم مالك الأرض، إنسان تافه، حسبما يزعمون، إذ إنها لم تكن تنظر إليه أبداً. ابنتها الضريرة رحلت. ابنها الثاني يسكن المدينة ولا يزورها إلا لماماً. لكنها مع تعطّلها كانت تفكر فيه أكثر التفكير. لقد ظل هذا الابن عندها الولد المفضل. ففي فراغ حياتها كانت زياراته القصيرة لا تجلب لها إلاّ البهجة. كانت تنهض عندما تراه، وتخرج من واقعها الكئيب وتبتسم لوجهه البهي. كان أجمل أولادها، يشبه أباه قدر ما يستطيع ديك صغير أن يشبه الديك الذي لقح الدجاجة التي باضته. وهو لم يعد يخاف أخاه البكر، وكان يشعر بالانطلاق، إذ إنه كان يعمل عملاً يدرّ عليه أجراً.

كان لا يشرح مطلقاً فحوى مشاغله، فمرات يبدو عليه الضيق، ومرات أخرى تظهر عليه البحبوحة، إذا ما حكم عليه من خلال ثيابه الجميلة، إذ إنه لا يطلع أخاه على ما يربح أبداً، فأحياناً يزعم أن وقته ضيق ويبدو فريسة نوع من الهيجان. كان يأتي ويضع خفية قطعة نقود في يد أمه وهو يقول لها:

ـ خذي يا أمي، لمصروفك الخاص.

كانت تقبلها منه وتثني عليه. كانت تحبه جدّاً. ولم يفكر ابنها البكر قط بتقديم هدية لها من هذا النوع. فمنذ أصبح هو السيد في البيت صار يحتفظ بالمال لنفسه. كانت أمه تتغذى خير غذاء، وكانت تتلذذ بكل ما تأكل. كان مظهرها يبدو خيراً مما كانت عليه في السابق، بفضل كنتها التي كانت تخيط لها جميع ثيابها، بل إنها خاطت لها كفناً أيضاً. كانت تُعطى في البيت كل ما تريد: غليون وتبغ جيد، وجرعة نبيذ أصهب ساخن. أما أن تُعطى قطعة نقدية ويُقال لها «اشتري ما يحلو لك..» فإنها فكرة لم تخطر لهما قط على بال. ولو أنها طلبت، لتبادل ابنها وكنتها النظرات بالتأكيد، ولسألها أحدهما:

ـ لكن ماذا يمكن أن تشتهي؟ إننا نقدم لك كل ما ينبغي يا أمي!

لذلك كانت تعطف على ابنها الصغير بسبب هداياه تلك أكثر مما تعطف على الآخرين رغم أنهما يقدمان لها أكثر. كانت تخفي القطعة النقدية في صدرها، وعندما يجن الليل كانت تنهض وتغيّبها في الحفرة.

لكن زيارات الفتى كانت نادرة جداً، لذلك كانت المرأتان، الأم والكنة، تمضيان وقتهما جالستين في الباحة المقفرة. وكان البيت بأسره يبدو للأم خاوياً. كانت تزفر، وتدخن غليونها.. لم يبق لها في تلك الأيام غير أن تستعيد حياتها الماضية، أو على الأقل حياتها كلها تقريباً. إذ، كانت تفضل ألاّ تحول فكرها إلى الحادث الذي يذكرها بعاهة ابنتها، أليس الشيئان متصلين بيد الآلهة؟ كانت تستطيع أن تذهب إلى المعبد لتفتش عن عزاء ما، لكن الوقت كان قد فات لطلب المغفرة، لذلك

كانت تترك الأمور تجري، وتتحسر. ومن تارة إلى أخرى كانت تتحدث عن ابنتها الضريرة بأسى.

كانت كنتها تجيب بفظاظة:

ـ لعل حالها أفضل. أي حظ لنا جميعاً كونك وجدت لها شخصاً رضي بها ليزوجها ابنه!

وترد الأم بحيوية:

ـ إنها بنت مستقيمة. أنت لم تدركي ذلك أبداً. إني أعرف ذلك، بما أنك لم تسمحي لها بأن تنجز عملاً حسب إمكانياتها.

وتقول الكنة وهي تفحص القماش الذي تخيطه عن كثب:

ـ هذا معقول، لكن من عادتي أن أقوم بعملي وأن أنهي أنا نفسي العمل الذي بدأته. كانت الضريرة تتلبّك من أي شيء!

زفرت الأم من جديد، وهي تنظر إلى عتبة الباب المقفرة:

ـ بودي أن تحملي يا ابنتي. كان يجب أن يكون في البيت ولدان أو ثلاثة أولاد. أنا غير معتادة على منزل بهذا الفراغ. إذا لم تلدي أي طفل فسأكون سعيدة إذا تزوج ابني الثاني، لكنه يرفض، وإني لأتساءل لماذا.

كانت الأم تضغط عند كنتها على نقطة أليمة، إذ كانت شديدة التألّم لأنها لم تحصل على أضعف أمل في أن تكون أماً بعد خمسة أعوام زواج. كانت تنذر النذور في الخفاء، تدعو وتصلي وتتضرع في معبد، ويبقى جسدها عاقراً. غير أنها كانت متعجرفة جداً كي تظهر حزنها، لذلك أجابت بهدوء:

ـ سيكون لي أولاد في الوقت المناسب، دون أدنى شك.

صاحت الأم بحزن مشوب بغضب:

ـ نعم، لكن الوقت حان، بل إنه حان من زمان. إني لم أسمع قط بامرأة في قريتنا لا تلد عندما يكون زوجها بقربها. فرجالنا يصبحون آباء مجرد أن يتخذوا لهم امرأة. ونساؤنا خصبات دائماً. بذر طيب، أرض

طيبة. يمكن أن يكون فيك علة ما تجعلك عاقراً، وغير ولودة. كنت جهّزت لك هذه الثياب واسعة وفضفاضة، علام إذاً جهزتها؟

اشتكت الأم إلى ابنة العم، وانحنت على أذنها وهمست:

ـ إني أعرف السبب جيداً، لا يتأجج في كنتي أي وهج. إنها كائن شاحب أصفر. وبالنسبة إليها أي يوم يشبه أي يوم، ولا يصعد فيها قط اندفاع حار يأتي من الداخل. إن كل الحظ السعيد الذي استطعت أن تمرريه في ثياب عرسها عندما قصصتها لم ينجح في التغلب على برودها.

هزت ابنة العم رأسها وأجابت ضاحكة:

ـ فعلاً، إن النساء الصفراوات الشاحبات جداً، واللواتي يفتقرن إلى الدم، هن بطيئات الحبل.

ثم اتخذت عيناها الحيويتان تعبيراً مقصوداً له معنى خفي، واستطردت تقول وهي تضحك من جديد:

ـ لكن جميع النساء لسن ضحية نيران عنيفة مثلك في عهد شبابك، يا أختي الطيبة، وذلك ليس شيئاً عظيماً دائماً بالنسبة إلى الأم، وأنت تعلمين ذلك.

عندئذ صاحت الأم بحيوية:

ـ أي نعم! إني أعلم ذلك جيداً!

ولزمت فترة صمت قبل أن تضيف على كره:

ـ بالتأكيد، إن كنتي متقنة ونظيفة، ربما أكثر مما ينبغي، إني أؤكد لك أنها تبدد الطعام لكثرة ما تغسل الإناء، وتغسل خابية الزيت، وسائر الأدوات. إنها تغتسل أيضاً من تارة إلى أخرى، قد يكون هذا ما يجعلها عاقراً، إن التغسيل الكثير ضارّ.

كانت الأم تتحاشى الحديث عن الطبائع المتأججة، إذ كانت تخاف أن تذكر بخطيئتها القديمة، ومع ذلك لم يكن من الممكن

الالتقاء بمخلوقة خير من ابنة العم، ولم يشب قط علاقتهما أي شائبة. وإذا كان ابن العم قد أُعلم بالسر أيضاً فلم يظهر عليه ذلك أبداً. لعل الأم كانت تنسى ولا شك، إذ إن أيام رغبتها المتأججة يبدو عهدها سحيقاً في البعد، لولا أن عاهة ابنتها، وعدم ولادة وريث لابنها يذكرانها. كانت تخشى أن تكون قد اقترفت خطيئة لا تغتفر، وأنها قد عوقبت بهاتين المصيبتين.

كانت حياتها على هذه الصورة: ابنتها الضريرة رحلت، لا أولاد من حولها، لم يبق غير البهائم، والكلب الذي ما كانت تجرؤ على تقديم الطعام له.

كانت المشاجرات بين ابنيها قد كفّت، وكان ذلك هو الجانب الرضي الوحيد في وجودها الراهن. كان البكر راضياً لكونه السيد في البيت، وكان الصغير قد وجد مهنة. وعندما كان يأتي زائراً فترة ويرحل من جديد، كان البكر يكتفي بأن يعلّق باحتقار خفيف: «إني لأتساءل عن المشروع الذي تعهده أخي؟ فمن أين يأتي بهذه الثياب الجديدة التي يرتديها؟ إني أهلك نفسي في العمل، وإني لعاجز عن شراء مثلها! يجب أن يكون لديه مال. أرجو ألاّ يكون منتمياً إلى عصبة لصوص في المدينة، أو إلى جماعة من هذا القبيل، تجلب على رأسنا المشاكل إذا قبض عليه».

وكعادتها كانت الأم تدافع عن ابنها بكرامة، قائلة:

ـ أخ طيب، ابني. يجب عليك أن تبتهج وأن تفرح لأنه ذهب ووجد عملاً بدلاً من بقائه هنا ومقاسمته لك مدخول الأرض.

وكان البكر يجيب باحتقار:

ـ أي نعم! بشرط ألاّ يعمل في الحقول، أي عمل، بالنسبة إليه، عمل صالح.

كانت الكنة تصمت ولا تعلق. كانت راضية لأن البيت غدا لها

وحدها، ولا تهتم بما يعمله أخو زوجها، وكانت الشكوى أبعد ما تكون منها لأنه يشتري ثيابه من المدينة بدلاً من أن تخيطها له.

على أن الزمن يمضي. واختفى الربيع بدوره، دون أن تتمكن الأم من نسيان الضريرة. وفي عصر يوم راحت تحصي على أصابعها الأيام التي مرت منذ أن غيب الجبل ابنتها عن عينيها. عدّت اثنتي عشرة مرة جميع أصابع يديها، ونسيت العدد، وقالت بيأس:

ـ يجب أن أذهب لأراها. لقد تركت نفسي تتخدّر طيلة هذا الوقت، كان يجب أن أذهب قبل الآن. لو كانت البنت طبيعية لكانت جاءت لتقوم بالزيارة العادية لبيتها القديم، كما تفعل سائر المتزوجات الشابات، ولكنت أستطيع أن أسألها عن حالها، أن ألمس يديها، ذراعيها، خديها، وأن أرى لون وجهها.

كانت الأم جالسة تسرح النظر في الجبال التي ترتفع من حولها، وأدركت أن الصيف على الأبواب. كانت منحدرات الجبال مخضرة. نفضت عنها ضجرها وتعبها الذي كان يلازمها رغم خواء أيامها، وقررت: «يجب أن أذهب لرؤية ابنتي. إني لا أنفع في عمل الحقول، ولا أقوم بأي عمل في البيت، سأذهب في الحال، قبل أن تهجم الحرارة، وعندها قد يعاودني الزحار. سأمشي منذ الغد بما أنه لا وجود لسحابة في السماء الصافية، هذه السماء الزرقاء»!

ورفعت عينيها، وفجأة.. كما تعاودها ذكرياتها القديمة، ذكّرها لون السماء بثوب زوجها الأزرق الذي اشتراه فيما مضى، والذي رحل معه. وتأوهت وقالت لنفسها مع بقية من غصة: «كان ذلك في يوم مثل هذا اليوم. اشترى الثوب، تشاجرنا. كان الجو صافياً كما هو اليوم، وإني أذكر أن ثوبه كان بلون السماء في ذلك الصباح».

وتحسّرت ونهضت لتطرد خواطرها. عندما رجع ابنها البكر إلى البيت، قالت له في حالة اضطراب بالغ:

ـ أريد أن أعرف ما الذي يجري في البيت الذي تسكنه أختك منذ

زواجها. سأذهب لأراها غداً، بما أنها لا تستطيع هي أن تأتي.

فقال الابن بقلق:

ـ يا أمي، يستحيل عليَّ أن أرافقك في الوقت الحاضر، لديَّ عمل يجب أن أقوم به غداً. اصبري حتى آخر الحصاد، عندما يدرس الحب ويكال، فسيكون لديَّ بعد ذلك بعض الوقت.

لكن الأم أحست على حين غرة أنها لن تستطيع صبراً، وكانت تجد فيها دائماً قوة عندما تريد تنفيذ قرار اتخذته. كانت ضجرة من تعطُّلها وفراغها، فأعلنت بحزم:

ـ لا، سأذهب غداً.

كان ابنها منزعجاً كما يحدث له عادة عندما يفاجئه عارض خارق، لا قبل له على رده أو التفكير به، قال:

ـ لكن، يا أمي، كيف ستذهبين؟

ـ على حمار ابن العم إذا شاء أن يعيرني إياه. وسترسل أنت غلاماً ليبحث عن أخيك ليمشي إلى جانبي ويقود الحيوان. إننا لن نخشى شيئاً كلانا. أنا لم أسمع عن وجود قطاع الطرق في هذه الأيام في هذه النواحي، باستثناء أولئك الأشخاص في المدينة الذين يسمون «الشيوعيين»، لكن يقال إنهم لا يؤذون الفقراء.

رضخ الابن في النهاية، لكن بعد أن أضافت زوجته بهدوء:

ـ في الحقيقة، أنا لا أرى أي خطر في ذهابها، فيما إذا رافقها أخوك.

وتركا الأم تعمل حسب إرادتها. وأرسل للتو أحد أولاد ابن العم إلى المدينة ليبحث عن ابنها الأصغر. وعاد وعيناه جاحظتان، وقال للأم:

ـ ابن عمي، ابنك الصغير سيأتي، يا عمتي.

ثم سكت الصبي. وفكر لحظة، وفتل زر سترته، وأضاف:

ـ أؤكد لك أنه يسكن في مكان عجيب، منزو، ومن الصعب اكتشافه. إنه يسكن فوق مخزن في حجرة طويلة مليئة بالأسرّة، عشرين

سريراً على الأقل، والغرفة ممتلئة بالكتب والورق. كنت أجهل أن ابن عمي يعرف القراءة يا عمتي، لكن حسبما رأيت، يجب أن يكون مثقفاً جداً، وهو لا يشتغل في المخزن.

أجابت الأم دَهِشة:

ـ إنه لا يعرف القراءة، ولم يخبرني قط بأنه يربح معيشته من الكتب. إنه لأمر غريب يجب أن يوضحه لي.

وفي اليوم التالي، عندما اعتلت ظهر الحمار وسارت على الدرب مع ابنها، انتهزت تلك الخلوة بينهما وسألته:

ـ ما هي تلك الكتب والأوراق التي شاهدها ابن بنت العم في الحجرة التي تسكنون فيها جميعكم؟ أنت لم تخبرني قط، يا ابني، بأنك تعلمت القراءة، وأنك تربح رزقك من هذا الطريق؟

كان الفتى يغني وهو يسير. كان صوته جميلاً، وكان يحب الغناء. قطع نشيده وأجاب:

ـ نعم، لقد تثقّفت قليلاً.

وعندما ألحت عليه، أجابها ملتمساً:

ـ يا أمي، لا تسأليني في الحاضر، ستعلمين به في المستقبل، عندما تدق الساعة. سيكون يوماً عظيماً، يا أمي. كنت أغني قبل لحظة النشيد الذي نغنيه في الحجرة حيث أعمل. يوم التحرر آت، لن يكون هناك أغنياء وفقراء، سنكون جميعاً سواسية.

كانت هذه الكلمات أغرب الكلمات التي سمعتها الأم في حياتها. كانت تعرف أن السماء هي التي تقضي من يكون غنياً ومن يكون فقيراً، وأن على الناس أن يرضوا بالقضاء. إن عليهم أن يتقبلوا قدرهم إن خيراً وإن شراً وأن يتحملوه بصبر. فسألته بفزع شديد:

ـ آمل ألاّ تكون في عشرة رجال السوء يا بني، مع لصوص أو ما يشبههم! يخيل إليَّ حين أسمعك أني أصغي إلى أقوال قطاع الطرق،

فالوسائل التي يستعملها هؤلاء هي وحدها التي تستطيع أن تغني الفقراء، وهذا شيء خطير، فيه مجازفة بالحياة، وعقابه الموت.

اغتاظ الفتى لتلك الكلمات وأجاب:

ـ أنت لا تستطيعين أن تفهمي. لقد أقسمت على لزوم الصمت. في المستقبل سترين. أنا لن أنساك في ذلك اليوم. أنت وحدك فقط. إني لن أقاسم الذين لم يتقاسموا معي.

كان يؤكد على كلماته الأخيرة بقوة. وفهمت الأم مقدار السخط الذي يكنّه ضد أخيه، وتحاشت أن تجيب في الحال خشية أن تهيج غضبه.

لكنها كانت تتابع التفكير. كانت معتلية ظهر الحمار تفكر في ابنها وتختلس النظرات إليه، كان يمشي أمامها قابضاً على الرسن، ينشد نشيداً مجهولاً، متقطعاً ونارياً، وما كانت تفهم معانيه. كانت تقول لنفسها، يجب عليها أن تجهد لتعرف بصورة أفضل الحياة التي يعيشها صغيرها، وأن تجد وسيلة لتصله بشكل أمتن بذويه. ستزوجه، وتبقي زوجته في البيت، وذلك ما يشده إليها أكثر، وقد ينتهي به الأمر إلى أن يعود ويسكن القرية بفضل زوجته. ستختار له فتاة جميلة، فاتنة، يستطيع أن يحبها. فكنتها الأولى ستقوم بأعباء العمل، أمّا الثانية فستكون من صنف آخر. اطمأن قلبها لهذه الفكرة التي بدت لها حسنة إلى حدٍّ لم تتمكن معه من السكوت عليها، قالت:

ـ يا بني. أنت جاوزت العشرين من عمرك، وتقترب من الواحدة والعشرين، وإني أفكر أن أزوجك قريباً. ما قولك في هذا المشروع المفرح؟

لكن من كان يستطيع أن يكشف أغوار قلب الفتى؟ فبدلاً من أن يلزم صمتاً باسماً سعيداً وخجلاً، توقف والتفت إليها ليقول بلهجة جازمة:

ـ كنت أنتظر أن تقولي لي شيئاً من هذا القبيل، أعتقد فعلاً أن ليس في رؤوس الأمهات غير هذه الفكر. إن رفاقي يقولون إن أهلهم غالباً ما

يكررون عليهم: «تزوجوا.. تزوجوا.. تزوجوا..» أما أنا يا أم، فإني أرفض، وإذا ما أجبرتني على ذلك فلن تري وجهي أبداً. لن أعود إلى البيت إطلاقاً.

ثم نظر أمامه من جديد واستأنف المسير، مسرع الخطى. لم تجرؤ أمه على أن تجيب بشيء، وقد باغتها وأفزعها غضبه المفاجئ وصمته بعد ذلك، إذ إنه كف عن الإنشاد.

لكن هذا كله غدا نسياً منسياً بانتظار ما سيأتي. كان الممر الذي يسلكانه منذ الفجر قد ضاق عندما بلغا آخر الصباح. وكانت الجبال بأشكالها الرائعة، التي تغطيها الخضرة وأشجار الخيزران التي خلفوها في واديهم قد تحولت إلى خطوط حادة قاحلة. وأخيراً عندما أضحى الوقت ظهراً راحت الشمس تصب قيظها بخط مستقيم، وبدت جبال صخرية جرداء في الأفق.

كان الممر ينساب بين حاجزين من الصخور الباهتة الشاهقة، ولم تكن الحجارة سوداء، وإنما كان لها لون الضياء الغريب، ولا تنبت أية خضرة عليها، إذ لا وجود هناك للماء، في أي مكان!

راحت الطريق تتوعّر. وفي حوالى الساعة الواحدة أو الثانية بعد الظهر وجد المسافران نفسيهما فجأة تجاه وادٍ دائري سحيق. كان لا بد من وجود نبع، إذ شاهدا قرية صغيرة مربعة محاطة ببعض حقول خضراء، ولكن عندما وقفت الأم والابن عند حاجز القرية يستعلمان عن البيت الذي يقصدانه، أجابهما شخص كان هناك، وهو يشير إلى نقطة على جرف أبعد وأعلى، قائلاً:

ـ هناك حيث تنتهي الخضرة، على الطرف الداخلي، وستجدان منزلين لا يشاهد فوقهما أية نبتة، وإنما الصخور والسماء.

وفي أثناء ذلك كانت الأم تتأمل بانقباض بالغ تلك الجبال بأشكالها العجيبة الوحشية الجرداء. كانت قد قضت عمرها في الوديان، وها هي الآن إذ تتسلق تلك الممرات، التي تذهب متعرجة من القرية المغلقة،

تنظر حواليها فزعة لفداحة جدب الأرض القاتل، وهزال المحاصيل حتى في وقت اقتراب الحصاد، فقالت لابنها:

ـ لا أحب منظر هذا المكان يا بني! أخشى أن تكون الحياة قاسية جداً هنا على أختك، إن كان الأمر فوق طاقتها، فسنعيدها إلى البيت، سنركبها الحمار، وسأرجع مشياً على قدمي، وليقولوا ما يشاؤون. إنهم لم يدفعوا شيئاً، وسأطلب فقط أن أُعيدها معي.

لم يجب الفتى بكلمة، كان يشعر بالتعب والجوع، لأنه لم يتناول إلاّ طعاماً طفيفاً بارداً جلباه معهما، وكان همه أن يصل إلى بيت أخته حيث كان مزمعاً أن يقضي الليلة. كان يسحب رسن الحمار بقوة إلى حد أن الأم لم تعد تتحمل، وتهيأت لمجابهة غضب ابنها وتأنيبه عندما انتصب فجأة بيت ثم آخر أمامهما. كان البيتان يستندان إلى المنحدر الصخري وكأنهما ملتصقان بالحجارة التصاقاً. وعرفت الأم أن ابنتها تسكن في أحدهما عندما شاهدت الكهل الأعرج أمام باب أحد الكوخين الحقيرين. وشاهد هو الأم وتفرسها غير مصدق عينيه، ثم طار إلى الداخل، وخرج أشخاص آخرون، رجل نحيل أسمر وحشي الهيئة، وامرأتان، وفتى ضئيل متهافت على بعضه. لكن الضريرة لم تظهر.

نزلت الأم عن ظهر الحمار واقتربت. كانوا ينظرون إليها بصمت. تفرستهم بدورها، وخافت. لم تشاهد قط أناساً على تلك الصورة. كانت شعور المرأتين مشبكة مليئة بالعقد، ووجهاهما أغبرين أسودين من الشمس، ترتديان أسمالاً لم تغسل يوماً. وكانوا جميعهم على تلك الهيئة. وخرج من المسكن الثاني طفلان ضامران هزيلان مصفران من الحمى بشفاه جافة، وجسم ملطخ بالقذر. لم يفتح الكبار ولا الصغار أفواههم بتحية أو بكلمة ترحيب، كانوا ينظرون إلى الأم بأحداق غير معبرة عن أية فكرة أو عاطفة كعيون الضواري.

وفجأة شعرت الأم بقلبها ينفجر من الجزع فصرخت:

ـ أين ابنتي، أين أخفيتم ابنتي؟

كانت تجري بينهم، بينما كان ابنها متردداً يقف إلى جانب الحمار.

بدأت الكلام إحدى النساء بلهجة ملتبسة، من الصعب فهم كلامها الخشن بنبرته المبلبلة التي تخرج من بين أسنان متكسرة، قالت:

ـ جئت في الوقت المناسب يا معلمة. لقد ماتت اليوم!

رددت الأم وحدها بصوت خفيض هذ الكلمة:

ـ ماتت!

وخرس صوتها. وتوقف قلبها عن الخفقان. وانقطع نفسها. لكنها اندفعت إلى الأمام مهرولة ودخلت الكوخ القريب.

وفي الكوخ، على فراش من قصب ملقى فوق التراب، كانت ابنتها الضريرة متمدّدة. كانت مستلقية ساكنة وميتة، مرتدية الثياب نفسها التي كانت ترتديها يوم تركت بيت ذويها. لكنها متسخة وبالية. لم يكن عليها شيء جديد، ولم يكن في المكان شيء عدا حزمات قصب، ومنصبين رديئين. كانت الحجرة خاوية.

أقبلت الأم وجثت قرب ابنتها، وثبتت نظرها على السحنة الجامدة، والعينين الغائرتين، والفم الصغير الصابر، وعلى قسمات الوجه الذي تعرفه جيداً.

ثم انفجرت بالشهيق، وانحنت على ابنتها وأمسكت يديها ورفعت كميها الخلقين وفحصت الذراعين، ثم شمّرت سروالها ونظرت إلى الساقين بحثاً عن أثر رضوض أو لطمات عنف جسدي.

لم تجد شيئاً. كان الجلد الناعم اللدن غير ممسوس، والعظام الرقيقة سليمة، ولا تظهر أية علامة تثير الشبهة. كانت الفتاة شاحبة هزيلة إلى حد يثير الشفقة، لكنها كانت ضعيفة دائماً، ثم إن الموت شاحب.

قربت الأم أنفها من فم الميتة علها تتنسّم رائحة سم، لكنها لم تشتم غير رائحة الموت الضعيفة والحزينة.

ورغم ذلك كانت الأم غير مقتنعة بأن موت ابنتها طبيعي. التفتت

صوب الذين كانوا وقوفاً عند الباب يراقبونها بصمت، وشاهدت وجوههم الشرسة المنفّرة، ووسط نوبة بكاء حادة أطلقت في وجوههم هذه الكلمات:

ـ أنتم قتلتموها، أعرف ذلك، وإلاّ اشرحوا لي كيف ماتت ابنتي بهذه السرعة بعد أن تركتني صحيحة سليمة.

عندئذ قهقه الكهل الشرير الذي أبغضته من أول نظرة، وقال:

ـ راقبي كلامك يا معلمة وخذي حذرك، أمر خطير أن تتهمينا بقتلها و..

قاطعته إحدى المرأتين وصاحت:

ـ كيف ماتت!؟ من برد، كانت ضعيفة، هذا كل شيء!

وبصقت على الأرض وصرخت من جديد:

ـ فتاة غير مفيدة، عاجزة حتى عن تعلم ملء الماء من النبعة دون أن تصطدم أو تقع أو تضيع طريقها.

رفعت الأم عينيها وشاهدت الممر الضيق الذي ينزل من الجبل إلى بركة صغيرة. سألت، وهي تتأوه:

ـ هل تتحدثين عن هذا الممر؟

لم يجبها أحد. وانتحبت وهي تصرخ:

ـ لقد ضربتموها، في كل يوم، دون شك، ضُربت ابنتي!

لكن المرأة أجابت بسرعة:

ـ افحصيها، إن كان عليها خدوش. لقد ضربها ابني مرة، لأنها كانت تستجيب له ببطء، مرة واحدة، هذا كل ما حصل.

رفعت الأم رأسها وسألت بصوت ضعيف:

ـ أين هو ابنك؟

دفعوه إلى الأمام، ومكث واقفاً حيث وصل، يتهزز ثابت البصر، فأدركت الأم أنه نصف أبله.

مالت ووضعت رأسها على جثة ابنتها وبكت بكاء ضائعة. كان يأسها

يزداد وهي تفكر بالبلايا التي انصبّت على رأس ابنتها بين تلك الأيدي.

وبينما كانت آلامها تتفجر كان الغضب يتصاعد عند الذين يراقبونها. وأحسّت أخيراً بيد تمسها على كتفها، فرفعت عينيها وشاهدت ابنها ينحني ليهمس بإلحاح:

ـ يا أم، نحن في خطر، أنا خائف، الأفضل ألاّ نبقى هنا طويلاً. يا أم، لقد ماتت. نحن لا نستطيع أن نفعل شيئاً. إنهم يبدون متوحشين ضارين. وإني أتساءل عمّا ينوون فعله بنا، تعالي. لنسرع إلى القرية القريبة، فنشتري ما نحتاج إليه من طعام، وسنصل بيتنا هذا المساء.

نهضت الأم باكية، لكنها حين شاهدت حال أولئك الأشخاص المجتمعين، ينظرون إليهما شذراً، ويتخاطبون فيما بينهم بشكل مريب، انتابها الخوف، هي أيضاً. كان ينبغي عليها أن تفكر بابنها. ليقتلوها هي إن شاؤوا، لكن ليتركوا لابنها حياته.

التفتت لتلقي نظرة أخيرة على ابنتها، وسوّت للميتة ثيابها، ومددت لها ذراعيها على طول جسمها، ثم خرجت من الكوخ لتواجه الوقت عصراً. وما إن خفت حدة انفعالها، وبدت أكثر هدوءاً، حتى اقترب الرجل الذي لم يكن قد فتح فمه بكلمة حتى ذلك الحين، والذي هو والد الأبله، وقال لها:

ـ إن كنت تظنين أننا لسنا شرفاء، يا معلمة، فانظري إلى التابوت الذي اشتريناه لابنتك. لقد دفعنا ثمنه عشر قطع فضية، وهي كل ما كنا نملك. هل تعتقدين أننا كنا نشتريه لها لو أننا لم نكن نقدرها ونحترمها؟

وبالفعل، شاهدت الأم تابوتاً إلى جانب الباب، لكنها أدركت أنه أبعد من أن يساوي هذا المبلغ، كان صندوقاً خشبياً من الدف الرقيق كالورق، غير مطلي بأي دهان، من التوابيت التي في مقدور أي شخص فقير أن يشتريه. كادت الأم من حنقها أن تفتح فمها لتجيب: «هذا الصندوق! يكفي المال الذي كنت أعطيته لابنتي لشرائه»!. إلاّ أنها لم تتلفظ بهذه الكلمات. وانتابها شعور بخطر داهم، كما تلف الغيمة

الباردة ضياء النهار.. هذان الرجلان الشريران.. هاتان المرأتان المتوحشتان.. ومن جديد أخذ ابنها يلح عليها وهو يشد على كمها، وعندها قالت بحزم:

ـ سأسكت الآن. ماتت ابنتي، وغضب العالم بأسره والأقوال كلها عاجزة عن أن تعيدها.

وتوقفت، وتأملتهم واحداً واحداً، وقالت أيضاً:

ـ أنتم أمام السماء والآلهة، لتحاكمكم، أنتم والأفعال التي اقترفتم.

كانت تنظر إليهم الواحد تلو الآخر. لكن أحداً منهم لم يجب. عندئذ أدارت لهم ظهرها وركبت حمارها، وخف ابنها لجر الحيوان على الممر الصخري. كان يلقي نظرة هلع إلى الوراء من تارة إلى أخرى خشية أن يلحقوا بهما، قال:

ـ لن أطمئن إلاّ عندما نصل تلك القرية الآهلة. أنا خائف.

بيد أن الأم لم تجب بحرف. وما جدوى القول وقد ماتت ابنتها.

17

توقف الحمار أمام باب البيت ونزلت الأم متهالكة من التعب. كانت قد بكت طوال الطريق، تارة بصوت مرتفع وتارة أخرى بصمت خانق.

كانت دموعها تخرج ابنها عن طوره. كان يتضرع إليها بغصة:

ـ كفي عن نحيبك يا أم، إني لا أستطيع تحمله.

كانت تهدأ بسبب تضرّعه فترة، ثم تستأنف البكاء كأشد ما يكون، إلى حد أنه كان يصر على أسنانه ويتمتم بلهجة وحشية:

ـ لو كنا أقل عوزاً وبؤساً، أو أننا بلغنا اليوم العظيم المرتقب عندما يستوفي الفقراء حقهم ويتمكنون من الدفاع عن أنفسهم، لكنا قدمنا الشكوى ضد أولئك الناس بجريمة قتل أختي. لكن ما جدوى ذلك في

الوقت الحاضر، وفي وضع فقرنا الراهن، فالعدالة لا تنصفنا في هذا البلد.

وكانت الأم تجيب وسط نحيبها:

ـ معك حق، لا جدوى من التفكير بدعوى، بما أننا لا نملك مصاريفها.

ثم شملتها نوبة أسى جديدة وصاحت:

ـ لكن مال العالم كله وعدالة الأرض بأسرها لن يردا عليَّ ابنتي الضريرة!

كان الشاب يبكي بدوره، ليس بسبب موت أخته على وجه الدقة، ولا بسبب أمه، إنما لأن رجليه كانتا تؤلمانه، ولأن صبره قد نفد، ولأنه يعيش في عالم يدبّ على رأسه.

ودخلا البيت أخيراً. وما كادت الأم تضع قدميها على الأرض حتى نادت ابنها البكر بصوت حاد بالغ، فخرج الابن راكضاً فصرخت:

ـ يا ابني، ماتت أختك.

وفيما هو يثبت نظره عليها دون أن يفهم جيداً، كانت هي تروي رحلتها وهي تطلق العويل والنواح. وجاء الجيران عند سماع الصراخ. وما كاد الليل يحل حتى كان جميع أهالي القرية في بيتها يصغون إلى روايتها. كان الشاب دون وعي مستنداً إلى الحمار، وكانت أمه لا تتوقف، ثم رمى بنفسه على الأرض واستلقى غائباً عن الوعي وقد دوخته أحداث يومه، كان طوال الوقت ساكتاً بينما كانت أمه تبكي وتعول وتنقّل عينيها المغرورقتين في وجوه الذين يلتفون حولها وهي تصرخ وسط دموعها:

ـ ابنتي الصغيرة كانت هناك، بلا حركة، باردة، إني لا أغفر لنفسي لأني تركتها ترحل عن البيت. ما كان ليحدث لها شيء أبداً لولا هذه الكنة ذات القلب الحجري، التي كانت ترفض أن تعطي الطفلة قطعة

لحم، أو زهرة على حذائها، إلى درجة كنت أرتعد عندما أتصور ما يحدث لها فيما إذا قضيت نحبي، وكانت الصغيرة خائفة جداً.. بنت طيبة.. ما كانت لتتركني أبداً برضاها. ما حاجتها إلى رجل أو إلى زوج؟ كان قلبها قلب طفل، وكانت متعلقة بي وببيتها. أواه! يا ابني، إنها امرأتك المسببة لكل ما حدث! إني ألعن اليوم الذي جاءت فيه، وليس عجباً وهي بهذا القلب القاسي أن تظل عاقراً.

وظلّت الأم تنوح. في البدء كان الجميع يصغون إليها بصمت ويكتفون بصرخات استنكار عندما كانت تندب ابنتها بجمل متقطعة من خلال دموعها المنهمرة مدراراً، وكانوا يحاولون أن يشدوا من عزمها وتعزيتها، إلاّ أنها كانت ترفض العزاء والسلوى.

صمت ابنها البكر لا يقول شيئاً، مطرق الرأس إلى أن لعنت أمه امرأته وأشارت إلى عقمها، عندئذ قطع عليها الكلام بصوته الهادئ، وقال:

ـ لا يا أم، إنها لم تشر عليك أن ترسلي أختي إلى هناك. أنت عجلت بإرسالها بسرعة كبيرة، دون أن تستشيري أحداً. أنت قررت كل شيء، وكنا نستغرب أنك لم تكشفي على المكان وتتعرفي عليه أنت ذاتك.

ثم التفت إلى ابن العم وسأله:

ـ أليس هذا رأيك أيضاً، يا ابن العم؟ أتذكر حينما كنت أقول لك كم أننا نستغرب تسرع أمي إلى تلك الدرجة؟

وأدار ابن العم عينيه وهمس مكرهاً وهو يمضغ تبنة:

ـ أي نعم، حدثت الأمور بسرعة نوعاً ما!

كانت زوجته تحمل على ذراعها أحد أحفادها، قالت للأم بلهجة حزينة:

ـ نعم، هذا صحيح، يا أختي، أنت دائماً نزقة، لا تستشيرين أحداً في أي أمر. قبل أن يحزر أي واحد منا ماذا كان يجول في رأسك، كان كل شيء قد تقرر وتم. وأنت لا تريدين إلاّ شيئاً واحداً هو أن يصوب رأيك.

أنت كنت دائماً هكذا، إنها طبيعتك.

لكن الأم لم تكن تتحمل أية ملامة في ذلك المساء، لذلك صوبت نحو ابنة العم وجهاً يتأجج فيه الغضب وقالت لها:

ـ أنت معتادة على زوجك الذي لا ينتهي أبداً إلى قرار. أما إذا سمح أشخاص بطيئون إلى هذا الحد لأنفسهم أن يجدونا نزقين..

وخلال لحظات حسب الجميع أن هاتين المرأتين، اللتين كانتا صديقتين حميمتين طوال عمرهما، ستوجهان الواحدة للأخرى كلمات قاسية مرة، لكن حين شاهد ابن العم، الذي كان رجلاً طيباً وديعاً، وجه امرأته العريض محمرّاً، بينما هي تجمع قواها لترد جواباً جارحاً، قال لها:

ـ دعيها، يا أم أولادي، إنها مريضة حزناً وغماً، هذا المساء، وهي ليست بكامل ملكاتها العقلية.

وبعد أن مضغ تبنة أضاف بتواضع:

ـ من المؤكد أني بطيء، لقد قيل لي هذا، وتكرّر ألف مرة ومرة منذ ولادتي. بل أنت نفسك، يا أم أولادي، لم تتحرجي من هذا القول منذ أول يوم.. نعم، أنا بطيء!

ونظر إلى جيرانه وأكد واحد منهم بوقار:

ـ نعم، بالتأكيد، أفعالك متوانية، وكذلك تفكيرك بطيء، والكلام لا يخرج من فمك سريعاً!

قال ابن العم بحسرة:

ـ بالفعل.

وبصق التبنة التي كان يمضغها والتقط واحدة أخرى.

كانت المشاجرة بين الصديقتين قد تُجنّبت، إلاّ أن الأم لم تشعر أنها سكنت. ولمحت بين الجموع الأرملة العجوز الثرثارة، واقفة، فاغرة الفم، ثابتة العينين، مشرئبة العنق، شاحذة الانتباه ترصد ما يجري.

ولمنظرها هذا حطم ألم الأم وغضبها السدود فهجمت على المرأة وغرست أظفارها في خديها وأمسكت بشعرها وراحت تجرها وهي تصرخ:

ـ كنت تعرفين أولئك الناس، كنت تعرفين أن الابن أبله، لقد أخفيت ذلك عنّي. كنت تخترعين وتكذبين. كنت تزعمين أنهم فلاحون بسطاء من طبقتنا. لم أتصور أبداً أنه كان على ابنتي أن تصعد وتنزل ذلك الممر الصخري المنحرف لتحمل الماء. أنت سبب كل ما حدث، وأقسم لك أني لن أستريح ويهدأ لي بال قبل أن أنزل عليك عقاباً جزاء ما اقترفت يداك، بطريقة أو بأخرى.

وكانت مستمرة في إهانة الأرملة الثرثارة وإذلالها، والتي لم تكن قادرة على منازلة الأم في حالتها الطبيعية، فكيف لها بها وهي في حالتها تلك؟

كان الجميع يتساءلون عن مصير هذه المعمعة، عندما هب الابن الأكبر ليفرق بين المرأتين. وقام أخوه وجاء لمساعدته، وأمسكا كلاهما بأمهما، وذلك ما سمح للأرملة بالفرار، لكنها وقفت على بعد مسافة منها، يفصلها عنها جماعة من الجيران، وصاحت لتنقذ شرفها:

ـ نعم، لكن ابنتك كانت عمياء. هل كان لأي رجل طبيعي أن يرضى بها؟ لقد أديت لك خدمة جليلة، يا معلمة، وهذا هو الجزاء الذي أجنيه.

وراحت تضرب بقبضتيها على صدرها، وتظهر الخدوش على وجهها، وتبكي لتثير غضبها وتستأنف المشادّة.

غير أن بعض الحاضرين أبعدوها بأسرع ما يمكن عن المكان، وجر الابنان أمهما برفق إلى غرفتها، وعندما أجلساها أحضرت كنتها لها قصعة ماء مغلي مسكن كانت وضعتها على النار في أثناء المشاحنات، وبلت منشفة وأخذت تمسح وجه حماتها ويديها، ثم صبت لها شاياً حاراً وقدمت لها طعاماً. ورويداً رويداً شمل الأم بعض السكينة،

وراحت تبكي بهدوء، ثم شهقت عدة مرات، وشربت قليلاً من الشاي، وأكلت لقمة ونظرت أخيراً فيما حولها، وسألت:

ـ أين ابني الصغير؟

تقدم الشاب فرأت شحوبه البالغ وتعبه وإنهاكه ومعاني البهجة التي كانت قد غابت عن سحنته موقتاً، فأجلسته إلى جانبها وأخذت يده بين راحتيها وأجبرته على الأكل والراحة، وقالت له:

ـ ابق إلى جانبي، يا بني، ارقد على الفراش الذي كانت أختك تنام عليه. أنا لا أستطيع أن أشعر بفراشها خاوياً هذا المساء، يا ابني!

وتمدد الشاب على الفراش، وبسرعة غرق في سبات عميق.

لكن حتى حين سكنت الحركة في البيت لم تتمكن الأم من النوم. كانت تحس بالتعب، جسمياً من جراء الرحلة الطويلة، ونفسياً لمصيبتها المفجعة بابنتها وحزنها الذي لا سلوى معه. كان الشيء الوحيد الذي يمنحها بعض العزاء والراحة هو سماعها، إلى جانبها، تردد أنفاس ابنها بعمق. وفكرت فيه بحنان وقالت لنفسها:

«يجب أن أقدّم له المزيد. إنه كل ما بقي لدي. سأزوجه، وسنضيف غرفة جديدة إلى البيت. سيكون وحده مع امرأته، وعندما يأتي الأولاد.. نعم، سأجد له زوجة قوية خصبة كي تمتلئ الدار بالأطفال الصغار..».

وكان ذلك الأمل بأطفال صغار، سيولدون فيما بعد، العزاء الوحيد لأيام حياتها القادمة.

*

كان ذلك العزاء دون شك قصير النفس. وكان الزحار القديم قد عاودها من جديد وألزمها الفراش مريضة، محطمة، واهية. لبثت في فراشها أياماً عديدة في حالة كانت فيها أضعف من أن تتألم أو أن تتأمل. كان يزورها كثير من الناس ليشدوا من عزمها. وكان ابن عمها وزوجته وجاراتها يرددون:

ـ يا معلمة، يجب أن تسلمي بأن الصغيرة كانت ضريرة.

أو يقولون:

ـ يا معلمة، نحن لا نستطيع تبديل حكم قضته السماء بحقنا، والنوح لا يجدي في عالمنا هذا نفعاً.

أو يقولون أيضاً:

ـ فكري في ابنيك الطيبين!

وفي يوم، كانت ابنة العم تقول لها مثل هذا الكلام، أجابتها الأم بصوت ضعيف:

ـ نعم، لكن امرأة ابني البكر لا تحبل، وابني الصغير يرفض الزواج.

عندئذ أجابتها ابنة العم بقلبها الكبير العطوف:

ـ مهلاً، اصبري أيضاً على كنتك سنة أو سنتين. فغالباً ما تبقى امرأة سبعة أعوام عقيماً، ثم تتفتح طبيعتها الحقيقية وتلد أولاداً أصحاء، قرّة عين. إني رأيت ذلك. أما الشاب فإنه إن كان يعلن أنه لا يريد أن يتزوج، فذلك لأن له علاقة غرامية سرية. إني على يقين أن ليس في العالم رجل واحد لا يريد أن يتزوج.

وطلبت الأم إليها بصوت خفيض:

ـ قرّبي أذنيك من شفتي.

وعندما اقتربت ابنة العم همست الأم:

ـ منذ ذلك الحين والويلات تلاحقني، والرياح تجري عكس ما أشتهي، أخشى أن يكون ذلك نتيجة خطيئتي القديمة. الآلهة لا تجهلها، والسماء لن ترسل لي أحفاداً!

وأغمضت عينيها على دمعتين كبيرتين انبجستا من بين أهدابها المطبقة. كانت تفكر في جميع أخطائها القديمة، ليس فقط في خطيئتها تلك التي تعرفها ابنة العم، وإنما في خداعها عندما زعمت أنها أرملة، وفي الرسائل التي أملتها على الكَتَبَة، وفي سائر أكاذيبها.

لم تكن تعتبر الكذب بحد ذاته كفعل لا يغتفر، إذ يجب على كل إنسان أن يكذب أكثر أو أقل ليحافظ على شرفه وكرامته. لكنها كانت أعلنت عن موت رجل، وفي هذا يكمن الشر. كان يخيل إليها أن ذلك لا يقل خطورة تقريباً عن رفعها ذراعها لقتله. ثم إنها أرادت أن تستغل قصة الوفاة تلك على أمل أن يتزوجها رجل آخر هو الوكيل.

وهكذا فأخطاؤها القديمة، التي كانت تنساها عندما تكون صحيحة معافاة، تعود واضحة جليلة وتبعث حية في ذاكرتها في حالتها تلك: ضعيفة، عليلة، حزينة.

كانت أخطاؤها تبدو لها ثقيلة جداً، وهي لا تستطيع أن تعترف بها علناً، كما أنها لا تستطيع أن تحفظها لنفسها في طي الكتمان! وإن ما كان يزيد من فداحتها أنها كانت تتمتع بين صحبها بسمعة طيبة.

كانت مهيضة الجناح، لا تتذوق لشيء طعماً، اللهم إلاّ وجود ابنها الثاني الذي كان وحده ينعش وجودها قليلاً. كانت كنتها تخدمها بإخلاص وقدر طاقتها، تقدم لها طعاماً حاراً عندما تطلبه حالاً، بل كانت لا تتردد في قطع مسافة ميل أو ميلين لتجلب لها من إحدى القرى المجاورة نوعاً من المرق بالفول. كانت الأم لا تستطيع الاستغناء عن كنتها، وغالباً ما كانت تناديها لتديرها من جنب إلى جنب، ومع ذلك فإن وجود المرأة الشابة لم يكن يبهجها، مع أن المسكينة كانت أسيرة أهواء أم زوجها، إلاّ أن الأم غالباً ما كانت تنهرها لأنها وجدت أن يديها باردتان أو أن لونها أصفر، وكانت تصوب إليها نظرات فيها حقد وفيها طفولة. غير أنها كفّت عن اتهامها بالعقر، خشية أن تكون هي نفسها المسئولة عن ذلك، بسبب أخطائها.

وتركت الأم أخيراً سريرها، عندما ولّى الخريف، وقد سلت حزنها بعض السلوى. بيد أنها ظلت كئيبة مضطربة، لكن بلا جنون اليأس، وكانت لا تزال تفكر في ابنتها لكن بحزن أخف حدة من السابق. بل انتهى بها الأمر إلى أن قالت لنفسها:

«قد يكونون على صواب، ولعل من الخير أن تكون صغيرتي قد ماتت. هناك أشياء أشد سوءًا من الموت».

وكانت تتعلق بتلك الفكرة الوحيدة.

كانت القرية بأسرها تمد لها يد الرفق، ولم يتحدث قط أحد عن ابنتها أمامها، ولا في أي مكان آخر ولا شك، إذ إن فتاة كفيفة لا تترك ذكريات خلفها، وأصحاب تلك العاهة كثيرون، في كل مكان.

في البدء كانوا يسكتون أمام الأم ليجنبوها حزنها، ثم كانوا يصمتون لأن الموضوع قد استوفى حقه، ولم يبق ثمة من مزيد عليه. وأخيراً كانوا يسكتون لأن أحداثاً جديدة كانت تتعاقب عن أشخاص مختلفين، وأن حياة الضريرة القصيرة قد انتهت.

خلال فترة من الزمن كانت الأرملة الثرثارة تتحاشى الالتقاء بالأم أو الاجتماع بها، لكنها حينما شاهدت مبلغ هزال المرأة المسكينة وضعفها، عندما تركت سريرها، انشرحت العجوز الثرثارة وحيتها كما كانت تحييها في السابق.

وكانت الأم تلزم الصمت عن الماضي، فكان لا يتحرك إلاّ في أعماق قلبها أحياناً.

18

وجدت الأم بعض السلوى في ربيع ذلك العام، حين ظهر ابنها الثاني في البيت، وقال:

ـ جئت لأقضي بعض الوقت هنا يا أمي، لا أعرف كم ستطول إقامتي، لكني سأنتظر ريثما أُستدعى.

وابتهجت، لكنه كان لا يكاد يجيب. كان يبدو متبدّلاً، يبقى هادئاً، لا يغني، لا يأتي بحماقات، ولا يتكلم برعونة حسب عادته. كانت أمه تتساءل إن كان مريضاً أو إنه مشغول بسبب غامض. وعندما حدّثت ابنة

العم عن وضع ابنها أجابتها هذه بحنان:

ـ لا شك أنه يخرج من طور الطفولة، هو خدين ابنتي الخامسة، إنها الآن في الواحدة والعشرين، وها قد مضى على زواجها خمس سنوات. فالرجل في العشرين يتخلى عن سن الطيش، رغم أن زوجك استمر فيها حتى آخر يوم شاهدته فيه.

تنهّدت الأم وقالت:

ـ هذا صحيح.

كانت ذكرى زوجها قد غدت غامضة لديها أشد الغموض. كانت صورته تمتزج في ذاكرتها بصورة ابنها الثاني، وكانت أحياناً لا تستطيع أن تفصل بين الصورتين، وحينما كانت تحاول أن تتذكر صورة الأب كانت صورة الابن هي التي تبرز أمام عينيها.

لكن لم تكد تمضي تسعة أيام فقط حتى اختفى الابن بالسرعة والغموض اللذين كان قد ظهر بهما، رغم أن أحداً لم يعرف كيف تلقى الدعوة. وبينما كان يستعد للرحيل، ويضع حاجاته في صندوق جلدي صغير، كانت أمه حزينة تسخن عيناها لرحيله. قالت:

ـ كنت أحسب أنك جئت لتبقى بقاء لن ترحل بعده، يا ابني!

لكنه أجاب:

ـ أوه! سأعود، يا أم! سأعود.

وكان يبدو فَرِحاً، يتعجّل الرحيل.

وعظُمت فرحته فيما بعد. كان يذهب ويجيء دون أن يُخبر أحداً. كان يدخل وثيابه مدرجة تحت إبطه، ويتسكع يوماً أو يومين في القرية الصغيرة، يرتاد خلالهما حانوت الشاي، ويتكلم كثيراً عن بؤس الأزمان الراهنة، وعن العدالة غير المؤمنة، وعن اليوم العظيم الذي سيشرق وينظم الفوضى السائدة. كان الرجال ساكتين يصغون إليه فاغري الأفواه، ينظر بعضهم إلى بعض، متحيرين.

وصاح صاحب النزل وهو يحك شعره الدهني:

ـ أقسم لكم، أيها الجيران، أن كلامه يذكرني بأقوال اللصوص!

لكنهم كانوا يتركون الفتى لحال سبيله، مراعاة للأم والأخ الكبير الشهم. ثم كانوا يعتبرونه غلاماً بعد، سيعقل إذا ما تزوج، عندما يعيش عيشة الرجال.

وبينما كان هو يظل متبطِّلاً، أو أنه يتظاهر بإرادة مساعدته لأخيه في بعض الأعمال الخفيفة، كان الأخ الأكبر يقول بلهجة احتقار:

ـ أشكرك جزيلاً، لكني اعتدت على القيام بأعمالي، بدونك.

كان الأصغر ينظر إليه بسفه، إذ إنه أصبح في المدة الأخيرة يتخذ مواقف وقحة أكثر فأكثر، لا يتنازل معها إلى حد الشجار، ويبصق على الأرض ويضحك ضحكة طلقة، ويقول:

ـ كما يحلو لك يا أخي الكبير!

كان يبدو راضياً عن نفسه إلى حد أن أخاه كان يشعر بأن الحقد والغيظ يخنقانه. وكان يود راضياً لو يرجوه أن ينصرف ولا يعود. لكن رجلاً لا يستطيع أن يطرد أخاه ولا يستطيع إلاّ أن يحافظ على احترامه أمام جيرانه.

كانت الأم لا تجد لابنها الصغير أية نقيصة، كانت تعجب به حتى حين يتلفظ أمامها بكلماته الوقحة، ويقول وهو يقصد أخاه:

ـ إني أقسم لك أن هؤلاء المالكين الصغار، الذين يجب عليهم أن يستأجروا أرضاً ليتمكنوا من كسب معيشتهم، هؤلاء الشخصيات البائسة والمتعجرفة يستحقون ما سينزل على رؤوسهم يوم تصبح الأرض ملكية مشاعة، وتزول الملكية الخاصة.

لم تكن الأم لتفهم معنى أقوال ابنها وتقول بلهجة شاكية:

ـ نعم، إني أجد أخاك متعجرفاً أحياناً، مع أن امرأته عاقر!

كانت تجد كل ما يقوله ابنها الأصغر صواباً، وكانت متعلقة به أشد التعلق.

عندما كان يجيء إلى البيت يكون مجيئه بالنسبة إليها يوم عيد. وكانت تريد أن يكون كل يوم يقضيه عندها يوم عطلة، تذبح فيه دجاجة وتطبخ ألذّ الأطعمة. بيد أن ذلك كان مستحيلاً. كان الدجاج ملك الأخ الأكبر، وكانت هي تكتفي بسرقة بيضة أو بيضتين وتحتفظ بهما للصغير، وتسلقهما خفية في الماء المغلي، وترش عليهما السكر الذي تكون أخفته من أجله.

كانت تحتفظ له بجميع حلواها، بالدراق، وبالأثمار المجففة أو قطع الحلوى الصغيرة التي كانت تقدم لها في زياراتها إلى بيوت القرية. كانت تصرف وقتاً طويلاً في مراقبة تلك الذخيرة، التي كانت تحافظ عليها أطول مدة ممكنة وتخشى أن تراها تفسد. وعندما كانت تتأخر زيارات ابنها، وتجد نفسها مضطرة إلى أكلها، كانت لا تجد أية لذة في ذلك، رغم أنها كانت شرهة هي نفسها. وغالباً ما كانت تفتح الجرار الذي تحتفظ فيه بتلك الحلوى، وتقلبها بأصابعها، وتقول لنفسها:

«إنه لا يأتي، إنه ليس هنا. لو كان لي حفيد لأعطيته إياها. ليس لي أحد، إذا لم يأت ابني»!

كانت تجلس عدة ساعات كل يوم تراقب الزقاق، محاولة أن تلمح ابنها، وما إن يلمع ثوب رجل من بعيد حتى تركض قدر ما تُسعفها قواها. وإذا كان الشخص ابنها، أخذت يده الدافئة بين عظام أصابعها وجرته إلى غرفتها، حيث تصب له شاياً، حضّرته كنتها لها، ثم تخرج له بسرور قطع الحلوى الصغيرة. كانت تجلس وتتأمل ابنها بحب، وتنظر إليه يختار ألذّ القطع. وأحياناً كان يحول أنفه الدقيق ويقول:

ـ يا أمي، هذه القطعة متعفنة.

وأحياناً يقول:

ـ لم أحب قط هذه الحلوى المصنوعة من عجين الأرز، إنها جافة!

وكانت تجيب، بحزن:

ـ هل هي حقاً جافة جداً، يا ابني؟ كنت أظن أنك تحبها رغم ذلك.

كانت الأم تلتقطها وتأكلها خشية ضياعها، وهي متأسفة لأنها لم تعجب ابنها.

وبعد أن يأكل ما يلذّ له كانت تصغي إلى ما يريد أن يقوله. لم يكن يجيب قط على أسئلتها كما ترغب هي. وإذا ما ألحت في السؤال أظهر رغبته في الرحيل. وعندما كانت تدرك ذلك تجبر نفسها على الصمت.

أما هو فقد تعلّم أن يوجّه انتباه أمه إلى وجهة أخرى. وبنسبة ما كانت هي تتقدم في السن كانت تزداد نسياناً، ويغدو تغيير مجرى تفكيرها سهلاً عليه، فما عليه إلاّ أن يصف لها عجيبة رآها: مشعبذ يدخل في حلقه أفعى ثم يسحبها من ذنبها، أو امرأة تعرض ابنها ذا الرأسين لمن يريد لقاء قرشين، أو عجائب أخرى تعرض في المدينة.

كانت الأم العجوز تبكي لرحيل ابنها الصغير، وكانت أقاصيصه تسليتها فتعيدها على كنتها وتكررها على ابنها الأكبر.

وفي يوم، بينما كان ابنها الأكبر يغسل وجهه بعد أعمال الحقول منحنياً على دلو الماء، راحت تروي له أقصوصة من تلك الأقاصيص. فرفع وجهه المبلل وقال بمرارة بالغة:

ـ نعم، هو كذلك. إنه لا يقدم لك الطعام، ولا يفعل شيئاً من أجلك، إنما يلقي إليك بقطعة نقود فقط، كما يتصدّق على سائلة. إنه يأتي إلى هنا، ويأكل، ولا يمس بيده المعزق أو المحراث، لكنه يروي لك غرائب وأنت تحبينه أكثر من..

وقطع حبل استرساله، وانحنى ليغسل رأسه بجلبة كبيرة كي لا يسمع رد أمه.

كانت الأم لا تعرف أكثر من ذلك عن ابنها الثاني. تعرف جسمه الرشيق، ولون الذهب الباهت لبشرته الحضرية، المختلفة عن لون الفلاحين الأسمر والأحمر. كانت ترى كيف يطيل أظفار أصابعه

الصغيرة. وكم كانت أسنانه بيضاء، وشعره لماعاً زيتياً، يرخيه حول أذنيه ويهز رأسه ليزيل خصلة لماعة عن عينيه.

كانت تعرف أيضاً ابتسامته الطلقة الحاضرة الدائمة، وعينيه الجريئتين، وكانت تحب الاحتقار الذي يعامل به المال، والطريقة التي يبحث عنه في حزامه ليعطيها ما فيه، أو حين يكون في عوز وطريقته في مطالبتها. وكانت تفضل أن تعطيه قطعة نقود على أن تتلقاها منه. كانت تحتفظ بكل ما يعطيها بأمل أن ترده حين يحتاج إليه.

19

انتظرت الأم ابنها الأصغر، لكنه لم يحضر. كانت متيقنة من مجيئه، إذ إنه قبل ثلاثة أيام جاء في الليل سرّاً، ماراً عبر الحقول كي يتحاشى العبور في القرية. حك بابها بأظفاره حكاً خفيفاً، وخافت أن تفتحه، متهيبة من اللصوص. كانت على وشك أن تنادي وتستغيث عندما سمعته يتكلم بصوت خفيض وبسرعة كبيرة. ولحسن الحظ فإن اضطراب الدجاجات الرابضة تحت السرير ضيعت حركته الخفيفة ومنعتها من أن تصل إلى آذان ابنها وكنتها.

ونهضت بأقصى ما استطاعت من سرعة، وتلمست في الظلام ثيابها والشمعدان وفتحت الباب بهدوء.. إذ يُفترض أن يكون هناك لغز كي يطرق ابنها في تلك الساعة بابها بذلك الحذر والاحتراس كله. كان واقفاً خلف الباب صحبة شابين مرتديين الأسود، كما كان هو نفسه مرتدياً. وكان يحمل حزمة كبيرة مغلفة بالورق ومربوطة بخيوط. وعندما فتحت الباب والضوء في يدها أطفأ ابنها الشمعدان.

كان القمر يرسل ضوءاً خفيفاً ويسمح بالرؤية قليلاً، فأطلقت الأم صرخة سرور خفيفة لمشاهدة ابنها الذي قال لها:

ـ أماه، إن معي شيئاً أريد أن أضعه تحت سريرك مع ثيابك الشتوية. لا تتحدثي عنه لأحد. يجب ألاّ يعرف أحد بوجوده، سأجيء قريباً لآخذه.

فتحت عينيها على وسعهما، وخانتها شجاعتها لتلك الأقوال، فقالت برزانة، بصوت خفيض، كما كان هو يتكلم:

ـ يا بني، أرجو ألاّ يكون في المسألة عمل ينافي الأمانة والشرف! أرجو ألا تمس في حياتك ما يخص الآخرين.

أجاب بحيوية:

ـ لا يا أمي، أنا لم أسرق شيئاً، أقسم لك بذلك. إنها جلود غنم اشتريتها بثمن بخس، وأخشى أن يلومني أخي، كما هو مسلكه في العادة معي، لأني اشتريتها، وليس عندي مكان آخر أستطيع أن أضعها فيه. كان سعرها رخيصاً جداً، وسأعطيك واحداً منها في الشتاء القادم، ستصنعين منه معطفاً، سنكون جميعنا بخير، في الشتاء القادم!

كان سرورها عظيماً لا مزيد عليه، وعندما أكد لها أنه لم يسرق شيئاً لم يخالجها أقل ريبة في كلامه أبداً. كانت سعيدة لمشاطرتها سرّاً، أجابت بسرعة فائقة:

ـ نعم، في وسعك الاعتماد عليّ، ففي هذه الغرفة أشياء كثيرة يجهل ابني وكنتي وجودها.

حمل الشابان الصرة ودفعاها تحت السرير، دون أن يحدثا أقل ضجة تُذكر، لكن الدجاجات شرعت في النقيق دون أن يرف لها جفن، واستيقظ الثور وراح يجتر.

رفض ابنها البقاء وأن يبيت عند أمه، وذلك ما أدهشها، بيد أنها اكتفت بالقول:

ـ كن مطمئناً ياولدي، سأحافظ عليها، لكن ألا يجب أن تتعرّض هذه الجلود للهواء وأن تنشر في الشمس خوفاً من العث؟

أجاب بلهجة فيها لامبالاة:

ـ لا، لن تفسد في يوم أو يومين. سنغيّر مسكننا، وسيكون لنا بيت أوسع، سيكون لي غرفة وحدي، وسأربح مزيداً من المال.

عندما تكلم عن مسكن وسيع فكرت الأم في الحال في زواجه الذي كان لا يفارق بالها لحظة. فأخذت ابنها على حدة ونظرت إليه نظرة توسل. إن رفضه الزواج هو الشيء الوحيد الذي لا يعجبها فيه. إنه يقضي وطره حتماً هنا وهناك، وكانت تأخذ عليه ذلك الهدر. كان من الأفضل له أن يتزوج فتاة كما ينبغي، وأن يعطي أمه أحفاداً. لكن في تلك اللحظة، وهي تعرف أنه يتعجل الذهاب، وأن رفيقيه ينتظرانه في ظل الباب، قبضت على يده وقالت له بتملق بصوت خفيض:

ـ لكن يا ابني، بما أنه سيكون لك مسكن واسع فلماذا لا تسمح لي أن أبحث لك عن فتاة؟ سأختار لك خير من أستطيع، وأجمل واحدة ممن سيقع نظري عليهن. أو إذا كنت أنت تعرف واحدة، فقل لي، وسأطلب إلى ابنة العم أن تخطبها لك. وإذا استطعت أنا أيضاً أن أحب التي ترغب فيها أنت.. سأترك لك الحرية يا ابني.

هز الفتى الخصلة الطويلة التي تسقط على عينيه، وحاول أن يخلص يده وهو ينظر إلى الباب، لكن الأم كانت ممسكة بها بقوة وحزم. وحاولت أيضاً أن تقنعه، قالت:

ـ لماذا تبعثر بذارك هنا وهناك يا ابني، وتحرمني من أحفاد بهيين؟ زوجة أخيك باردة عاقر، وإني لن أجلس أولاداً على ركبتي إذا أنت لم تعطني. إني أعرف جيداً كيف كان أبوك وأنت تشبهه. ازرع بذارك في بيتك.

كان الفتى يضحك بصمت، ويزيح الخصلة التي تقع على عينيه البراقتين، ويقول بشرود:

ـ النساء العجائز مثلك، يا أمي، لا يفكرن بغير الزواج والولادة. أما نحن الشبان فإننا ألقينا بكل هذه الأشياء وراء ظهورنا. والآن، إلى ما بعد ثلاثة أيام يا أمي!

وتملص منها وانطلق، ماراً بالحقول المعتمة برفقة الشابين.

ومرت ثلاثة أيام ولم يأتِ.

وثلاثة أيام أخرى، وأيام ثلاثة أيضاً. كانت الأم مذعورة تتساءل إن كانت أصابته مصيبة. إنها منذ عام لم تعد تستطيع الذهاب إلى المدينة. وانتظرت ثائرة على كل من يقترب منها، لا تجرؤ على الإفضاء إلى أحد بمخاوفها، ولا تستطيع أن تغادر غرفتها خشية أن تسحب كنتها النظيفة الستار وتكتشف الحزمة تحت السرير.

وفي ليلة أرّقها التفكير في هذا كله نهضت وأشعلت الضوء وانحنت لتنظر وهي تمسك الستار بإحدى يديها. رأت علبة كبيرة مغلفة بورق قوي ومربوطة ربطاً محكماً بخيوط متينة. ضغطت عليها وأحست بشيء صلب لا يشبه جلود الغنم. قالت صارة على أسنانها:

ـ إذا كانت فعلاً جلوداً، فيجب نشرها تحت أشعة الشمس.

كان يقلقها أن ترى تلك الجلود الجيدة يلتهمها العث الذي يمكن أن يتسرب إلى داخلها. لكنها لم تجرؤ على فتح العلبة، وتركت كل شيء على ما كان عليه. ومع ذلك، لم يصل عن ابنها أي خبر.

مضت الأيام وانقضى شهر، كادت الأم تُجنّ لو لم يطرأ حادث أبعد مخاوفها وسرى عنها قليلاً. لم تكن تنتظر هذا النبأ أبداً: لقد حبلت كنتها.

نعم، بعد تلك السنوات الطويلة من الصبر فإن المرأة الشابة تمالكت نفسها وأدت وظيفتها. ففي صباح يوم جاء الابن البكر شامخاً متعاظماً، ووجد أمه جالسة عند عتبة الباب، وأعلن لها بوجه طافح بشراً:

ـ يا أمي، سيكون لك حفيد!

ابتسمت أمه من خلال الأحلام الثقيلة التي كانت تغرق إصباحها، وغشت عينيها غشاوة وهي تتأمل ابنها، وقالت له بمرارة:

ـ أنت تتكلم كأحمق. زوجتك باردة برود الحجر، ومثلها مثل الحجر عقيم. أنا لا أدري أين هو أخوك، لكنه يبدد بذاره في أي مكان، ويرفض أن يتزوج ويزرع في أرض طيبة.

سعل الابن الأكبر وأعاد بوضوح:

ـ امرأة ابنك حبلت.

في البدء رفضت الأم أن تصدق ما يقول، وحدجت ابنها بعينيها، ثم صاحت وهي تتوكأ على عصاها لتنهض:

ـ إنها لم.. لن أصدق هذا أبداً!

لكنها أدركت من تعبير وجه الشاب أنه يقول الصدق. قامت وبقدر ما استطاعت من سرعة، ذهبت لملاقاة كنتها التي كانت في المطبخ، فنظرت إليها بفضول وصاحت:

ـ أخيراً، هل يتحرك شيء في بطنك؟

هزت المرأة الشابة رأسها وتابعت عملها.. كان وجهها شاحباً مشوباً باحمرار، وتأكدت الأم يقيناً، وسألتها:

ـ منذ متى تعرفين ذلك؟

ـ منذ أكثر من هلالين.

اجتاح الأم نوبة غضب لأنهما لم يخبراها حتى هذه الساعة، وراحت تصرخ وهي تضرب الأرض بعصاها:

ـ لماذا أخفيته عني، أنا التي أتحسر منذ أعوام، لاهثة متعطشة، لسماع هذا الخبر؟ منذ شهرين! هل سبق أن شاهد أحد مخلوقاً يضارعك بروداً؟ إن أية امرأة أخرى كانت لتعجل في إخباري منذ أول يوم!

جمّدت المرأة الشابة حركة سكينها، وقالت باحتراسها المعهود:

ـ أنا لم أفعل خشية أن أكون قد أخطأت في تقديري، ثم أُحدث لك خيبة أعظم.

رفضت الأم قبول هذا العذر، وبصقت ثم قالت:

ـ إذاً، لم يكن في وسعي أنا التي وضعت جميع أولئك الأولاد أن أقول لك إن كنت مخطئة أم لا! هل تتصورين أني طفلة، أم أن الأعوام

جعلت مني بلهاء؟ لقد رأيت العجب في عشرتي لك.

لكن المرأة الشابة لم تجب بكلمة، إنما عضت على شفتها الممتلئة والشاحبة، وصبت زبدية شاي، وقادت الأم إلى مكانها أمام الحائط.

لكن المرأة العجوز كانت نافدة الصبر، تريد أن تروي الحادث، عاجزة عن البقاء جالسة ساكنة. كان يجب أن تركض وترى ابن العم وامرأته. كانا جالسين في بيتهما. إذ صار أولادهما يعملون في الحقول، ثلاثة منهم على الأقل، وكان الباقون يسعون إلى كسب قوتهم في أماكن أخرى. وكان عمل الأب يقتصر على القيام بأشغال خفيفة، لا تتطلب جهداً كبيراً، إلاّ أنه كان يعمل باستمرار، لكن امرأته كانت تنام باطمئنان طوال النهار إلاّ حين يوقظها صراخ أحفادها.

اجتازت الأم الطريق بسرعة، ودخلت عليها وأيقظتها من نومها بلا رحمة وصاحت:

ـ أنت لن تكوني بعد الآن الجدة الوحيدة هنا، أؤكد لك ذلك! بعد أشهر قليلة سيلد لي حفيد، أنا أيضاً.

استعادت ابنة العم وعيها ببطء، وأمرّت لسانها على شفتيها اللتين جففهما النوم، وفتحت عينين وديعتين، وسألت:

ـ حقاً يا ابنة العم!؟ هل سيتزوج ابنك الأصغر؟

خفّت بهجة الأم قليلاً وأجابت:

ـ لا، ليس هذا.

رفع ابن العم رأسه، وكان قد غدا رجلاً قصيراً متغضّن الجلد، كان يجلس على منصب من الخيزران ويبرم حبالاً من القش لدود القز، التي كان وقت تحولها إلى شرانق قد حان. وسأل بكلمات مقتضبة حسب عادته:

ـ إنها كنتك إذاً، يا ابنة العم؟

أجابت الأم بطلاقة:

ـ نعم.

جلست، وقد عادت بهجتها، لتروي قصتها، لكنها لم تكن تريد أن تظهر رضاء غامراً، وكانت تقنّع سرورها بشكوى وتقول:

ـ لقد انتظرت ثمانية أعوام! أما حان الوقت؟ لو أني كنت ثرية، لبحثت له عن امرأة ثانية، لكني كنت أفكر أن دور ابني الأصغر يجب أن يجيء قبل أن أزوج الأكبر مرة أخرى، فالزواج يكلف الكثير في أيامنا هذه، وباهظ أيضاً مهر المرأة الثانية، فيما إذا كانت مقبولة ولم تخرج من بيوت مشبوهة. كانت كنتي دائماً امرأة بطيئة، وبمزاج مغاير لمزاجي، وطبيعتها باردة كأفعى.

أضاف ابن العم منصفاً:

ـ إلاّ أنها ليست شريرة، يا معلمة، إنها تتصرف دائماً بتعقل وإتقان. فعندكم الآن بط، ذكوراً وإناثاً، وذلك ما لم يكن عندكم من قبل. ثم إنها زوجت ثوركم الهرم، وهذا ما أعطاكم حيواناً فتياً جديداً، وعندكم الآن ضعف الدجاج الذي كان عندكم من قبل، اثنتا عشرة دجاجة، ما عدا تلك التي تبيعونها كل عام.

أجابت الأم مكرهة:

ـ إنها ليست سيئة، لكني كنت أفضل أن يكون لديها همة لشيء آخر إضافة إلى البهائم والديوك.

أجابت ابنة العم بطيبة، لكنها كانت تشعر بالنعاس جداً، إذ كانت تنام في تلك الأيام كثيراً، تثاءبت وقالت:

ـ نعم، إنها لا تشبهك يا ابنة العم، هذا أكيد. أنت كنت دائماً امرأة كاملة الصفات، نشيطة، لا تكل همتها ولا تمل. وعدا نوبات الزحار التي أصابتك، وصرعتك أحياناً.. إني أدهش حين أراك تمشين بتلك السرعة، أنا التي لم تعد تستطيع أن تذهب أبعد من السرير إلى المائدة، ومن المائدة إلى السرير.

وأضاف ابن العم بإعجاب مفرط:

ـ نعم، أنا الذي يأكل الآن نصف الكمية التي كان يأكلها من قبل، أسمعك من هنا حين تكونين جالسة في بيتك تطلبين أن تملأ زبديتك عدة مرات، واحدة بعد واحدة.

كان ذلك الإطراء يطيب للأم، فقالت بتواضع:

ـ إني آكل أكثر من أي وقت مضى، ثلاث أو أربع زبديات، ومن كل طعام، شريطة ألاّ يكون قاسياً جداً لأني فقدت أسناني الأمامية. أشعر بقوة وجلد، حين يتوقف الزحار.

تمتمت ابنة العم:

ـ مخلوقة شَديدة اليأس.

واسترخت وأغفت لحظة. ثم أفاقت، وعندما شاهدت الأم ابتسمت لها ابتسامتها العريضة ورددت:

ـ حفيد.. لدي سبعة أحفاد، دون إحصاء البنات..

وراحت في سبات هادئ.

*

إن إعلان هذا الحدث العظيم ملأ أياماً لولاه لكانت فارغة، إذ إن الابن الأصغر لم يعد. لقد خففت تلك البهجة الجديدة وطأة الانتظار لدى الأم. قالت لنفسها إنه سيعود في يوم أو في آخر، وكفّت عن قلقها.

لكن سعادتها كانت ناقصة كسائر مسراتها ـ هكذا كانت تتصوّر ـ ففي كل بهجة هناك ما ينغّصها. كانت تخشى ولادة بنت، وتمتمت:

«وعندئذ يكون حظي التعيس يلاحقني»!

كانت قلقة إلى حد أنها كانت تود لو تُوجّه أدعية إلى الإلّهة الحيّة الصغيرة التي كانت تعرفها، أن تتملقها بقربان: ثوب أحمر جديد، أو حذاء جديد، أو شيء آخر، علّ الهدية تحملها على أن تجعل الجنين صبياً. لكن الأم كانت تخشى أن تذكر الإلّهة خطيئة قديمة لم تكفر عنها

بعد، رغم كل آلامها السابقة. لذلك كانت تتهيب الذهاب إلى المعبد لتتمنى حفيداً، إذ قد تتذكر الإلهة، وقد تضرب الجنين في أحشاء أمه. قالت المرأة العجوز بأسى:

«من الأفضل ألاّ أظهر أمام عينيها. إذا بقيت هنا دون أن أُعلن للإلّهة عن مجيء هذا الطفل فإنها قد تنسى، إذ إني منذ أمد بعيد لم أذهب إلى المعبد. لن أقول إذاً شيئاً ستعتقد بمجيء طفلٍ فانٍ عادي إلى الأرض، وليس طفلاً وريثاً لعائلتي. ينبغي التوكل على الحظ، والرجاء بأن يكون صبيّاً».

كانت الأم قلقة كئيبة، تقول لنفسها: «إن مجيء هذا الطفل بهجة دون شك، لكنه يفتح باباً على الأحزان، كسائر الولادات، إذ قد يولد الصغير ميتاً، أو مشوّهاً، أو أبله، أو أعمى، أو بنتاً!» وحين كانت تفكر في تلك البلايا المحتملة كانت تبغض الأرباب والربات جميعاً، الذين يملكون القدرة على إلحاق الأذى والضر بالبشر. وكانت تهمس:

«ألم يكن عقابي عظيماً بما لا يقاس بالنسبة إلى الزلة البسيطة التي اقترفت؟ من كان يعتقد أن الآلهة على علم بما فعلت في ذلك اليوم؟ كان ذلك بلا شك بسبب إلّه المعبد الهرم، مع أني كنت غطيت رأسه، لكنه شعر بخطيئة ترتكب بجواره ووجد وسيلة ليبلغ بقية الآلهة. سأبقى في المستقبل بعيدة عن الآلهة، أنا المخلوقة العجوز الخاطئة التي لا تعرف، حتى إذا أرادت، أن تكفّر، مزيداً، عن خطيئتها. أنا متأكدة أنه إذا وزنت المسرات والأحزان التي نلتها في حياتي، فإن كفة الأحزان تكون الراجحة. وما مباهجي إلاّ قصيرة، بسيطة بائسة! لقد أجهضت الجنين، وكنت شاهدت ابنتي الضريرة ميتة.. ألا تكفي هذه المصائب إذاً؟ ألا تكفّر البلايا عن شيء؟ نعم، كانت حياتي مليئة بالآلام. وفضلاً عن كل ذلك، كانت حياتي كلها حياة عوز وفقر. لكن الآلهة لا تعرف عدالة أو إنصافاً».

كانت تفكر في أحزانها، وكان لديها سببان للقلق: الخشية من أن

ترى الطفل الذي سيولد مشوهاً، أو بنتاً، والخوف على ابنها الأصغر الذي لا يريد أن يأتي. وكانت تقول لنفسها أحياناً إن حياتها كلها لم تكن سوى أيام انتظار. فقديماً كانت تنتظر زوجها، الذي لم يعد، وهي الآن تنتظر ابنها، وتنتظر حفيدها. كانت حياتها تلك حياة تعاسة وبؤس!

ومع ذلك يجب أن تؤمل. وعندما كان أحد الجيران يذهب إلى المدينة، فإنها كانت تسأله حين يعود:

ـ هل شاهدت ابني، اليوم؟

وكانت تقطع أزقة القرية سائلة من بيت إلى بيت:

ـ من ذهب إلى المدينة اليوم؟

وإذا التقت أحداً عاد للتوّ تكرر عليه السؤال:

ـ هل شاهدت ابني، اليوم؟

خلال تلك الأيام اعتاد رجال القرية ونساؤها على سماع ذلك السؤال، وعندما كانوا يرفعون رؤوسهم ويرونها متكئة على عصا شذبها ابنها لها من غصن شجرة من أشجارهم، ويسمعونها تسأل بصوتها المرتجف:

ـ هل شاهدت ابني اليوم؟

كانوا يجيبونها بشيء من الطيبة:

ـ لا، لا، أيتها الأم الطيبة، وكيف نلتقي به في سوق الرعاع التي نرتادها، وهو من هو ، ويكسب معيشته، كما تقولين، من الكتب؟

كانت تدير ظهرها خائبة وتتمتم بصوتها المرتجف:

ـ أنا لا أعرف هذا جيداً، أظن أنه يهتم بالكتب.

وكانوا يقولون لها ضاحكين كي يروّحوا عنها:

ـ إذا مررنا في يوم أمام مكتبة فسندخل لنرى إن كان هناك.

وكانت الأم تعود. وكأنْ لم يبق لها غير أن تستأنف الانتظار، وأن تتساءل إن كان العث ينخر في جلود الغنم.

وفي يوم، بعد مرور أشهر طويلة وصلتها أخبار. كانت جالسة قرب الباب، حسب عادتها، وكانت تمسك بين أصابعها غليونها الطويل، إذ إنها كانت قد فرغت لتوها من وجبتها الأولى. كانت جالسة تتأمل الشمس مشرقة من وراء قمم الجبال المستديرة. كانت ترصدها، راجية أن تتلقى منها حرارتها. وفجأة شاهدت ابن ابن العم البكر يخرج من منزله ويتقدم من ابنها الذي كان يشد رباط صندله، ويقول بعض كلمات بصوت خفيض.

كان الأمر بمثابة مفاجأة مذهلة بالنسبة إلى الأم، لأنها كانت شاهدت الشاب يرحل إلى المدينة في صباح ذلك اليوم نفسه، عند الفجر، إذ كانت تستيقظ قبل بزوغ الصبح، وتلك عادة قديمة لديها، فهي لا تبقى في السرير إلا إذا كانت عليلة. وقد لاحظت في حينها أن ابن العم الشاب يحمل حزمة كبيرة من العشب المحصود حديثاً، وتهيأت لمناداته، مستغربة عودته السريعة، لتسأله إن كان قد باع كل ما كان يحمله، عندما رأت ابنها يرفع رأسه ويقول بهلع:

ـ أخي!

نعم، إن ذلك الهمس وصل إلى أذنيّ الأم المرهفتين، إذ لم تكن المرأة العجوز صماء، فصاحت بذعر:

ـ ماذا حدث لابني الصغير؟

لكن الشابين استمرا في الحديث بشكل جدي. كانا يتبادلان نظرات قلقة إلى حد أن الأم لم تعد تتحمل المزيد، فسحبت رجليها سحباً إلى أن وصلت حيث يقفان، وضربت الأرض بعصاها وسألت:

ـ ماذا جرى لابني؟

جمد ابن ابن العم صامتاً، وقال ابنها البكر متردداً:

ـ أمي، هناك شيء لا يجري على ما يرام، إني أجهل.. يجب أن أذهب إلى المدينة.. سأستوضح وأعود لأخبرك..

لكن الأم لم تشأ أن تخلي سراحه قبل أن تعرف ماذا جرى، فاستوقفته بصرخات عالية وقالت:

ـ لن تذهب قبل أن تخبرني!

على دويّ ذلك الصوت أقبلت المرأة الشابة لتسمع حوارهما، وقالت:

ـ أطعها، وإلاّ فإن أمك ستقع مريضة من الغضب.

عندئذ قال الابن بأسى:

ـ رأى ابن عمي.. رأى أخي مع آخرين كثيرين، كانت يداه مربوطتين وراء ظهره بحبل من قنب، وثيابه ممزقة، كانوا يمرون في السوق حيث كان ابن عمي يبيع أعشابه. كان أخي وسط صف طويل من عشرين إلى ثلاثين شاباً، وعندما وقع نظره على ابن عمي أدار عينيه. سأل ابن عمي وأجابه الحرس، الذين يرافقونهم: إنهم شيوعيون، نذهب بهم إلى السجن، لينفذوا فيهم حكم الإعدام، غداً..

بعد التلفّظ بهذه الكلمات لبث الثلاثة ينظرون الواحد إلى الآخر بعينين جامدتين. ثم أخذ فك العجوز يختلج وراحت عيناها تنتقلان من وجه إلى آخر، ثم قالت:

ـ لقد سبق لي أن سمعت هذه الكلمة، لكني لا أعرف معناها.

أجاب الابن بهدوء:

ـ لقد سألت ابن عمي، الذي كان قد سأل أحد الحراس بدوره، فأجابه ضاحكاً إنهم صنف جديد من اللصوص انتشر في أيامنا.

تذكرت الأم الصرة التي ظلت فترة طويلة مخبأة تحت سريرها. وراحت تئن بصوت عالٍ، وألقت سترتها على رأسها وراحت تنوح:

ـ كان يجب عليَّ أن أفهم في تلك الليلة! تلك الصرّة تحت سريري، إنه الغرض الذي كان قد سرقه..

عند سماع تلك الكلمات أمسك ابنها وكنتها بها، وسحباها بسرعة

إلى البيت وهما ينظران بهلع من حولهما، ثم سألاها:

ـ ماذا تقصدين بقولك هذا، يا أمنا؟

رفعت الكنة الستار ونظرت إلى زوجها، فتقدم هذا الأخير، وأشارت الأم بأصبعها إلى الصرّة وهي تعول بأعلى صوتها:

ـ أنا لا أعرف ماذا تحوي؟.. لقد جاء بها إلى البيت في ليلة.. طلب إليَّ أن أحتفظ بالسر يوماً أو يومين حتى يعود.. لكنه لم يعد.. لم يعد أبداً.

انتصب ابنها على قدميه وذهب ليغلق الباب بهدوء، وأرتجه، بينما كانت امرأته تسدل ثوباً على النافذة. وسحبا الصرة كلاهما، وفكا الأربطة من حولها.

همست الأم ونظرها مثبت على الصرة:

ـ أكد لي أنها جلود غنم.

لم يجيباها بكلمة، إذ إنهما كانا متشككين، فحسب الوزن والملمس الصلب كانا يتساءلان إن كانا سيجدان ذهباً.

لكن الصرة لم تكن تحوي سوى كتب، كتب كثيرة وصغيرة، مطبوعة باللون الأسود، أوراق مطبوعة، بعضها مزين برسوم غريبة، تمثل الموت والدماء، وتصوّر وحوشاً هائلة تضرب رجالاً صغاراً، تقطع أعضاءهم بحد السكين.

أمام ذلك المشهد وقف الثلاثة مذعورين وتبادلوا النظرات دون أن يفقهوا لكل ذلك معنى. كانوا يتساءلون: أي سبب يحمل رجلاً على سرقة أوراق ملطخة بالحبر، وعلى إخفائها بعد ذلك؟

كانوا ينظرون في تلك الكتب ولا يفهمون منها شيئاً. ولم يكن في وسع واحد منهم أن يفك حرفاً منها، ولا أن يعرف لتلك الرسوم مغزى، كانوا يرون فقط أنها تمثل مجازر، ورجالاً مثخنين بالجراح، ومحتضرين، وأشخاصاً يقطعون إرباً إرباً، وأنه لا وجود لتلك المشاهد

الدامية الفظيعة إلاّ عند قطّاع الطرق.

أصاب الذعر الأشخاص الثلاثة: كانت الأم مذعورة خائفة على ابنها، وكان الآخران مذعورين على روحيهما، خائفين أن تكتشف هذه الكتب في منزلهما. قال ابنها:

ـ احزميها، وعند المساء سنحملها لنحرقها في المطبخ.

لكن امرأته كانت أكثر منه حذراً، قالت:

ـ لا، لا نستطيع أن نحرقها كلها دفعة واحدة، سيشاهد الجيران كثافة الدخان، وسيتساءلون عما نفعل. الأفضل أن أحرقها يوماً بعد يوم، كما أستعمل العشب للوقود، كنار لطبخ الطعام.

لم تكن الأم مهتمة بكل ما يقولان. كانت تعرف فقط أن ابنها وقع في أيد شريرة، وسألت ابنها البكر:

ـ أوّاه! ماذا ستفعل، يا بني، من أجل أخيك الصغير، وكيف ستعثر عليه؟

قال ابنها بهدوء وأسف:

ـ أعرف أين هو، لقد شرح ابن عمي لي أنهم وضعوه في سجن قريب من الباب الجنوبي، على مقربة من أرض ينفذون عليها أحكام الإعدام.

وأطلق صرخة هلع لمنظر أمه التي شحبت فجأة وامتقع لونها. نادى امرأته فحملا العجوز المسكينة ووضعاها على سريرها حيث راحت تلهث، وقد صار وجهها بلون الصلصال فزعاً على ابنها. كانت تختنق وتتمتم:

ـ أوه! يا بني، ألن تذهب؟.. أخوك!

ودفع الابن البكر مخاوفه الشخصية جانباً، وقال مشفقاً على أمه:

ـ أوه! نعم، أنا ذاهب، أنا ذاهب، سأذهب.

وبدل ثيابه، وانتعل حذاءه. وكان الوقت يبدو للأم ثقيلاً طويلاً طولاً لا ينتهي. وعندما استعد ابنها للرحيل نادته وجذبت رأسه إليها وأسرت

في أذنه بصوت خفيض:

ـ يا بنيّ، لا توفر المال إن كان فعلاً في السجن. يجب أن ندفع مالاً لنخرجه. سنصل إلى غايتنا إذا دفعنا، لم يسمع أحد بسجين لم يطلق سراحه لقاء المال. إن لديَّ بعض المال، يا بني، في حفرة هنا، كنت أحتفظ به من أجله.. خذه.. خذ كل ما لديّ.

كان ابنها يبدو ثابت الجنان، تبادل نظرة مع امرأته، وقال:

ـ سأبذل كل ما أستطيع يا أمي، من أجلك.

قالت له:

ـ من أجلي! هذا لا قيمة له. أنا عجوز، وعلى استعداد كي أموت، إنما افعل ذلك من أجله.

وانطلق الابن، وعرج في طريقه على ابن عمه، الذي كان شاهد الأخ الأصغر، واصطحبه معه وتوجها نحو المدينة.

لم يكن أمام الأم سوى أن تنتظر من جديد، لكنه كان أقسى انتظار عرفته في حياتها. كانت عاجزة عن أن تبقى ساكنة في سريرها، ومع هذا كانت ضعيفة إلى درجة لا تستطيع معها أن تنهض. وبعد فترة قصيرة، خافت الكنة على المرأة العجوز عندما شاهدت شحوب وجهها، وجمود نظرتها، وطريقتها في التمتمة، وضربها ساقيها الهزيلتين بيديها، فذهبت واستدعت ابن العم وزوجته. وجاء الزوجان يسيران الهوينا، وجلس الكهول الثلاثة يتحادثون.

وبالفعل، استأنست الأم بوجودهما إلى جانبها، إذ إنها تستطيع أن تحدثهما خيراً مما تستطيع أن تفعل مع غيرهما. كانت تبكي وتردد:

ـ إن كنت اقترفت إثماً، ألم أتألم بعد ما فيه الكفاية؟

وتقول أيضاً:

ـ إذا كنت اقترفت إثماً فلماذا لا أموت بإثمي، أنا، وينتهي كل شيء؟ لماذا أفقدهم الواحد بعد الآخر،وربما حفيدي أيضاً؟ لا، أنا لن أراه

أبداً، إني أعرف ذلك، ولن يكون أنا الذي سيموت.

وانتابها الغضب وهي تستعرض مصائبها، وراحت تبكي وتصرخ بحدة غضبها:

ـ لكن أين هي المرأة الكاملة التي لم تقترف خطيئة؟ لماذا ينزل العقاب كله عليَّ وحدي؟

قالت ابنة العم، إذ إنها خشيت أن تتفوّه الأم في أثناء غضبتها بأكثر مما ينبغي:

ـ لقد ارتكبنا جميعنا آثاماً، وإذا كان يجب أن يُحكم علينا بمقتضى خطايانا فلن تنجب أية واحدة منا ولداً. انظري إلى أولادي وأحفادي، ومع هذا فأنا مخلوقة عجوز آثمة، أنا أيضاً. لا تقصد معبداً أبداً. وحين كانت امرأة صالحة تأتي فيما سبق إلي، كي تدلني على الطريق إلى السماء، كنت أجدني مشغولة بأولادي الصغار فلا أصغي إليها. وها أنا الآن هرمة، وإذا ما أريد أن ألقن سواء السبيل قبل أن يفوت الأوان فإني أجيب أنه قد مضى عليَّ سن التعلم، وأني لن أذهب إلى السماء إذا لم أُقبل أنا كما أنا.

هكذا كانت تعزي الأم التي ذهبت المصيبة بصوابها. وأضاف ابن العم بدوره:

ـ اصبري يا ابنة العم الطيبة، حتى نسمع الأخبار. قد يكون ألمك غير مسوّغ، فالمال الذي أخذاه معهما يمكن أن يخلي سبيله، وقد يكون ابني أخطأ، ولم يكن ابنك الذي رآه مربوط اليدين.

واختلقت ابنة العم عذراً لترسل المرأة الشابة إلى بيتها بحجة جلب غرض، كي لا تصغي إلى العجوز المسكينة التي ربما قالت أكثر مما ينبغي أن تقوله، ويكون ذلك مؤسفاً بعد أن سكتت على زلتها طوال تلك الأعوام.

وانتظروا على تلك الحال. وكان في الانتظار مشقة أقل مما لو كانت الأم تنتظر وحدها.

لم تر الأم الشابين مقبلين إلاّ بعد أن هبط الليل. كانت قد تركت سريرها عند آخر النهار، وذهبت لتجلس تحت صفصافة مع ابن عمها وامرأته. كان الكهول الثلاثة مثبتين أنظارهم على زقاق القرية الصغير. كانت ابنة العم وحدها تغفو من تارة إلى أخرى، فما كانت الأحزان تطرد النعاس من عينيها.

وأخيراً، عند مغيب الشمس، شاهدت الأم الظلين، فنهضت وتوكأت على عصاها، وظلّلت براحتها عينيها من شعاع المغيب الذهبي، وصاحت:

ـ إنهما هما!

وسلكت مهرولةً الزقاق وهي تعرج عرجاً خفيفاً. كان صوتها داوياً وخطواتها سريعة، حتى أن الجيران جميعهم خرجوا من بيوتهم. كانت القصة قد شاعت في القرية بأسرها، لكن الأهالي لم يكونوا يجسرون على أن يذهبوا إلى الأم، إذ إن حكماً قد يصدر بسبب ابنها الثاني، ويجعلهم موضع شبهة، هم أيضاً. كانوا يزاولون أعمالهم اليومية طيلة النهار، يلتهمهم الفضول، لكنهم كانوا خائفين كحال الفلاحين الذين يتحرزون حين تتعلق المسألة بالسجون والأحكام. كانوا يراقبون من بعيد ما كان يجري.

قام ابن العم ولحق بالأم. كان بود ابنة العم أن ترافقهما، لكنها كانت لا تخطو إلاّ الخطوات الضرورية جداً، وفكرت أنها لن تتأخر عن معرفة الأخبار، وقررت أن ترفق بقواها وأن تبقى جالسة. وبعد كل شيء هي كانت من اللواتي يقنعن أنفسهن بأن الأحداث تسوّى دائماً في النهاية.

أسرعت الأم وأمسكت بذراع ابنها وصرخت:

ـ ماذا علمتما عن ابني الصغير؟

لكنها ما إن كادت تلقي السؤال، وتتفحص بعينيها التعبتين وجهي الرجلين، حتى أدركت أن الواقعة قد نزلت. نظر كل من الشابين إلى وجه الآخر، وأخيراً قال ابنها بوجوم:

ـ يا أمي، أخي في السجن.

ثم نظرا من جديد كل في وجه صاحبه، وحك ابن العم الصغير رأسه، وأدار وجهه، واتخذ هيئة أبله لا يعرف كيف يعبر. عندئذ قال الابن أيضاً:

ـ يا أمي، إني أشك بقدرتنا على إنقاذه.. هو مع عشرين آخرين.. حكم عليهم بالموت وسينفذ بهم الإعدام غداً صباحاً.

أطلقت الأم صرخة حادة:

ـ بالموت!

ثم صاحت مرة ثانية:

ـ بالموت!

ولو لم يسنداها لسقطت على الأرض.

وقادها الرجلان إلى أقرب بيت وقدّما لها مقعداً وساعداها على الجلوس. راحت تئن وتبكي كطفلة صغيرة. كانت دموعها تنهمر مدراراً وشفتاها تختلجان اختلاجاً عصبياً، وكانت تضرب بقبضتها على ثدييها الجافين صارخة متهمة ابنها البكر:

ـ أنت لم تقدم لهم مالاً كافياً. لم يُسمع أبداً بوجود حراس سجن لا يُشترون بالمال! سأذهب أنا حالاً وأجيء بالمال. نعم، سأحفر الأرض، سآخذه، رغم السن المتقدّمة التي بلغتها، سأجد ابني، سأعيده إلى البيت، ولن يتركني أبداً، ليقولوا ما يشاءون.

ومرة أخرى تبادل الشابان النظرات والأسئلة، وتضرع الابن بصمت إلى ابن عمه أن يتدخل من جديد، فقال هذا الأخير:

ـ يا عمتي الطيبة، لن يسمحوا لك بأن تقابليه، لم يسمحوا لنا أبداً أن ندخل، حتى حين عرضنا عليهم المال. إنهم يزعمون أن الحكومة غاضبة وناشطة جداً في استئصال شأفة هذا النوع من الجريمة، إنها جريمة جديدة منتشرة في عصرنا الحاضر، وهي مكروهة من الحكومة أشد الكره.

صرخت الأم بكبرياء وهي ترفع عصاها في وجه الشاب مهدّدة:

ـ ابني لم يقترف جرماً قط، لكن يوجد هنا عدو يدفع أكثر مما نستطيع أن نفعل نحن كي يبقيه موقوفاً.

وسرحت أنظارها حولها على الأشخاص المجتمعين المذهولين الذين كانوا يتسقّطون الأخبار، وصاحت بهم:

ـ هل سمع أحد منكم عن جريمة ارتكبها ابني الصغير؟

تبادلوا النظرات، وأدار كل منهم عينيه دون أن يتلفّظ بكلمة واحدة.

وشاهدت الأم الريبة ترتسم على وجوههم، ريبة تحطم قلبها. وشرعت تبكي من جديد وهي تصرخ في وجوههم:

ـ نعم، أنتم تكرهونه لأنه شاب وسيم، أرفع شأناً من أولادكم الذين ليسوا سوى أجلاف. نعم، إنكم تحقدون على جميع من هم خير منكم..

ونهضت وعادت إلى بيتها مترنّحة وهي تذرف الدموع الحارّة.

عندما أواها البيت ووجدت نفسها محاطة بابن عمها وامرأته وأولاده فقط، مسحت عينيها ووجهت الكلام إلى ابنها بهدوء وبشيء من العصبيّة:

ـ إننا نضيع وقتاً ثميناً هباء. أمامنا الليلة بطولها. ما هي جريمته الحقيقية؟ سنأخذ كل ما نملك وسننقذه.

وتبادل ابنها وامرأته نظرة لم يكن فيها أي معنى سيئ، بيد أنها تعني أن صبرهما على وشك النفاد. عندئذ أجاب الابن قائلاً:

ـ إنهم يسمونه «الشيوعي»! كلمة جديدة، سمعتها كثيراً عندما كنت أبحث عن توضيح، عن سبب توقيفه، وفهمت أنهم يعنون قطاع طرق يشكّلون عصابات. سألت الحارس الذي كان واقفاً أمام باب السجن، يحمل بندقية بين ذراعيه، وأجابني: «إنه شخص مغال في شططه، يريد أن يأخذ أراضيك، وأن يتآمر على الدولة، ما يفترض أن ينفذ فيه حكم

الموت مع رفاقه». نعم، إنه مثلهم في هذه الجريمة.

كانت الأم تصغي بكل مشاعرها. كان ضياء الشمعدان يسقط على وجهها المبلل بالدموع، فأجابت دهِشَة بصوت مرتجف حاولت عبثاً أن تضبطه:

ـ لكني لا أعتقد أن هذا ممكن. إن قتل إنسان، وسرقة منزل، وترك قريب يموت جوعاً، هذه تُعتبر جرائم! لكن بأية وسيلة يمكن سرقة أراضٍ، ولفها كنسيج مشمع، وحملها تحت الذراع وإخفاؤها؟

قال الابن:

ـ لا علم لي، يا أمي!

كان جالساً على منصب صغير، خافض الرأس، واضعاً يديه الساكنتين على ركبتيه، مرتدياً ثوبه الذي لا يملك غيره، وكان منزعجاً منه لأنه غير معتاد على لبسه. أضاف ببطء:

ـ لست أدري ما الذي كان يقال أيضاً. الناس يتكلمون كثيراً في المدينة، يُقال إنهم سينفذون أحكام الإعدام بأشخاص عديدين غداً، وسيجعلون من الغد يوم عطلة. هل عندك ما تضيف على ما قلت يا ابن العم؟

حك ابن العم ذقنه،وبلع ريقه بصعوبة، وحدّج ببصره الوجوه التي تحيط به في الغرفة، وقال:

ـ كان الناس في المدينة يتكلمون ويتكلمون، لكني لم أجرؤ على إلقاء أسئلة كثيرة، إذ عندما أردت أن أستعلم عن موضوع أولئك السجناء، التفت حراس السجن نحوي وسألوني: «هل أنت واحد منهم، أنت أيضاً؟ ما همك إذاً، إذا نفذ حكم الإعدام فيهم؟» لذلك لم أجرؤ على أن أعترف بأني كنت ابن عم أحد المحكومين. قابلنا أحد رؤساء الحرس، ووعدناه بالمال، وطلبنا إليه أن يدلنا على مكان نستطيع أن نحدّثه فيه، أشار إلى مكان في زاوية السجن وراء مكتبه، فشرحنا له

قضيتنا، قلنا إننا فلاحون شرفاء، نملك بعض الأراضي ونستأجر البعض الآخر، وقلنا إن قرابة بعيدة تجمعنا بأحد المساجين، وإننا نريد إنقاذه لسمعة شرف العائلة، إذا لم يسبق لفرد من أسرتنا أن حُكم عليه، وإننا فقراء ولا نستطيع أن نقدم مبالغ ضخمة. أخذ السجان منا المال وطلب إلينا أن نصف له الموقوف المقصود. وبعد أن وصفناه له أجاب: «أظن أني عرفت عمّن تتحدثان، إنه كان يشعر ببؤسه في السجن، وأظن أنه كان يدلي باعترافات كاملة لولا وجود فتاة إلى جانبه، كانت تحثه على الامتناع عن الإدلاء بهذه الاعترافات. أنا لم أصادف قط فتاة أكثر منها اندفاعاً وإقداماً. هناك من أمثالها الكثيرات: مندفعات، جريئات، لا يهمهن نوع الميتة التي تنتظرهنّ، ولا الساعة التي تأتي فيها منيتهنّ».

وقال رئيس الحراس لنا بعد ذلك:

ـ لكن الفتى انتابه الخوف. وإني لأتساءل إن كان يدرك فعلاً خطورة فعلته أو لأي سبب يموت. يبدو عليه مظهر صبي ريفي بسيط، استخدموه وهم يعللونه بأشياء جميلة. أظن أنه ألقي القبض عليه وهو يحمل كتباً ممنوعة كان يوزعها. ففي تلك الكتب مبادئ سيئة، عن الانقلاب على الدولة، وعن التوزيع المتساوي للمال والملكية.

عند تلك الكلمات التفتت الأم نحو ابنها وبكت وأنّت وهي تقول:

ـ كنت أعرف أنه كان علينا أن نعطيه بعض الأراضي. كان في وسعنا أن نستأجر قطعاً أكثر، وأن نترك له حصة منها. لكن ابني البكر وزوجته يحتفظان بكل شيء ويرفضان منحه أي شيء.

كان الابن يستعد للردّ، لكن ابن العم الكهل قال له بهدوء:

ـ لا تجب يا ولدي، اترك أمك توقع اللوم عليك، وتلقي بعبئها على كاهلك. إننا نعرف جميعاً من أنت ومن هو أخوك. كان يكره العمل في الحقول، ويكره أي نوع من أنواع العمل.

لزم الابن الصمت وتابع ابن العم الشاب يقول:

ـ سألنا رئيس الحراس عن المبلغ الضروري لإطلاق سراح السجين، لكنه هز رأسه وقال لو كان ابن رجل غني، وصاحب نفوذ، لأمكن إنقاذه بكل تأكيد لقاء المال، أما وأنه فلاح فقير فلن يخاطر أحد من أجله، لذلك فالحكم سينفذ فيه بالتأكيد.

وراحت الأم تقول:

ـ أسيقضي نحبه لأنه ابني ولأنني فقيرة!؟ إننا نملك أرضاً سنبيعها هذه الليلة، ففي القرية أشخاص..

لكن الابن تدخّل ليعترض، بما أن الأمر يتعلق بأرضه، وسأل:

ـ وكيف نعيش نحن؟ إننا بجهد كبير نكسب عيشنا وقوتنا، وإذا كان يجب أن نستأجر أراضي بالأسعار الحالية فسنصبح متسوّلين. إن كل ما نملك يقتصر على تلك الأرض الصغيرة، وأنا لن أبيعها، يا أمي.. إنها ملكي وسأحتفظ بها.

ظلّت زوجته جالسة، وجهها شاحب، رصين، لا ينم عن شيء البتة.

لم تتلفظ بكلمة واحدة خلال السهرة، لكنها في تلك اللحظة تقدمت وقالت:

ـ يجب أن تفكروا قليلاً في الطفل الذي أحمل في أحشائي.

فأضاف زوجها بأسى:

ـ نعم، إني أفكر فيه.

ولزمت الأم العجوز الصمت. سكتت وبكت. وبعد ذلك، في أثناء الليل كلما كان أحد يرفع صوته كانت الأم تجيب بالدموع.

*

عندما انبلج الصبح، إذ إنهم سهدوا الليلة بكاملها، لملمت الأم بقايا قواها وأعلنت:

ـ سأذهب أنا بنفسي، سأذهب مرة أخرى إلى المدينة، وسأنتظر كي أشاهد ابني الصغير، حين سيخرج من السجن إلى ساحة الإعدام.

ورجاها الجميع أن تبقى، وتضرعوا إليها وتمسكوا بها كي لا تذهب. وقال الابن البكر بإلحاح:

ـ يا أمي، سأذهب لأجيء به، فيما بعد.. إنك إن شاهدت أنت إعدامه ستموتين.

لكنها أجابت:

ـ سأموت! ثم ماذا يهم إذا مت؟

غسلت وجهها، ومشطت الشعرات القليلة التي بقيت لها في رأسها، ولبست سترة نظيفة، كما كانت تفعل في كل مرة تذهب إلى المدينة، ثم قالت ببساطة:

ـ اخرج وأحضر لي حمار ابن عمي. ستعيرني حمارك أليس كذلك؟

قال الرجل بضعف وحزن:

ـ أوه! نعم.

ذهب الابن البكر وابن عمه وجاءا بالحمار، وأركبا الأم العجوز على ظهره وسارا إلى جنبها، كان الابن يحمل مصباحاً في يده، إذ كان ضياء الفجر غير كاف ليسمح لهم برؤية وجهتهم.

كانت الأم واهنة، ساكنة، ومبلّلة بدموعها، ممسكة بزمام الحمار الذي كان يسير بها دون أن ترى بوضوح إلى أين، حانية الرأس، لم ترفع عينيها مرة واحدة لتتأمل الشرق، كان نظرها غارقاً في تراب الطريق الذي لا يبين بجلاء في عتمة الصباح. كان الشابان يلزمان الصمت أيضاً، في تلك الساعة الرهيبة، ويتابعان سيرهما على الطريق المفضي إلى الباب الجنوبي المغلق في تلك الساعة المبكرة.

وأمام الباب كانت جماعات كثيرة تنتظر، إذ إن أنباء الإعدام كانت قد انتشرت في الريف. وجاء كثير من الناس مع أولادهم، يدفعهم الفضول. وما إن فُتح الباب حتى تهافتوا على الدخول. اتجهت الأم على حمارها يصحبها الشابان بمحاذاة حائط المدينة إلى ساحة في الوسط

غير مسقوفة. في تلك الساعة المبكرة كان جمهور غفير يتدافع بالمناكب قد خيم الصمت عليه لاقتراب مشهد الموت. كان الأطفال يتعلقون بآبائهم، نُهبة خوف غامض من شيء مجهول. وكان الرضّع يبكون، فتوضع الأيدي على أفواههم لتخنق بكاءهم. كان الجميع صامتين ينتظرون باشمئزاز تلك المشاهد الرهيبة التي يرغبون في رؤيتها بحماسة.

لم يطل الوقوف بالأم، والشابين، وسط ذلك الجمع الغفير، إذ قالت بصوت خفيض:

ـ لنذهب إلى حيث سياج السجن ولنمكث هناك.

كانت الأم في أعماق قلبها البائس تحتفظ بأمل في حدوث معجزة عندما تشاهد ابنها، وأنها ستلهم بوسيلة لإنقاذه، باليقين!

جرَّ أحد الشابين الحمار ناحية السجن. وانتصب حينذاك باب السجن أمامها كأنه محفور في حائط عالٍ شُكّت على حافته قطع زجاج. كان أحد الحراس مستلقياً على الأرض وإلى جانبه مصباح يحرق أنفاسه الأخيرة، ويسيل منه شمع ذائب بلون الدم القاني. كان الثلاثة واقفين على الطريق المعفرة ينتظرون. وبعد فترة قصيرة سمعوا حركة ووقع أقدام على البلاط الحجري، وصوتاً يصرخ:

ـ افتحوا الباب!

وهب الحرس ووقفوا بحالة استعداد شاكي السلاح على جانبي الباب. وعندئذ فُتح الباب على مصراعيه.

كانت الأم تحدّج بنظرها المشدود كي ترى ابنها، وكان يمر أمامها العديد من السجناء، شباب في مقتبل العمر، رُبطت أيديهم زوجين زوجين بسيور تصل كلِ زوجين بمن قبلهما وبمن بعدهما. كان يبدو للوهلة الأولى أنهم جميعاً كانوا فتياناً، لكن كان بينهم فتيات، من الصعب تمييزهن بشعورهن الحليقة وثيابهن الرجالية. كان لا يمكن

تمييزهن إلاّ عن كثب، من نهودهن الصغيرة وقاماتهن النحيفة، إذ كان على وجوههن سيماء القسوة والجرأة كالفتيان سواء بسواء.

وعندما كان المحكومون يتقدمون كانت الأم تتفحّصهم واحداً واحداً، وفجأة رأت ابنها. نعم، كان يمشي خافض الرأس موثوق اليدين بوثاق يشدّهما إلى يدي فتاة تمشي إلى جانبه.

عندئذ هجمت الأم باندفاع، وسقطت عند قدمي الشاب ولفتهما بذراعيها وأطلقت صرخة مدوّية:

ـ ابني!

ورفعت عينيها إلى وجهه، الذي كان غاية في الشحوب بشفتيه اللتين غاب لونهما وكمدتا. وحين رأى الابن أمه ازداد شحوبه، وكاد يسقط على الأرض لو لم يكن مشدوداً إلى الفتاة التي شدت على الحبل ومنعته من السقوط، لم يكن ثمة مجال للتوقف. وعندما شاهدت الفتاة المرأة العجوز بشعرها الأبيض عند قدمي الفتى صرخت:

ـ يا رفيق، اذكر أنه ليس لك أب ولا أم، لا شيء سوى قضيتنا المشتركة!

وسحبهما الركب الذاهب إلى الموت.. إلى الأمام.

وبادر أحد الحراس والتقط الأم ورماها على جانب الطريق حيث بقيت مطروحة على التراب. ابتعدت الجماهير باتجاه الباب الجنوبي.. وفجأة تصاعد في الأرجاء نشيد حماسي: كانوا يذهبون إلى الموت وهم ينشدون.

وأخيراً جاء الشابان وأرادا أن يرفعا المرأة العجوز، لكنها رفضت. كانت تئن مستلقية على التراب، وكان النشيد الرهيب يصلها مرعداً، وهي مستمرة في أنينها دون أن تميّز شيئاً.

لم تطل حالها تلك، إذ تقدم منها أحد حراس السجن وراح يضربها بقسوة بعقب بندقيته ويزأر:

ـ اغربي يا عجوز النحس!

خاف الشابان وأجبرا الأم على النهوض، وأركباها ظهر الحمار وسلكا بهدوء طريق العودة، لكنهم قبل أن يبلغوا الباب الجنوبي وقفوا لحظة بجوار الحائط وانتظروا.

انتظروا إلى أن علت ضجة كبيرة، عندئذ تبادل الشابان نظرة والتفتا إلى الأم العجوز. لم تأت بأية حركة، وكان من المستحيل معرفة ما إذا كانت قد سمعت أو فهمت. كانت منحنية على الحيوان، مثبتة نظرها على الأرض عند قوائمه. وبعد أن أصغيا إلى تلك الصرخات تابعوا طريقهم. كانت الجماهير تتفرق متنادية. كان الرجلان ساكتين. وكانت الأم العجوز تبدو وكأنها لا تسمع شيئاً. لكن من حولهم، كان الناس يتكلمون بصوت مرتفع:

ـ لقد لقوا مصرعهم بحبور وجرأة. هل شاهدت تلك الفتاة المندفعة التي ظلت تنشد حتى النهاية؟ يقيناً أن رأسها ظل ينشد فترة بعد أن فُصل عن جسمها.

وكان شخص آخر يقول:

ـ هل شاهدت ذلك الفتى الذي نفر دمه بعيداً وجرى بين قدمي جلاّده؟

كان البعض يضحك بوجوه محتقنة، وكان آخرون شاحبين. وعندما كان الرجلان والأم يجتازون باب المدينة، التفت صبي يافع، بلون الصلصال، واستند إلى الحائط وراح يقيء.

لم تتفوه الأم بكلمة، وكان لا يمكن معرفة إن كانت قد رأت أو سمعت بما جرى. لا، لقد مات ابنها، مات دون شك. كانت تعرف ذلك، ولذا غدا المال عبثاً، وعبثاً سائر الأشياء. فالملامة غير مجدية حتى إن هي أحست بالقدزة على اللوم. كانت لا تريد إلاّ شيئاً واحداً، هو أن ترجع إلى قريتها، وأن تذهب إلى ذلك القبر القديم وأن تبكي. وعبر قلبها خاطرة مريرة: لم يكن لأحد أقربائها قبر كما للنساء الأخريات قبور

لذويهن، حيث يقصدنها ويبكين عندها. إنها تكتفي لتروح عن نفسها بالقبر المجهول القديم لتذرف دموعها. لكن هذه الآلام ستخفف وطأتها بدورها. كانت أمنيتها الوحيدة هي أن تتمكّن من البكاء كي تروّح عن نفسها قليلاً.

*

عندما وصلوا أمام باب المنزل، ونزلت الأم عن الحمار، تضرعت إلى ابنها قائلة:

ـ قدني إلى ما وراء القرية.. إني بحاجة إلى البكاء قليلاً.

كانت ابنة العم واقفة هناك وسمعتها، فمسحت عينيها بكميها وهزت رأسها الأشيب وقالت بطيبة:

ـ نعم، اتركها تفعل، دمع هذه المخلوقة المسكينة سيكون لها برداً وسلاماً.

وقاد الابن أمه بصمت، وهيأ لها مكاناً عند القبر، مهد التراب وقطع عشباً وفرشه ليجعله مريحاً. جلست وأسندت رأسها على الحجارة ونظرت إلى ابنها نظرة عبوس وقالت:

ـ اذهب الآن، اتركني لأبكي فترة.

ولما رأته متردداً صاحت عالياً:

ـ اتركني، إذا لم أبك سأموت!

ذهب، لكنه لم يرد أن يتركها وحدها على تلك الصورة، فقال لها:

ـ سأعود قريباً لآخذك إلى البيت يا أمي.

شاهدت الأم، وهي جالسة على العشب، الضياء يتكاثف في ذلك اليوم، يوم التبطّل والاستراحة. وتأملت الشمس التي كانت تنشر شعاعها قوياً ذهبياً على سائر الأرجاء، وكأن أحداً لم يمت في ذلك النهار.

كانت الحقول معشوشبة مغطاة بزرع متأخر ممتلئ بحبوبه، أصفر الأوراق، وكانت الشمس الصفراء تغمر الأرض والفضاء. كانت الأم

تنتظر في أثناء تلك اللحظات أن يسيل الألم من محجريها دموعاً ترطب قلبها المحطم. استعرضت شريط حياتها وفكرت بأمواتها، وبالسرور العارض الضئيل الذي كانت تستطيع أن تتذكره بعد تلك الأعوام الطويلة، وتعاظم حزنها، وتركت نفسها فارغة دون غضب ودون صراع، تركت للألم أن يشملها حسب هواه. كانت تترك نفسها تنسحق على الأرض سحقاً، وأحست بذلك الألم يغمرها، ورضيت به، وأدارت وجهها صوب السماء وصاحت في آلامها:

ـ هل كفّرت أخيراً؟ ألم أنل عقاباً كافياً؟

عندئذ انبجست الدموع.. فأحنت رأسها على القبر، وطمرت وجهها بين الأعشاب الضارة، وبكت.

بكت بلا توقف طوال ذلك الصباح الجميل. كانت تتذكر كل صغيرة من أحزانها وكل كبيرة من مصائبها، ومشاجراتها مع زوجها، ورحيله، وأنه لم يعد هناك كفيفة صغيرة كي تخلّصها من يأسها وتعيدها إلى البيت، ثم الحالة التي كان ابنها عليها، وهو مربوط اليدين إلى تلك الفتاة الجموح. بكت طويلاً على حياتها كلها.

وبينا كانت تبكي أقبل ابنها راكضاً، يركض عبر الحقول المنتشرة فيها أشعة الشمس، ويأتي بإشارات بذراعيه، ويقول لها شيئاً لم تفهمه في شرودها مع آلامها.. رفعت رأسها لتصغي وسمعته يقول:

ـ يا أمي.. يا أمي.

راح يصيح بصوت عال:

ـ وُلد ابني، صبيّ، حفيدك، يا أمي!

لم تبلّغ رسالة طيلة حياتها بذلك الوضوح. كفّت دموعها عن الجريان دون أن تشعر بذلك. نهضت، وترنّحت، وتقدمت باتجاه ابنها وهي تصرخ:

ـ متى؟ متى حدث ذلك؟

أجابها ضاحكاً:

ـ في هذه اللحظة، في الحال. صبي. لم أرَ في حياتي طفلاً أكثر بدانة منه. وأقسم لك أنه يبكي كطفل جاوز سنته الأولى أو السنتين.

وضعت يدها على ذراع ابنها، وأخذت تضحك قليلاً، وتبكي قليلاً. ثم توكأت عليه، وأجبرت ساقيها الهرمتين على الإسراع دون أن تفكر في آلامها.

دخلا البيت، وولجا الغرفة التي كانت المرأة الشابة ترقد فيها على سريرها. كانت غاصة بنساء القرية اللواتي جئن عند سماع الخبر، وكانت الأرملة الثرثارة حاضرة أيضاً، وقد أمست أكبر النساء سناً، ضربت السنون سمعها فأصمّته، وظهرها فقصمته، وأحنت قامتها طاقين. وعندما لمحت الأم صاحت:

ـ يا لك من امرأة سعيدة الحظ، يا معلمة! كنت أظن أن الحظ قد تخلى عنك، لكنه ها هو يعود مع ابن ابنك، وأنا التي لم أنل لقاء عذابي غير عظامي البالية!

لكن الأم لم تتفوّه بحرف ولم تبصر أحداً. دخلت، وتقدمت نحو السرير، وأخفضت نظرها. كان الطفل ملء بصرها. لم ترَ قط طفلاً أجمل ولا أسمن، طفلاً يبكي، كما وصفه أبوه، فانحنت عليه وتناولته بين يديها وضمته إلى صدرها، حارّاً، قويّاً، زاخراً بحياة جديدة.

تفحّصته من القدمين إلى الرأس، وراحت تضحك، ثم تأمّلته من جديد، وأخيراً دارت تبحث عن ابنة عمها. كانتْ هناك، جاءت مع حفيد أو حفيدين متعلقين بها، وعندما لمحت الأم الوجه الذي تريد أن تراه رفعت الصغير لتظهره، غير عابئة بالجمع الذي يملأ الغرفة، صاحت عالياً، والدموع تنهمر سخينة من عينيها:

ـ انظري يا ابنة العم، أنا مثقلة بآثام أقل مما كنت أعتقد.. هذا هو حفيدي.

ـ تمت ـ

مأساة أمّ

رواية مؤثّرة جدًّا صيغت بأسلوب جزل جذاب وبسيط، كما اختيرت شخصياتها بطريقة بارزة، وبساطة السرد هي ما جعل الرواية والشخصيات عاطفية، مع العلم أن پيرل باك لديها الموهبة لجعل الشخصية تكون وتشعر وتتمثّل بعدة شخصيات صينية بعاداتها وتقاليدها دون أن تبدو غريبة.

«مأساة أم» رواية تقع أحداثها في ريف الصين قبل اندلاع الثورة، حيث المزارعون الفقراء كانوا لا يزالون يعملون طيلة النهار في الحقول لدفع الضرائب الفادحة، ولا يبقى لهم من محاصيلهم إلاّ النزر اليسير الذي يمكنهم الاحتفاظ به.

ISBN 978-9953-542-38-6

9 789953 542386

دار الحرف العربي
للطباعة والنشر والتوزيع